سلسلة مؤلفات محمد ديب

سلسلة
التراث

محمد ديب

الليلة المتوحشة

رواية





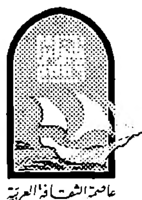
منشورات ANEP

محمد ديب

الليلة المتوحشة

رواية

ترجمة : نور الأسعد



منشورات ANEP

الكتاب : الليلة المتوحشة

المؤلف : محمد ديب

الناشر : منشورات ANEP

ترجمة : نور الأسد

50، شارع خليفة بوخالفة - الجزائر

الهاتف : 213 21 23 64 85/86

الفاكس : 213 21 23 64 90

Site-web : www.anep.com.dz

الطبعة 2007

ISBN : 9947-21-140-1

عين الصيّاد

قالت من غير أن ترفع رأسها أو أن ترميني بنظرة:

ـ تعرفهم وتعرف طباعهم.

من تقف أمامي؟ أفتاةٌ نضجت باكراً؟ بل امرأة. وتابعت بصوتٍ خافتٍ تخالطه الحدّة:

ـ لست حريصةً على الوقوع في مشاكل. لا أريد أن ينهال عليّ وابلٌ من المشاكل. وربّما أكثر. لا أريد أن يقطعوا رأسي أو...

يا لهذين الوركين، يا لنهديها تحت الثوب الرقيق السويّ! هي امرأةٌ فعلاً. حدّقتُ في المصاطب التي برزت خلف سلسلةٍ من القمم، وأنا أصغي ولا أصغي. فامتدّ أمامي من هذا المكان منخفضٌ عارٍ، راح يرتفع ليمتد على شكل سطحٍ أجرد مثله، ثمّ خبا عند هذا الحاجز الصخريّ، حيث تراءت للعين من فوقه مصاطبَ من الطين الممزوج بالقش، وقد طُليت بالكلس، فيما روافدها الخشبية مدبّبةٌ من كلتا الجهتين. أمّا القسم الأكبر من القرية، فيتأرجح في منحدرٍ مقابلٍ لا يرقى إليه النظر. وأنا هنا كما في الغربة.

أمالت رأسها، ثمّ واصلت بالصوت والنبرة نفسيهما:

ـ أو أن تبقروا بطني!

وما لبثت أن كرّرت والعناد يسيطر على وجهٍ استحال أحمر كالقرميد، رغم أنّه لطيف عادة، ويعلوه وشمٌ أزرق عند الجبين:

ـ تعرفهم. لا أريد أن ينهال عليّ وابلٌ من المشاكل.

عند ذلك، أخذت أتمتم بالشتائم.

وكل ما فعلته أنها رفعت رأسها. رفعته، وإذا بعيني فهد يلتهمانني. كانت فيهما نظرة تحدٍّ أيضاً. وفي الوقت نفسه، تراجعت. فتبعتها. وآل بها المطاف رويداً رويداً إلى دغلٍ من الصبّار، مكسوّ بثآليل صفراء دهنيةٍ عملاقة، ثمارٌ نضجت منذ فترةٍ، ناتئةً على سطح هذه الجُذول الأخضر. فتوقّفت لبرهةٍ لأرمق البيوت من جديدٍ، أو ما يبدو لي منها؛ ولكن، لا يوجد أحد ابداً. وبينما كنت أهمّ بالمسير، اصطدمت بحاجزٍ أفردته أمامي عيناها اللاهبتان، وقد أسدلت مسحةً من البؤس على محيّاها.

كانت أشجار الزيتون البرّية منتصبة بين أشجار الصبّار فوق هذه الصخور، ونحن قربها يتفرّس كلٌّ منّا بالآخر. أمّا في الأسفل، فكان السهل أشبه ببحرٍ كلسيٍّ مضطرمٍ يرسل لمعاناً من بعيد.

وتابعت تقول:

ـ سوف يذبحونني.

نظرت إليّ بازدراء من غير أن تطرف بعينيها. لم يكن لشتائمي أيّ تأثيرٍ عليها. إزاء حدقتيها المحمومتين، اصطدمت بالجدار نفسه غير أنّ ذلك لم يمنعني من القيام بخطوةٍ إضافية.

كادت تصرخ، لا بل سوّلت لها نفسها ذلك، غير أنّها تمالكت نفسها قبل أن تضيف:

ـ سأذبح أو تشقّ بطني، وإذا لم يصل جلّاديّ وحدهم، فسيوافيهم البقية ليمدّوا لهم يد المساعدة! ومَن السبب؟ متشرّدٌ... خنزير يتدخّل فيما لا يعنيه.

سألتها:

ـ اللعنة، أين هو هذا الشخص؟

ـ هنا، خلف نباتات الصبّار هذه.

كانت طفلة أكثر منها امرأة. وسرعان ما أشارت إلى الجانب بإشارةٍ قصيرة من ذقنها.

ـ افترش الأرض كقطعة لحم جاهزة لتُدخّن. إنّه دودةٌ يجوب الملاجىء واحداً واحداً متسولاً، وبعد أن يملأ جوفه، يتهالك في الخلف لينفق الساعات غافياً. لقد رأى كلّ شيء.

لم أعد أدري من أواجه. طفلة أم امرأة؟ وعند ذلك أجبتها:

ـ هل أنت متأكّدة؟

تقطعت قهقهة في حلقها.

ـ يسألني إن كنت متأكّدة! أؤكّد لك أنّه يعرف كلّ شيء. وهو الآن يشخّر عند الجانب الآخر من هذه الصبّارات. ولن يستيقظ قبل العصر.

ـ وقد جئت بي...

ـ إنّه يأتي كلّ يوم، ومن يعرفه؟ لا أحد. وهو أيضاً لا يعرف أحداً. هو أكثر وحدة من كلب. حيوانٌ شاردٌ هذا هو.

أخذ صوتها يختنق أكثر فأكثر حتّى ابتلعته الريح التي كانت تهمهم حكايتها الخاصّة بالصوت نفسه. وأحاطتني مقلتاها بلهيبهما من غير أن تفارقاني. حسناءٌ هي، تتسبّب بشقائك... لا ليست طفلة، بل امرأة.

وكرّرتُ:

ـ وقد جئت بي إلى هنا...

استأنفت الريح أو الصوت... الزمجرة أو النبرة الكئيبة... متجاهلة ملاحظتي:

ـ إن ألمّ بي مكروهٌ، أيّ مكروهٍ...

قاطعتها قائلاً:

ـ وإن يكن؟ سنرى.

تابعت نشيجها العميق ثم عادت للهجتها المتهكمة الساخرة لتقول بقلق:

ـ سنرى، متى؟ حين ينقضّون عليّ؟ أو بعد فوات الأوان؟

ـ ما زالت أمامنا فترة ما بعد الظهر كلّها. بقي متّسعٌ من الوقت.

فأشرق وجهها سِرًّا وسألت:

ـ بعد الظهر. بعد الظهر هذا؟

وجازفت بالسؤال، سؤالٌ غريب:

ـ مع ذلك، هل أمامنا متّسعٌ من الوقت فعلاً؟

مصمماً على النظر من الناحية الجيدة شرحت لها ضاحكاً:

ـ إنّ ظلّ شجرة الزيتون هذه يحيط بجذع الشجرة تماماً. ومن شأن امتداده وابتعاده عنها أن يستغرق وقتاً طويلاً. فإن صحّ أنّ الحيوان موجودٌ في الخلف، من الأفضل أن يستيقظ ما إن يلامس الظل الأفق أو يكاد. ساعتها يكون الوقت ملائماً.

فغرت فاها وكأنّها تشهق الهواء باندفاعٍ، ثمّ صرخت دفعة واحدة:

ـ بالضبط! وبانتظار ذلك، يجب ألا نزعج سيادته!

كبتت صرختها وهي تشهق بلهفةٍ مزيداً من الهواء وكأنّه سينفد من الجوّ. وعادت تلك النظرة الشاردة إلى عينيها.

بعد نظرة سريعة ألقتها بصمت نحو القرية، استأنفت كلامها بعواءٍ يائس:

ـ سيكون الأوان قد فات!

ـ فات؟

كان أحدنا يواجه الآخر والنظرات متشابكةٌ، لا تنفصل ولو لبرهةٍ. وكانت خصلاتها التي تنضح عرقاً قد التصقت بصدغيها، فيما إبطاها رطبتان. أخذنا نحدّق في أعين بعضنا وكلانا لا ينبس بكلمة. ارتفعت حدّة التوهُّج الجامح وصرير الزيزان ولهاث الهواء المتوحش و... لا شيء. لا شيء غير ذلك يسبر أغوار البلاد.

كان عليّ أن أزيح عن كاهلي عبء جبلٍ كي أنجح بالسُؤال:

ـ ماذا... ماذا يدور في رأسك وأنت...

بقي سؤالي مبتوراً وقد أخذ منّي الجهد كلّ مأخذ.

ورغم أنّها تظاهرت بعدم سماع سؤالي كي تجهز إجابةً في سرّها، إلا أنّ قوّتها خذلتها بدورها، فتمتمت:

ـ لأنّه...

كان الصمت في خضمّ هذا المكان الذي تسكنه أرواح النار، يزداد ثقلاً.

لكنّها لم تنفكّ تحدجني بنظرةٍ كئيبة، وهي تتنفس ببطءٍ، فيما شفتاها الجافتان فاغرتان. ترى، هل فهمت؟ أهي تراني حقاً؟ لست متأكّداً. وسرعان ما فهمت الجواب بنفسي: لا، فأنا وهي نفهم أنّ الصمت سواء ساد بيننا أم لا، فإنّ الكلمات أبداً لا تزال تسافر بيننا؛ هي الكلمات المستترة نفسها التي تدوّي في أعماق الجسد، هذه البئر السوداء؛ هي تلك الكلمات المقدّرة نفسها التي أنبأت بكلّ شيء ونطقت بالحكم.

قذفتُ السكين نحو جذع شجرة الزيتون بنفاذ صبر. حين انغرز حدّها في الشجرة، ارتجّ النصل وأخذ يرجّع أشعة الشمس من كلّ الجهات بنوعٍ من الهيجان. وما إن استقرّت هناك، حتّى توقّفت عن الحركة.

أدارت الفتاة رأسها، رأت المنظر ثمّ عادت لتلقي عليّ بثقل نظراتها.

ـ لا أريد أن تلمّ بي المشاكل.

كانت تحرّك لسانها بصعوبةٍ، فراحت تتكلّم كمن فقد عقله أو لا يعي ما يقوله:

ـ لقد رأيته مقبلاً. كان يتسلّق من الخلف كما تفعل أنت عادةً، حتّى أنّني خلت أوّلاً أنّك القادم. فوجدت نفسي أجلس بالقرب من أشجار الصبّار هذه وأتوقّع رؤيتك. ويا للمصيبة! كان هو من رأيته صاعداً، مستعيناً بهراوته! كان يحبو على أطرافه الأربعة. هكذا!.

ثم جثت على الأرض بيديها وركبتيها، وخدشتها بأظافرها كلّها. لم يكن لدي ما أقوله، إنها فتاةٌ غريبة الأطوار.

وتناهى إليّ صوتها، أصحل، وقد خفتَ وقعه:

ـ لو أنّك سمعت ما رماني به حينها. إنّه يعرف كلّ شيء.

وفيما هي ساجدةٌ هكذا، شرعتْ تحاول الاقتراب، فتقدّمتْ، وما إن دنتْ منّي حتّى شعرتُ بأنفاسها بطيئةً، طويلةً، تلامس

قدميّ في نعليهما. عندئذٍ سرعان ما أبعدتهما تلقائياً، ثمّ نزعت السكّين من الشجرة، فعادت أدراجها.

في الواقع، لم تكن قد قامت إلا بخطوةٍ واحدة إلى الوراء، من غير أن تبدّل مكانها، فيما ثغرها شبه متعفرٍ بالغبار، ثمّ زمجرت ثانيةً:

ـ إسمع، لا أريد أن ينهال عليّ وابلٌ من المشاكل...

كنت أتأمّل بشهوانيةٍ هذين الوركين وذلك الظهر الذي يتمايل كالأفعى، فلم أسمع بقية كلامها. رغم ذلك، لم ينفكّ صوتها يتصاعد من الأرض، فسمعتها تقول:

ـ وما عساك تفعل بهذه السكين؟ لا تجيد إلا إبرازها، ولا تعرف إلا اللعب بها. أعرف ذلك من زمان، إنّها سكّينٌ كبيرة وجميلة فعلاً، لكن ماذا بعد؟

أكانت تنتظر إجابةً؟ لكنّ جعبتي فارغةٌ مما تتوقّعه. فما من إجابة حقّاً.

وتابعت في غمرة هذا الغبار حيث افترشت الأرض في النهاية:

ـ تنظر إليها كما لو أنّك تبصر فيها روح روحك. لا تفعل سوى تقليبها وتأمّلها كأنّما هي تلك الروح.

ضحكت رغماً عني وأنا أفكّر: «سيحدث شيءٌ ما، شيء لا مناص منه، ولعلّه غير قابل للإصلاح».

ها جذع زيتونةٍ منتصب فيما جذع امرأةٍ مضطجعٌ. لكنّ شيئاً، ما كان ليمارس على انتظارنا ضغطاً أكبر، اندس بيننا. ووددنا لو نقتنع بأسفنا لأننّا لن نفيق قبل هجوم كابوسٍ تغلغل بيننا. وفي

خضمّ ذلك، تناهت إليّ أصواتٌ خافتةٌ حذرة. أكانت أصواتاً فعلاً؟ ترى، في أيّ لحظةٍ من فترة استلقائها الطويل عند قدميّ ضحكت هذه الفتاة بدورها؟ أو أنّها انتحبت؟ أحاول أن أتذكّر، لا أدري منذ متى بدأت حازوقتها، هذا الأنين الملح، منذ متى سبّبت هذا الاختلاج في جسدها.

بضربة سكين شققت السطح الأخضر لورقة صبّار. فنضحت الشفة السفلى الإسفنجية وسط البشرة البيضاء الليّنة سائلاً بلا لون.

ما إن وقعت عيناي على ذلك المنظر حتى عجزت عن تمالك نفسي، فأخذت أشقّ ندباً عميقةً في أوراق غيرها وغيرها.

فجأةً، خمدت تشنجات ضحك الفتاة بسرعة، أم تراها كانت انقباضات يأسٍ؟ إلا أنّ ذلك لم يمنع خاصرتها من الارتعاش ولا أنفاسها من هسهسةٍ ناعمةٍ، فتخالها حشرجةً لا سبيل إلى إطفائها. عند تلك اللحظة، أسبغت عليّ الحرارة قناعاً رصاصيًا، فيما جلبةٌ عظيمةٌ تصمّ آذاني. والالتماعات الساقطة من السماء اخترقتني حتّى جذور أعصابي.

إستندت إلى شجرة زيتونٍ غير تلك التي ضربتها بسكّيني مرّةً أخرى، فانغرز نصلي في أعماقها. لا، لا أقصد تلك الشجرة، بل تلك التي تقابلها حيث جلستُ عند الجذع، يعتمل بي الاضطراب وأنا أتأمل ذلك التشابك الذي نسجته أفخاذ الصبّار المسلّحة بأشواكٍ عاجية دون أن يبرح نظري الفتاة التي عادت تزحف وتمسح الأرض ببطنها ووركيها.

كانت تتلوّى وتزحف فتضيّق عليّ المكان أكثر فأكثر. ستصطدم بساقيّ من جديد. أصحيحٌ هذا؟ لقد فعلت.. ونجحت.. وها هي تمسك بإحداها. أحاطتها بذراعها، وإذا بشيءٍ أكثر سماكةً من عصير الصبّار اللزج ينتشر في أطرافي.

حين حاولت أن أسحب ساقي، تسمّرتُ في مكاني وقد عجزت عن الإتيان بأيّ حركة.

كان دفق أنفاسها التي نفثتها على قدميّ حارقاً ملتهباً، فيما أنا عاجزٌ عن التفلُّت من أسره. ولم أستطع التخلُّص من الزجاج المسحوق الذي تنثره الشمس في مقلتيّ. استمرّت البلادة قابعةً في نفسي. وبقيت هناك، بقيت مسمراً؛ تغرقني أمواج لهبٍ عنيفة بينما رأسي يرتجّ تحت رحمةِ نارٍ مدوّمة.

لمّا انطبقت شفتاها المشقّقتان بلطفٍ على ساقي، استحال الأفق أحمر اللون متوهجاً. لا، لم تكن الشمس تتأهب للمغيب؛ بل كان مجرّد إنذارٍ.

فجأةً انتزع أحدهم خنجره من جذع الشجرة. لم أكن الفاعل، بل أحدهم. الصياد المجهول.. ذاك الذي تقدّم من دون أن يكلّف شخصٌ نفسه عناء مناداته..

ذاك الذي لا يحتاج إلى حيّزٍ كي يتواجد ويتنقّل، فهو الفضاء كُلُّه، ومن أجله تستحيل الأبواب هواءً ليجتازها.. ذاك الذي يظهر في أماكن ونواحٍ بقدر ما يستطيع العقل أن يتخيّلها.

قد نراه إن كنّا نرغب، يبرز في هذا المكان، ثمّ فجأة لا تدركه العيون فلا نعود نرى شيئاً.

خلف أشجار الصبّار المتشابكة بأشواكها المنبثقة، جلس المتشرّد القرفصاء وأجال نظره. ثمّ أحكم قبضته على عصاه. كان وجهه قد استعار من النوم سحنته المشوّشة، محافظاً على تجعيدته المستمدّة من البرونز، فيما أكياس الدهن المشقوقة تنزّ الدمَ عند جفنيه وتقطّر الرمص.

إتّكأ بيده وهراوته على الأرض قبل أن يرفع مؤخّرته، وقد واجه صعوبةً في حلحلة جسمه والانتصاب واقفاً. وكان يزفر بنفسٍ ثقيل.

لكن ما إن وقف على قدميه حتّى ابتعد وهو يمشي بخطى متمايلةٍ حثيثة، من دون أن ينظر خلفه.

المتشرّد يهرب والصيّاد المجهول يباشر بمطاردته.. يحاول المتشرّد أن يخادع القدر، فيتوارى ويراوغ، فيبدو وهو ملتفٌ بأسماله كضبعٍ مطوّق؛ لكنّه ليس إلا حيواناً متقهقراً مخصيّاً، لا يستطيع إلا الالتفات والمجابهة والكشف عن أسنانه المعوجّة والتظاهر بالشجاعة يمنة ويسرة.

وتقيّأ هذا الشيء دمه الذي ابتلعه الذباب الدمويّ والشمس والغبار. كان له وجه أكولٌ صبغته مقذوفات الصاعقة بلونها الأسود.

الآن فقط، تتأهب الشمس للمغيب. ففي عالمٍ تعرّى تماماً من رياشه، يحفر انطفاء النهار فراغاً أكبر. أهكذا يمسي أمام الصياد طريقاً أقصر يقطعه، عائداً إلى الجمود، إلى الرقاد العميق لتلك

الصخرة المهجورة إبّان العبور؟ أيمسي أمامه طريقاً أقصر ليتملص من التغييرات التي تذلّ النفس؟ ماذا خلف هذا السياج من الصبّار ووراء هذا الصفّ من المسامير المدببة في البعيد؟ ماذا هناك؟ أهو المكان الأبدي حيث يحلو للشرّ أن يبتدع نفسه، ثمّ ينتظر أن يتكشّف، ثم يطلق أشعته كما لو أنّه شمسٌ أخرى؟

لن يبالي الغبار والصخور والريح بالفرق، سواء روتها قطرةٌ من الأنهار، أو من الدماء التي تخضّب بها الأرض محيّاها من طرفٍ إلى آخر. فالأرض تدير ظهرها الآن تحت وقع لفحات هواءٍ لا تكلّ ولا تتعب، وهي تتلقى هذه الحمم من شمسٍ ميتةٍ، تنهال عليها فيضاناً صامتاً وتعطيها كمدة الحديد وصلابته، بينما يبقى للسماء لونه الأرجواني ومتانته.

كنت أنظر وأصغي بهدوء. لقد اختفت الفتاة. أيكتشف أحدهم ذات يومٍ الكلمة المطلوبة لتسمية هذا النزيف المنتشر، ولعن الأرض لأنّها اندفعت تعبّ كلّ الدماء التي عُرضت عليها؟ ترى، إلام آلت تلك الفتاة؟

أمامي أرضٌ.. شمسٌ.. وحدةٌ وظلالٌ طويلة من الألوان تسعى الكلاب إلى رميها، في الوقت المناسب، في وجه ذلك الأحمر الحافل بأفكارٍ سوداوية، حيث جنّت الخفافيش واصطدمت بجدران سجنٍ غير مرئيّ.

الانحراف

ـ أتعرفين ماذا تساوي مائة وأربعون كيلومتراً بسيّارتي هذه؟ لا شيء؛ مجرّد نزهة!

كان النهار يوشك على لمّ رحاله، وبن مراح ما زال يجتاز ضواحي المدينة الساحلية الكبيرة الواحدة تلو الأخرى. كان قد أخذ عطلة، مقلاً تلك الفتاة إلى جانبه، ثريا.

ـ سيّارة المرسيدس هذه حيث تجلسين، هذه التي تجري بك في هذه اللحظة، هي الرائدة في مجالها، بل تحفةٌ من الطراز الرفيع. إنّها لمعجزةٌ باهرة! يا الله، لقد كلّفتني مبلغاً طائلاً! فلتحسبي ثمنها في بلدها الأصليّ مضاعَفاً خمس مرّات. بإمكان المرء أن يحصل هنا على كلّ شيء، كلّ ما يثير الإعجاب وما يطيب للنّفس أن تناله. السرّ كلّ السرّ هو ألّا يخشى إطلاق الشتائم. لكن ما قيمة الثمن الذي سأدفعه مقابل سيّارةٍ كهذه؟ تفاهات لا أكثر. أتريدين إشعال سيجارة يا ثريا؟ أترين هذا الزرّ؟ إضغطي عليه. سيعود إلى حالته الطبيعية بعد برهة، تخرجيها وتحصلين على الشعلة.

كان في وسع بن مراح أن يمتّع نفسه بشراء عشر سيّاراتٍ كهذه، لا بل عشرين على وجه الأصح، لو ساورته رغبةٌ في ذلك. بالرغم من هذا، تذكّر لحظة أخذَ يدرس سلبيات الصفقة وإيجابياتها، كما الأبله، قبل أن يقدم على شراء سيّارة المرسيدس أخيراً، بينما كان لا يزال أسير عربةٍ أكل الدهر عليها وشرب، تجرجره بهيكلٍ أشبه بالحطام. فلتصدّقوا يا سادة، هذا الرجل الذي يخوض مجال الأعمال بروحٍ مغامِرةٍ جسورة، هذا الذي يسوق أشغاله بخشونةٍ شرسة، قد تردّد فعلاً وكأنّه على وشك أن يحيل إلى الجحيم حياةً تعاقب عليها الألم والانزعاج ـ مع أنّ هذا لا يمتّ إلى حالته الظاهرة بصلة ـ بل لكأنّه يريد أن يمحو من حياته خمساً وعشرين سنةً من الوجود، عاشها كمن يعيش أبديةً من التعاسة. لكن، في الواقع، كان لهذا صلةٌ به فعلاً، فانهار أمام الإغراء في نهاية المطاف؛ واشترى السيّارة قاضياً على ماضيه بضربةٍ واحدة، مقرّراً أن يوليه ظهره منذ ذلك الوقت فصاعداً.

حسبه أن يتذكّر الآن كيف تصرّف ليشعر بالأسف على نفسه. أخذ يضحك من هذا الرجل الذي كان ملقيًا إليتيه على وزنه ذهباً، من غير أن يجرؤ على العيش عيشةً باذخةً، أصبحت اليوم بمتناوله. يا لذلك الهلع حين يتملك المرء فيستحيل لعنةً وأيّما لعنة! فكيف له أن ينفق النقود التي ادّخرها، بل كيف يمسّ رأس ماله، مجازفاً بصرفه رويداً رويداً حتّى ينضب؟ في الحقيقة، كان هذا الهلع يستمدّ مصدره من ينابيع بعيدةٍ، رعب قذر يمزق

أحشاءه دائماً. فهنا، لا بدّ من أن تعلموا أنّ قدميه لم تعرفا حسّ النعل حتى سنّ العاشرة. والأسوأ من ذلك، أنّه ظلّ يبيت على الطوى والجوع حتّى أصبح في ريعان الشباب.

فكيف إذاً صار صاحب ثروةٍ طائلة وهو لمّا يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر، إن صحّ التعبير؟ لا تصرّوا على نيل إجابةٍ عن هذا السؤال: فذلك شأنه، وهو فصلٌ أسدل عليه الستار وطواه دفين الصدر. لذلك، من الأفضل أن تعرضوا عن ذكر هذا السؤال. وبعد، إنّه لا يعدّ طائراً يغرّد خارج سربه في ذلك البلد. تباً، فلتجيلوا بأنظاركم من حولكم قليلاً! ـ

ـ ثريا، هلاّ أشعلتِ لي سيجارةً أيضاً؟

لم تكن عيناه تفارقان الطريق، إنها متعة هذه الطريق، سجادة. وملأه الفخر، لا سيّما وأنّ هذه السيّارة تنطلق بسرعة مائةٍ وخمسين أو مائةٍ وستين، وسائقها يحسب أنّه لا يتجاوز مائة كيلومترٍ في الساعة. وحده صوت الريح في مقياس السرعة يرتفع في الأجواء، طاغياً على المحرّك الذي كان يعمل بأقصى سرعة. لكأنّ السيّارة كانت تطير. أمّا الفتاة، فبقيت إمارات الانفعال على وجهها مجهولةً، ولم تبرح مكانها، منكمشةً على نفسها في الزاوية. لا بدّ أنّ هذا الهدير يهدهدها.

لكن بعد أن ظلّت متكوّرةً في مقعدها، إذا بها تخترق الصمت لتسأله:

ـ أيمكنني أن أدير الراديو؟

ـ طبعاً، فهذا هو سبب وجوده.

إنطلاقاً من ذلك الحين، أخذا يتنقلان في جوٍّ يخالطه نعيب الغيتار الكهربائي، على وقع صوتٍ متملّق. فقالت:

ـ إنّه الشاب خالد.

لم ينبس بن مراح ببنت شفة. فهو لم يكن يصغي إلى تلك الموسيقى، بل إلى لحنٍ آخر، ساحرٍ وممتعٍ حتّى أبعد الحدود: لحن المحرّك. لقد اكتشف اللذة التي تسبغها عليه هذه السيارة الشيطانية، ولا يحب شيئاً أكثر من ذلك، بصراحة هذا شيء رائع. بالنسبة إليه، ما كان ينصت أبداً إلى الموسيقى خلال تنقّله منفرداً، فوحده نغم سيّارته المرسيدس يكفيه.

أرهف سمعه إلى تنفس المحرّك، ناسياً سيجارته في المنفضة حيث راحت تحترق من غير أن ينحلّ عقبها. كان يخلي فكره ممّا لا يمتّ إلى الطريق بصلةٍ، لا بل يتحرّر منه ما إن تلامس يداه المقود.

إلى يمين درّاعة السيّارة الواقية للرّيح، امتدّت سلسلة مرتفعاتٍ ذات قممٍ غير منتظمة، تداعبها الشمس وهي تسطع كمخٍّ أصفر عملاق على وشك الانفجار. أما من بقية النواحي، فيظهر البلد وقد صبغته الطبيعة باللون الأحمر ثمّ سلختهم، فبدأ ينشر حمرته الخاصّة حتّى يلامس أفقاً من الغبار. وبين الدماء الجافة التي تسري في هذه الأراضي المبقّعة أبداً بجنباتٍ شوكية، تزحف الطريق وريداً أسودَ، وما تلبث فجأةً أن تخال نفسها أفعىً ذات

حراشف، فترمي بسهامها الوامضة بين الحين والآخر. أمّا الجحيم الخانق، فبقي هو هو مع توغلهما أكثر فأكثر في غمرة الجفاف الرتيب، لكنه رغم ذلك بقي خارجاً. فهنا، في حمى النوافذ الزجاجية وبتأثيرٍ من مكيّف الهواء، يحسب المرء أنّه يسافر في واحةٍ من النداوة. إزاء ذلك، لم يعد من أهميةٍ للأفكار التي كانت تعتمل في ذهن بن مراح، على غفلةٍ منه: «هؤلاء الألمان الحقيرون يجيدون فعل كلّ شيء».

بفضل هذه الأسفار، استطاع، مرّةً تلو الأخرى، أن يتعرّف إلى أرجاء البلد، غير أنّ تلك مناظرَ تنبو عنها الأحداق بالنسبة إليه. فالعقل يعجز عن تصوّر مناطق أكثر مقتاً، وهل من أمكنةٍ تحبط الإنسان وتزعجه أكثر من هذه؟ لحسن الحظ، لم يضطر مرّةً إلى التوقُّف طويلاً في هذه البَقاع النائية، سيّما أنّه لا يفعل إلا اجتيازها وحسب في كلّ مرة، من غير أن تسوّل له نفسه قط أكثر من ذلك. ففي النهاية، لا شيء يثير الاهتمام إلا المدينة. نعم، المدينة، يا لعجبها!

والآن اهتديا إلى طريق البيت. لم يكن يملك أدنى فكرةٍ عما يجول في رأس الثريا، لكن، فيما يتعلّق به، يمكنه أن يهنىء نفسه على قضاء نهارٍ ممتع في تلك المدينة البحرية. أحسّ أنها العاصمة بطريقةٍ أو بأخرى، وقد غادرها وبعض الأسف يعتمل في صدره. لكنها الحياة! ولا مناص أبداً من التأسف على ذكرى أو أخرى.

وليهنّىء نفسه أيضاً على انتشال ثريا من جحرها؛ فمعه، عرفت أنّ العالم مختلف. ومن أجلها، رفع عن وجهها قسماً من برقعٍ، لعلها لم تكن ترتديه فعلاً، بقدر ما كان يلتصق بجلدها وعقلِيّتها، شأنها في ذلك شأن الكثيرات من البنات. وها هي قد نجحت، ولو لاثنتي عشرة ساعة على الأقل، في مدّ رأسها خارج جحر مدينتهما الصغيرة التي يعجّ بمتصنّعي التقوى، والملتحينِ الذين يتميّزون بالخبث والعجز.

رماها بنظرةٍ خاطفة دون أن يلتفت. كانت ما زالت منكمشةً على نفسها، قابعةً في مقعدها، تدخن وهي تستمع إلى موسيقاها، أو لا تستمع. ترى، ماذا تمثل له ثريا هذه؟ مجرّد فتاةٍ التقاها صدفةً قبل أيامٍ قليلة، وبالكاد يعدّها إحدى معارفه. فكيف إذاً دشّن معها المرسيدس؟ هو نفسه لا يصدّق.

كان ينبغي أن تتأملوهما وهما يتسللان معاً هذا الصباح. فقد اضطرا إلى الانسحاب خلسةً، سيّما وأنّ الأغبياء الذين يصبّون جلّ اهتمامهم على مراقبة غيرهم لا ينضبون. كانت المسكينة تنكمش على نفسها قدر استطاعتها، بعبارةٍ أخرى، كانت تختبىء. وأيّ عذرٍ تحجّجت به أمام عائلتها؟ ذاك سرٌّ من الأسرار، حتّى هو نفسه لم يطرح عليها السؤال. كما أنّه لم يسألها إن كانت قد واعدت صبيّاً أو، فضلاً عن ذلك، خرجت من مدينتها قبلاً. فلم يكن متأكداً إن كانت قد فعلت ذلك يوماً.

إنفجر ضاحكاً والشيطان وحده يعرف السبب:

ـ ما الذي يضحكك يا بن؟

ـ أنا؟

ـ أنت تضحك وحدك؟

ـ لا، لا شيء. لا تهتمي لذلك. ففي بعض الأحيان، تمرّ الأفكار ببالك مروراً عابراً. أتحبين هذه الأغنية؟

ـ أجل، أعشقها.

عندئذٍ أخذ يفكّر: أقطع يدي إن لم تكن عذراء، وأقطع الأخرى إن كانت قد زارت مطعماً من قبل. كان ذلك الذي قصدناه ظُهراً مطعماً من الطراز الأول، لا تشوبه شائبة. تراه يعلو صخرةً، ولا يكتفي بتوفير منظرٍ مطلّ على المدينة والمرفأ والبحر وحسب، بل يقدّم الذّوق الرفيع أيضاً. ولا يخفى عليكم أنّهم قد خصّصوا لنا مكاناً على الشرفة كما الملوك. فتارةً يفد إلينا مدير الخدم، وطوراً يمثل أمامنا الندلاء، فينصبون حولنا المظلات الواقية من الشمس، ويفرشون مائدتنا بسكاكين وشوكٍ من الفضّة، بالإضافة إلى ثلاثة أو أربعة أقداحٍ على الأقل لكلّ شخص. هناك، في الأعلى، يستحيل أن ينتابنا أدنى شعورٍ بالقيظ؛ وهو شعورٌ كان ليقتلنا لو كنّا نسير في الشوارع، تحت.

لا أعرف هذه المنطقة، لكن حدثوني عنها. فلمّا تذكّرته، قدت السيّارة إليه صعوداً. ولعلّني لن أعطيه كامل حقّه إن قلت إنّني أحسنت الصنيع فعلاً.

أما بالنسبة لأطباقه، فلم تكن ثريا قد ذاقت مثلها طعماً من

قبل. لكنّ هذه كانت حالي أيضاً. لا بل إنّها تذوّقت النبيذ أيضاً، بما إنني قد طلبت أفضل ما عندهم من نبيذ بلادنا «لا كوفيه دي بريزيدان». اكتفت بارتشافه أولاً ثمّ أعادت القدح مكانه. وما لبثت أن حدّقت بي، ثمّ أجبرت نفسها على معاودة الكرّة. تناولت جرعةً أو اثنتين وسرعان ما أخذت تقهقه فجأةً! فقلت لها:

ـ خذي حريّتك، اشربيه طوعاً. فنحن وحدنا، لا بين أشخاصٍ مخيفين، لن يتردّدوا في تجرّع الخمر وذكر الله لا يفارق ألسنتهم، ثمّ يقدمون على اغتصابك من غير أن يمنحوك وقتاً لالتقاط أنفاسك. أترين المرسيدس؟ إنّها ليست ببعيدة. سأحملك بنفسي لو اضطر الأمر. والآن سأطلب زجاجةً أخرى.

لم تستطع إلا أن تهزّ برأسها نفياً لشدّة ما استغرقت في القهقهة؛ وقد ذهب بها الضحك كلّ مذهب.

ـ أجيلي نظرك. ما زال في هذا البلد أناسٌ تحلو لهم الحياة.

أومأت برأسها أيضاً علامة الرضى، ثمّ استكانت من غير أن تتجرّع قطرة نبيذٍ بعد ذلك.

في طريق العودة، لم نكن في عجلةٍ من أمرنا. ولمَ عسانا نفعل؟ فجحر متصنّعي التقوى لم يبرح مكانه، ولن يهرب مهما تأخّر وصولنا. لهذا، أنفقنا نهارنا عملياً فوق. أظنّ أنّ ثريا استمتعت بوقتها. لن أستغرب إن اكتشفت فيها فتاةً لطيفة مع مرور الزمن، فقد قضينا وقتاً ممتعاً. لكنّ علاقتنا لم تتجاوز ذلك، بل

ظلّت شريفةً وجدّية. وكان لا بدّ من العودة مرّةً أخرى كي نعطي علاقتنا فرصةً أفضل.

ـ اللعنة، أولاد الكلب! ماذا اقترفوا هنا؟ لم يكن ذلك موجوداً في الصباح!

كان بن مراح قد شدّ الفرامل كمن يريد أن يتفادى لقاء حتفه، حتّى أنّ ثريا صدمت رأسها بالدرَّاءة الواقية للريح. لكن، هلاَّ أعرتم الفرامل انتباهكم؟ فبفضلها، لن يقبعا في توابيت كتلك المنتشرة دوماً هذه الأيام. في البدء، حين آن أوان الانطلاق، كان بن مراح قد نصحها بشدّ حزام الأمان، لكنّ الآنسة لم تبالِ بذلك مطلقاً، بينما كان ذلك أوّل ما يفعله هو حين يستقل السيارة. وها هي الآن وقد كسا الشحوب وجهها، وغطّت جبينها بعض الخصلات، فبدت كأنّها قابلت الموت أو شبحه لتوّها.

وجّه بن مراح نظرة تحدٍّ إلى الحاجز الذي يعترض الطريق. ومما زاد الطين بلة أنها طريقٌ منحدرة! وبعد المنعطف! قالت الإشارة «بسبب الأشغال». إنّ هذه لجريمةٌ شنعاء!

كان يصرف بأسنانه.

ـ الأغبياء! الأغبياء! لم يكن ذلك موجوداً صباحاً. الحقيرون!

رجع إلى الوراء، ثمّ انطلق من جديد وما لبث أن انحرف إلى اليمين في المسار الذي يشير إليه السهم على اللافتة المركزية. أخذ يضرب براحة يديه على المقود دون أن يخف غضبه. زمجر وهو يتميَّز من الغيظ:

- وماذا لو أنّنا اصطدمنا به ليلاً؟ لا يوجد شيء! ولا مجرّد مصباحٍ كي يجنبنا الاصطدام به، بعد مغيب الشمس، وكسر عظامنا!

بعدئذٍ، خاطب الفتاة قائلاً:

- **هلاّ أسكتِّ هذه الموسيقى؟**

لم يكن الراديو قد توقّف عن بثّ الأغنيات السريعة، المبتهجة، المتصنّعة، طيلة ذلك الوقت. فما كان من ثريا إلا أن أطفأت الجهاز بحركةٍ وديعةٍ وانقيادية.

راح بن مراح يفحص الطريق التي انطلق فيها فحصاً دقيقاً. كانت ضيّقةً، أشبه بطريقٍ ريفيةٍ صغيرة، ولم تكن تتّجه نحو الغرب فعلاً، حيث وجهتهما. فأخذ يفكّر:

«كان يجب أن يحدث هذا عاجلاً أم آجلاً. لكنّها ليست طريقاً لائقةً بسيّارة مرسيدس بتاتاً». أحسّ كأنّه تلقّى إهانةً لم يستحقّها. واسترسل بأفكاره «غير أنّها مزفتةٌ ومقبولة. سنرى ماذا سيحدث حين تتقاطع سيّارتان من النوع نفسه هنا؛ سنتسلّى كثيراً».

أخذ نور النهار يخبو رويداً رويداً حتى انطفأت شعلته أخيراً، مفسحاً المجال أمام ظلامٍ دامس، أرغمهما على التماس طريقهما بواسطة مصابيح السيارة. وفي غمرة هذا الغرق، بدا البلد بعيداً بعيداً، وكأنّه قد ذاب.

خيّم ستار الصمت على بن وثريا، فأحسّا وكأنّ ضغطاً شديداً يعصر قلبيهما. لعلّهما كانا مرتعاً لذلك الاضطراب الذي يجعل

النفس تشكّ في أنّ النهار قد ينبعث مجدّداً، ما إن تهبط عليها عتمة الليل الحالكة.

لكنّ الطريق ظلّت تصعد بهما أكثر فأكثر، وقد امتدّ أمامهما نفقٌ وهميّ، حفرته الحزمة الضوئية المزدوجة لمصابيح السيارة. ولم تكن قد طالعتهما أيّ سيارةٍ أخرى حتّى ذلك الوقت.

كان بن مراح قد خفّض من استهلاك الوقود. بدت هيئتهما غريبة، كسجينين في جهازٍ للغوص، وقد أعماهما ضوء لوحة القيادة المشع. وسرعان ما ساد في الحجرة شعورٌ بأنّ عقارب الزمن عينها قد شلّت.

أخيراً، تذمّر بن وقد بات عاجزاً عن التعرُّف إلى صوته:

ـ وضعنا يتحسّن. لن يطول الأمر حتى نسلك الطريق الصحيحة.

لكنّ ذلك كان الجحيم بعينه، بكلّ سواده الذي يحيط بهما، سوادٌ فيه من الظلمة ما عجز حتّى دفق المصابيح عن اختراقه.

ـ يا إلّهي، إنّ إبليس يستقبل زوّاره شخصياً هذا المساء!

لم يكن في هذا الريف بصيص نورٍ مرئيّ، لا من بعيدٍ ولا من قريب. أمّا التفرعات فغائبةٌ كلّياً، فما من طريقٍ واحدة تتقاطع وتلك التي يسلكانها.

أخذ بن مراح يجحظ بمقلتيه حتّى كاد يخرجهما من محجريهما.

فجأةً، حانت منه ضربة على المقود، وقد ظهرت أمامه، في تلك اللحظة بالذات منعطفاتٌ متصالبةٌ، وكأنما أراد القدر أن يعاكسه. فتوقّف بن وراح يجيل الطرف حوله. فلم يبصر أيّ لافتةٍ تدلّ على الاتجاهات، أو ما يشبهها، حتّى لو كان لوحاً بدائيّاً. بل على العكس، بدت كلّ الطرق ضائعةً في غمرة الليل.

ـ تبّاً!

لقد وجد فعلاً الكلمة الوحيدة المناسبة لذلك الظرف.

بدأ يمدّ عنقه حتّى لامس جبينه زجاج الواجهة أو أوشك على ذلك. وعلى ضوء مصابيح سيّارته، أخذ يراقب المكان مطرقاً، حتّى أيقن باليأس مما طلب.

لكنه لم يستغرب الأمر.

ـ هذه هي حالنا فعلاً: ألا نبالي بشيء.

وما لبث أن أدار المحرّك من جديد. أما ثريا، فلم تكن قد غيّرت وضعيّتها في شيء. كانت لا تزال متقوقعةً على نفسها، لا تنبس بكلمة، وفي حالة ترقّبٍ. ترقّب ماذا بالضبط؟ لا ندري. أن ينتهي الأمر بسلامٍ ربّما. أو أن يحدث شيءٌ، أيّ شيء. وماذا لو أنّ هذه هي الحالُ فعلاً؟ ماذا لو أنّ شيئاً قد حدث حقّاً؟ ماذا بعد؟ في تلك الحالة، لن يكون عليها أن تتدخل، فهذا ليس من شأنها. وانتبذت زاويتها بهدوء، فبن مراح لن يسألها رأيها. فها هو يتجاهل وجودها، متوغلاً خطوةً خطوة على غير هدىً، آملاً أن يعثر على وجهته.

ما إن خطرت تلك الفكرة في بالها حتّى توقّف قلبها عن الخفقان: كان يجب أن يكونا قد عادا في مثل هذه الساعة. لاحظت أنّ بن اختار المنعطف الأيسر، فتمنّت لو يحالفهما قليلٌ من الحظّ، فتكون تلك درب العودة الصحيحة. عساها تكون الصحيحة! فأهلها لا يجيدون إلا افتعال المشاكل معها.

تناهى إليها صوت تفتّت الحجارة تحت الدواليب، وشعرت برجّاتٍ عنيفة تهزّهما. فأدركت أنّهما سائران إلى دربٍ ما. لكن، لو أنّ ذلك يحمل أيّ دلالةٍ فعلية، لما استطاعت أن تعرف كنهها.

خلال هذا الوقت، كان بن مراح يكيل الشتائم الواحدة تلو الأخرى. لكنّه تابع قيادة المرسيدس إلى الأمام، كرجلٍ مقتنعٍ أنّه يسلك الدرب الصحيحة رغم كلّ شيء، وأنّ الوقت لن يطول حتّى تظهر أمامه الطريق المناسبة: صحيحٌ أنّهما كانا يتقدّمان كيفما كان، لكن المهم أنّه الاتّجاه المناسب. ولا بدّ طبعاً من أنّهما تجاوزا قرمة الخشب التي تشير إلى وجود الأشغال. ولا ننسى أيضاً المؤشر الإيجابي الذي لاح لهما حين كفّت الطريق عن التصاعد، وأصبحت سويّةً مستقيمة. غير أنّ قارعة الطريق لم تخلُ من انخسافاتٍ عديدة ارتجّت فوقها السيّارة، من دون ذكر الكتل الصخرية التي هشمتها أثناء عبورها. يا لقدرة المرسيدس على التحمل! لو أنّ مصنّعيها الشقر أبصروه الآن، لانتزعوها منه بملء اليدين. هنا، افترّ ثغره عن ابتسامةٍ للمرّة الأولى، ولم يملك إلا أن يهدّىء من روعه قليلاً.

كانا منعزلين، وحدهما في هذا الوكن، وقد أسبغ الوميض الفوسفوريّ قناعاً على وجهيهما. لكن بدل أن يجمعهما رباط المودّة والحميمية، ازدادا انعزالاً وإطراقاً واستسلاماً للتوحُّد الخاصّ بكلّ منهما.

بدت ليلةً بكلّ ما للّيل من معنى، تحاصرهما بجبالٍ تضاعف ثقلها، وتخاطبهما بلسانٍ من الزمجرة والهدير، أو تسكت لغة الكلام المباح؛ كأنّ شيئاً وحشياً استفاق فيها، وباتت المرسيدس المتراس الوحيد للاحتماء منه. فيتقدّم نحوهما بمقدار ما يتقدّمان بدورهما، وصوتٌ ينذر بالهلاك لا يفارقه. لكن من سيحميها هي، المرسيدس؟

عند تلك اللحظة، تهيّأ لبن مراح أنّه توغّل في قلب مستنقعٍ موحل. فما كان منه إلا أن توقّف. ولمّا أراد الانطلاق مجدّداً بعد برهة، أخذت العجلات تتزحلق، فحاول أن يعود أدراجه؛ لكنّ العجلات ظلت على حالها. ثمّ شرع يعيد الكرّة دون جدوى، فالدواليب تدور على نفسها فيما الحصى والرمل يدوّيان بفرقعةٍ ساخطة عند احتكاكهما بقاعدة السيّارة. دفعه ذلك إلى الاستشاطة غيظاً ليس إلا، فضغط على دواسة البنزين تحت قدمه بكلّ ما يعتمل في صدره من حنقٍ. فردّت العجلات على غضبه بالمثل، وبدل أن تتخلّص من أسرها، ازداد انغرازها في الوحل.

ما كان منه إلا أن ترك المحرّك يعمل ومنح نفسه بعض الوقت للتفكير. من الغباء، لا بل من الطيش، أن يحاول إدارة

السيّارة ثانيةً، سيّما وأنّه لن ينجح إلا في جعلها تغوص إلى الأبد هذه المرّة. وعليه أن يتجنّب ذلك. حسناً، لكن نظراً لوزنها، يقصد المرسيدس، تلزمه مساعدة عدّة رجالٍ لسحبها من هذا المكان. هنا، لم يتلفظ بشتيمةٍ ولم يفقد رباطة جأشه، بل اكتفى بالخروج من السيّارة.

وإذا بحرارةٍ مضطرمة تصفعه على وجهه، إثر نسيم مكيّف الهواء العليل. ومع أنّه جازف باحتمال إصابةٍ حارقة، إلا أنّه أحسّ بارتياحٍ غامر. كان يستنشق بعمقٍ رائحة الصخور الجافة الكلسية، تخالطها موجاتٌ من روائح الأرطماسية والصعتر. وارتفعت أصواتٌ مستترة، غامضة، حتّى أبعد ما يمكن للأذن أن تبلغه، فخيّل إليه أنّ الأجواء تنبض بالحياة: هو الليل الذي يهتزّ تأثراً خلف ستاره. وأرهف بن مراح سمعه مترقّباً من غير أن يدري ما يترقّب. كما راح يحدج الأعماق البعيدة بنظرةٍ متفحصة، على ضوء السماء الشفافة، وهي تسكب على المكان دلواً، يرتعش بألف نجمةٍ ونجمة. لم يكن قد رأى هذا المنظر في حياته قط، بل إنّه يطالعه الآن للمرّة الأولى. أو ربما لا في الحقيقة. فكلّ ما كان يراه ينبئه أنّه عاجزٌ عن فعل شيء. في الواقع، لم يكن يبصر إلا كمية المشاكل التي ستقع على كاهله. فأخذ يدمدم:

ـ النجاة؟ هنا، في هذه البقعة المنسيّة من العالم؟ كيف؟

ثمّ استعاد مكانه في السيّارة، قبل أن يسأل الشابة:

ـ وما رأيك الآن؟

يا لصوته الغريب! فله وقعٌ عالٍ إزاء محرّكٍ بالكاد يهدر.

ـ أنت الخبير في هذه الأمور يا بن. أمّا أنا، فإن لم أعد إلى بيتي هذا المساء، فسيحتفون بي بمراسم وخيمة.

ومع أنّها حرصت على التكلم بنبرةٍ حياديّة، إلا أنّ بن مراح ضحك استهزاءً.

ـ ألا تظنّين أنّ مراسم الاحتفاء سبق أن بدأت بالنسبة إليّ؟ وإنّني أشعر بفرحةٍ غامرة؟ لا سيّما وأنني قابعٌ هنا، بدون أن أعرف ما العمل. ألا يسمّى هذا غرقاً في ورطة؟

ـ فلنجرّب أن ندفعها.

وهنا، كافأها بضحكاتٍ لم تعرف أكثر منها تصنّعاً وتهكماً. وما لبث أن أطفأ المحرّك الذي بات يهدر بلا فائدة.

ـ أتدركين وزن سيّارة مرسيدس؟

ـ كلا.

ـ إذاً، إنسَي الموضوع.

حين غادر السيّارة ثانيةً، جابه الليل وهو يتفحصه بدون أن يتفوّه بكلمة. أفّ! ترى، ماذا يتوارى خلف هذه الدياجير التي تعانق أسوارها السماء؟ لا يُسمَع حتى نباح كلب.

خرجت الفتاة بدورها وصوت اصطفاف باب السيارة حين اغلقته فاجأها. أمّا في ما يتعلّق ببن مراح، فقد شعر بصدمةٍ تنخلع لها القلوب.

ظلّ حبل الحوار متقطَعاً، وقد امتدّ هيكل السيّارة بينهما حاجزاً. فلم يملكا إلا أن يتأملا المشهد أمامهما، بقدر ما تستطيع العين أن تسافر. لكنّ الصورة التي ترجّعت في الصدر ملأتهما تردّداً في مجابهة ما ينتظرهما.

وفجأةً، شرعت ثريا تطلق نداءاتٍ من هنا وهناك.

هاي هو، هاي هو، أجفل بن مراح والتفت نحوها هاتفاً:

ـ هل جننت؟ ما الذي دهاك حتى تصرخي هكذا؟!

ـ لعلّ أحداً يسمعني ويمدّ لنا يد المساعدة.

ـ أحداً؟ لقد جننت فعلاً.

وسرعان ما غيّر رأيه وتمتم:

ـ نعم... بلا شك. ولِمَ لا؟ أنت محقّة في النداء... محقّة... إلا إن كنت... تنادين أحداً كي يذبحنا.

وذهبت كلمات ثريا المعلّلة أدراج الرياح، لا بل إنّها بدت غير مناسبة للوضع الراهن، بكلّ بساطة.

لم يبرحا مكانهما، في حالة انتظار، يترقّبان أيّ فرصةٍ للنجاة.

وهتفت الفتاة من جديد، إنّما بصوتٍ منخفض هذه المرّة:

ـ بن، بن! هلا أتيت؟ من هنا يا بن!

ـ ماذا هناك الآن؟

فتابعت بإصرارٍ لجوج يخالطه الانفعال:

ـ تعال وانظر!

ـ ماذا؟ أترين شيئاً؟

ما إن أحست به بمحاذاتها حتّى جذبته من ذراعه:

ـ هناك! أنظر، ألا تلمح نوراً هناك؟

وافق أخيراً على أن يتطلع، بطرف عينه، بالاتجاه الذي تشير إليه يدها من غير دقة، بدافع الشكليات ليس إلا. فإذا به يلمح نقطةً وامضةً ترتعش عند قمة ما يفترض أن يكون هضبةً خفيفة. ومع ذلك، لم يتردّد بإبداء شكّه:

ـ لعلّها مجرّد نجمةٍ أو أيّ شيءٍ أخر! تشرق أو تغيب، لا أدري. ففي ظل هذا الظلام الدامس، قد لا يرى المرء إلا ما يتمنّى رؤيته.

ـ أنجمةٌ هذه؟

ـ قلت إنّها قد تكون أيّ شيء.

ـ وماذا لو اتّجهنا نحوها بن؟ ماذا لو حاولنا؟ لنتحقّق منها فقط. فمن يدري، قد نقع هناك على أناسٍ طيّبين، لن يرفضوا بالتأكيد أن يهبّوا إلى نجدتنا. ما قولك يا بن؟

أيعقل أن تكون هذه الفتاة محقّة؟ أخذ يراقب ذلك الوميض في البعيد، خوفاً من أن يكون مجرّد سرابٍ، أو بافتراض الأسوأ، يخفي في طيّاته فخاً ما. فقد دفع ثمناً غالياً ليتعلّم أنّ أيّ شيء قد يحصل في الحياة، وأنّ على الإنسان أن يحترس من أيّ إشارة ويحذرها.

بعد أن احتفظ بإجابته لبرهةٍ، انتهى إلى القول:

- لن نخسر شيئاً إن ذهبنا. لكن أتريدين مرافقتي؟ ألا تفضّلين البقاء في السيّارة؟

فسارعت تجيبه: «لا، سأرافقك بن».

بعد أن أقفل سيارة المرسيدس، انطلقا والأنظار مسمّرة على النور الشحيح، أو على ذلك السرّ الغامض المجبول بأضلع هذه الغياهب، الفريد من نوعه. أما بالنسبة للمسافة التي تفصلهما عنه، فوحده الله يدرك قدرها.

كانت ثريا تجرجر قدميها بجوار بن، فلا تكفّ عن الاصطدام به بواسطة كتفها أو مرفقها. فضلاً على أنّ الدرب كلّها كانت مزروعةً حفراً وحدبات لا توفّر الراحة بتاتاً. لذلك، حين يجري الحديث عن التعثُّر مراراً وتكراراً، كانت ثريا لا تجيد إلا ذلك.

أحسّ بن أنّه حائر الطرف، مدلّه العقل، فيما يسبر أغوار الليل بسكونه الأكمد، لا بل صمته الأكمد، وظلمته التي خيّل إليه أنه لن يخترقها إلا بإزاحة ثقل جبالٍ عن كاهله. ولمّا تطلّع إلى السماء، زادت عليه الطين بلة، وهي تجيبه قِدراً سوداءَ تغلي فيها أحجارٌ ماسيّة. لكنّ المثير للعجب أنّ بن واصل المسير من غير أن يلقى مقاومةً تذكر، هذا إن استثنينا ذلكَ الإحساس المزعج الذي اعتمل في صدره، بأنه، في كلّ خطوةٍ، يجازف بالمسير فوق الهاوية.

ترى، كم مضى على تقدّمه وثريا على هذا النحو؟ ربّما حوالى العشر دقائق على الأكثر. وإذا بالآنسة فجأةً تقدم على خطوةٍ رائعة، فتطلق صرخةً وتغوص في التربة، على ما يبدو. فيدمدم بن:

ـ ما الأمر الآن؟

بحلول ذلك الوقت، كان قد استعار من الليل صوته الذي يشبهه سواداً.

ـ حذائي! لقد لويت قدمي.

وبينما اتّكأت على بن المسمّر في مكانه. راحت تتلمّس عرقوب قدمها، أو تدلّكه، لا أحد يدري بالضبط. فتساءل بن في نفسه: «وماذا عن بقية الأصوات التي تخرق ستر الليل وتدقّ طبوله، تلك التي تستمرّ إلى ما لا نهاية، تلك التي نحسبها تصدر عن صرّار الليل؟ ماذا لو أنّ النجوم هي نفسها ما يبعثها؟

ـ لم يكن ينقصني إلا هذا. إخلعيه وسيري بدونه.

ـ ماذا؟ على هذه الحصى؟

ـ إذن فلتبقي هنا، وسأقلك عند عودتي. سترين، لن يستغرق الأمر إلا بعض الوقت.

واجتاحه، من دون سببٍ معيّن، منظر سيّارته وهي تجري على الطريق العام، فيما مصابيحها تلتهم كلّ ما يعترض طريقها.

ـ لا، سألازمك. إن كان يجدر بي خلعه، فسأخلعه.

وسرعان ما انتصبت بتوازنٍ وتقدّمت، وهي تعرج، لتتشبّث بكتف بن. ولم تمضِ لحظات حتّى أفلتته، وجاهدت كي تسير على وقع وتيرته نفسها، من دون أن تظهر أيّ تكلّفٍ.

بعد هنيهة، شرعت تبكي بصمتٍ.

لم يكن بن مراح قد انتبه إلى عبراتها في البدء، لكنّه ما لبث أن فهم فجذبها إليه وهزّها بلطفٍ. فتجرّأت حينذاك على إطلاق أنّاتٍ خفيفة. صحيحٌ أنّهما لم يكونا يبصران بعضهما، إلا أنّه اكتشف الاضطراب المسيطر على ذلك الجسد المذعور بين ذراعيه.

ـ لقد انفصمت عرى صبرك أيتها المسكينة، ونحن لا ندري بعد أين ينتهي بنا المطاف. كما نجهل إن كنا سنجد أحداً أو شيئاً ما، حيث نتوجّه. لمَ لا تنتظرين هنا؟

ـ أتوسّل إليك بن، لا تتركني.

افترضَ أنّها ذرفت الدموع حتّى جفّ نبعهما في مآقيها، مما دفعها إلى الجرأة في طلبها إلى حدّ ما. فسعى إلى ذراعها، واحتضنها عند المرفق، ثمّ حثّها وهو يسندها هكذا:

ـ هيّا، تشجّعي!

إنطلقا من جديد وهما يتحسّسان طريقهما، إنما بقلبٍ حافلٍ بالأمل. لمّا كانت ثريا تتّكل على بن منذ الصباح في كلّ الأمور،

لم يكن ثمّة سببٍ كيلا تتابع ذلك. أمّا هو، فيتّكل على البركة، كما فكّر في قرارة نفسه، وهو يعتقد أنّ نجمته لن تخونه أبداً. ولو أنّه وقع في ورطةٍ يوماً ما، فليس من شيمه أن يماثلها تصرّفاً، لا سيّما أنّه يفضّل الموت على الاستسلام لمخاوفه. ولن يهمّه إن صادف تهديداً، أو مجازفةً، أو أيّ خطرٍ جسيمٍ يحدق به في زاويةٍ من زوايا هذه الليلة، إن لم تكن تلك حالتهما أصلاً منذ باشرا بالمسير: نعم، لن ينكر أنّ هذا الاحتمال واردٌ، فهو يشعر به بين ضلوعه... بأيّ حالٍ، لسوف يحتقر هذا الشعور!

كان أشبه بإنسانٍ سائرٍ في نومه، تدفعه إلى الأمام قوّةٌ عمياء ومتبصّرة في آن. ويحدث بين الفينة والأخرى أن ترغمه هذه القوة على إلقاء نظرةٍ إلى الوراء، فيفوته منظر الهواء المشعّ الذي ترسله في الأجواء مصابيح سيّارته. ومع أنّه كان يعين ثريا على المسير، إلا أنّه نسي وجودها إلى جانبه تماماً. بدا منفصلاً حتّى عن ذاته، لا يحثّ الخطى إلا وفكرةٌ روحانية تداعب خياله: المباشرة بتصليح سيّارته.

وبغتةً، أحسّ كأنّ أحداً ينتشله من هذا الحلم، حين اصطدم، هو والفتاة، بحاجزٍ صدح زمجرةً أجشة:

- وأين تتوقّعان الوصول بخطىً كهذه؟

قبض بن بكلتا يديه على الكائن الذي تلفّظ بتلك الكلمات، واستعدّ للمقاومة، ثمّ قال:

- إهدأ يا صديقي.

فما كان من الرجل إلا أن أمسكه بدوره، وصدّه عنه بدون مقاومةٍ تذكر، وقد بدا أنّه أكبر من بن حجماً، وأقوى منه بكثير.

ـ إذن أتريد أن نتعارك بدون ذكر اسم الله؟

لم ينفكّ الصوت يبدو وكأنّه يخرج من برميل، بهيماً، بطيئاً، مع نبرة سخريةٍ فلاحية.

ـ عمّا تبحث هنا يا صديقي؟ ويرافقك شخصٌ أيضاً. إنّها طفلة! ما من طريقٍ بهذا الاتجاه، بل الطريق التي تؤدّي إلى منطقتنا وحسب. ليس المكان ببعيدٍ.

ثمّ سكت رجل الظل بانتظار إجابةٍ.

ولمّا لم يتلقَّ ردّاً، استأنف كلامه كما بدأ، دون أيّ انفعالٍ:

ـ وتصحب طفلةً معك! تعالا أنتما الاثنان. أبداً لن يقال إنّ الضيوف الذين قادتهم العناية الإلّهية إلينا قد عادوا أدراجهم خائبين. قريتنا ليست بعيدة. إنّها خلف قممِ التلال التي تريانها هناك.

قمم تلال؟ أين هي؟ أجال بن نظره مفتّشاً، فلم يجد إلا سخرية ليلةٍ شيطانية، إلى جانب سخرية فلاحٍ.

إثر ذلك، أخذ الشخص يسدي إليهما النصائح، وكأنّه يسرد سلسلةً من الصلوات:

ـ في مصلحتكما أن تتبعاني. إن كنتما قد تابعتما المسير، من غير الالتقاء بي، لمزّقتكما الكلاب إرباً إرباً. وكلابنا، مثلاً، لا صوت لها، حتّى بعد أن تنقضّ عليكما.

أطلق الرجل هذه المرّة ضحكةً اختتمت بصوت تهشم قشرة بيضٍ.

لم يكن بن قد أفاق من هول الصدمة بعد، لكنّه حاول أن يستعيد رباطة جأشه في غمرة هذا الليل، فثبّت من ارتجاف صوته وخاطب الآخر بنبرة احتقار:

ـ سيّارتنا. لقد بقيت في الخلف... نحتاج إلى...

ـ ما هذا الذي معك؟ طفلة؟

ـ نحتاج إلى مساعدة بعض الرجال لانتشالها. طفلة؟ لا. يكفي أن يدفعها بعض الرجال. فما من شائبةٍ تشوب المرسيدس. يجب انتشالها من الرمال حيث غاصت، هذا كلّ شيء...

هنا، أمسكت يدان خشنتان بثريا، وراحتا تتحسّسان وجهها وعنقها وكتفيها. وما لبث الفلاح الفظّ أن أقسم:

ـ تباً، إنّها لامرأةٌ فعلاً! امرأة! أوهكذا تصحبها أينما كان؟ ماذا أصابكما كي تتسكّعا ليلاً، في هذه البقاع التي يجهل الأولياء أنفسهم وجودها؟

ـ نحتاج إلى مساعدةٍ بسيطة وحسب لتخليصها من الرمال. إنّها هناك، في الخلف، ليس بعيداً.

ـ لا تخشى شيئاً بما أنّك تقول إنّها ليست بعيدة. بإمكانها أن ترقد هناك لسبعمائة عام، لن يصيبها أيّ مكروه. أعدك بذلك!

كانت ثريا تسمع حوار الرجلين في العتمة، فيتهيّأ لها أنّ كلاً منهما يسدّد على الآخر رصاصاتٍ منحرفة. فلم تكن الطلقات جميعها تحمل إلى الواحد صوت الثاني، مما يضطرهما إلى إعادة تحديد مرماهما بدقّة، كلَّ طلقتين، مع استغلال الفرصة لسدّ مسافةٍ هائلة عبر رفع نبرة صوتهما عند كلّ إجابةٍ جديدة.

وشرع الفلاح الشبح يشرح لهما بلهجةٍ متثاقلة وكأنّه يزن كلّ كلمة:

ـ ما عليكما الآن إلا السير لخطواتٍ إضافية فنصل. ستريان.

أفلتت شكوى من ثريا بدون أن تبرح مكانها: «على هذه الحصى، وحافية القدمين!». ثمّ أضافت:

ـ لم أعد أستطيع! إفعلا ما تريدان، أمّا أنا، فلم أعد أستطيع! فلتتركاني هنا، وسأنتظر عودتكما.

تناهت إليها قهقهةٌ كردّة فعلٍ على كلماتها، إن كانت قد أصغت جيّداً.

ـ ما سمعت في حياتي امرأةً تتكلّم بهذا القدر، وعلى صغرها أيضاً، كما يبدو! تنتظرين ماذا؟ اقتربي أيتها المرأة الصغيرة!

حين انتشلتها عن الأرض ذراعان مفتولتا العضلات، أحسّت الفتاة أنّها لا تتجاوز الريشة وزناً، كما شعرت بعفونةٍ فيها مزيجٌ من العرق والتراب تكاد تضيّق عليها أنفاسها.

نخر الفلاح نفسه، ثمّ علّق بصوتٍ يشبه صوت الغول:

ـ كم هي طيّبةٌ رائحة الصغيرة، كباقة أزهار.

فهم بن مراح ما حدث، ولمّا لم يجد ما يعلّق به عليه، كان لا بدّ من السكوت.

بعد قليل، سمع الفتاة تصرخ:

ـ توقّف! فقدت أحد زوجي حذائي! لقد أفلت من يدي!

فصرخ الفلاح من تحتها بصوتٍ راعد، إنما بنبرةٍ فاترة، أو قل إنّها منبئة:

ـ لا تبالي أيتها المرأة الصغيرة، فهو لم يضع أينما وقع. فلا شيء يضيع عندنا. وسيكون لدينا متّسعٌ من الوقت كي نعود لالتقاطه في النهار.

في النهار! أهو من الغباء ما جعله يحسب أنّهما سيبيتان في هذه الجبال؟ مستحيل! لا يمكن أن يحدث هذا أبداً!

فيما كان يحملها من مكانٍ إلى آخر، ولّد فيها إحساساً أنّها أحد تلك الحملان التي يمنعها ضعفها من السير، مما يضطر الفلاحين إلى حملها. فما كان منها إلا أن كتمت أنفاسها، وسلّمت نفسها لضمّته، وهي تعلّل نفسها أنّ وزنها صار أخف.

لا بدّ من أنّهم التفّوا للتوّ حول التلال التي ذكرها لهما. فليست الكلاب ما استقبلهما، بل بهائم شيطانية تدافعت بارتباكٍ في غمرة الليل، لتحاصرهما وتنقضّ عليهما. كانت عيونها تقدح

شرراً وأشداقها تقشط الرغوة، وهي لا تنفكّ تبصق في حشرجةٍ غاضبة. لم يصدر نُبَاحٌ عن أيّ حيوانٍ منها، مع العلم أنّ الرعب كان ليخفّف من وطأته قليلاً لو أنّ أحدها قد نبح.

كانت الهزّات التي تحكّمت بجسد ثريا، بعدد الركلات التي وجّهها الفلاح إلى الحيوانات، من أمامه وعن جانبه، وهو يكيل لها الشتائم ويصرخ في آن:

ـ هدوء! هدوء! إلى الوراء!

لم يمضِ وقتٌ طويل حتّى تعرّفت الفتاة إلى شيءٍ مائلٍ إلى البياض، يومض بين الأعماق الدامسة، أو ربّما خيّل إليها ذلك. لكأنها شقق جدارٍ منتصبة على مستوياتٍ مختلفة. إنها بيوتٌ! كذلك قال الرجل. بدا الواحد منها مرتفعاً عن ذلك الذي يجاوره، ولا يزيد عددها، مجتمعةً، عن خمسة أو ستة منازل أخذت نظهر، وتمطر الغريبين بوابلٍ من النظرات المحمومة. فقالت الفتاة لنفسها بنبرة رضى كئيب: «هذا ما رأيته أولاً، وهو يومض من بعيد».

تراجعت الكلاب بالطبع، لكنّها لم تهرب ولم تتقهقر، ولم تعد إلى الجحيم الذي تقيأها على وجه الأرض. وفي خضمّ عنادها الملعون، لعلّها كانت تعزم على تمزيق الدخيلين إلى أشلاء. ترى، إلى أين قد تمضي بهما تلك الليلة؟

في هذه الأثناء، تسلّق الفلاح منحدراً صغيراً. وما هي إلا بضع خطواتٍ منحرفةٍ، حتّى اجتاز عتبة بابٍ بدا أنّه انفتح بنفسه، والحمل ما زال ملقىً على كاهله.

لكنّ بن مراح لم يتجاوز العتبة، وفق ما تفرض عليه واجباته كرجلٍ. بل انتظر مكانه، حيث تناهى إليه صوت الفلاح، وهو يعلن:

ـ أنظرن ماذا أحمل إليكنّ.

لم يكن من شكٍّ في أنّ المكان يحوي نساء. لم تجد إحداهنّ إلا ذلك السؤال اليتيم تطرحه:

ـ عدا ذلك، هل أتيتنا بالسكر والشاي؟

ـ نعم، نعم، لا تقلقي... لكن أدخل! أتنوي البقاء خارجاً؟

فتقدّم بن، من غير أن تدهشه هذه التشجيعات قطّ. وإذا برائحةٍ كرائحة قبوٍ رطب، وزيتٍ مكرّرٍ للإضاءة، تجتاحه. وفي الوقت نفسه، بهره لهب مسرجة الخزّان، رغم أنّه لم يكن ينير خفايا الغرفة بطولها وعرضها، حيث اكتشف ثريا وقد استقرّت على رجليها والابتسامة فوق ثغرها!

كان الفلاح ما زال منهمكاً في فكّ المزودة المتدلية عن كتفه، حين أطلّت امرأةٌ ممتلئةٌ صحةً، جميلة، سمراء، مكينة البنية مثله تقريباً، فمدّت يدها لاستقباله. وفي زاويةٍ خفية، انعزلت امرأةٌ أخرى، لها طيف الأقزام، وهي تتكوّر في الظل.

تابعت المرأة كلامها وهي تأخذ المزودة:

ـ وأحضرتَ هذه أيضاً؟

فأجابها الفلاح بنبرةٍ أوحت أنّه زوجها ـ وهل من احتمالٍ آخر؟ ـ: «نعم، وجدتها وأنا في الطريق».

ومن غير أن تتفوّه المرأة بكلمة، عمدت إلى تحسّس ثريا من غير أن تبالي بما قد تظنّ هذه الأخيرة، وكأنّها لا تسعى إلى التأكّد من وجودها، بقدر ما تريد أن تستمتع بملمس ثوبها ونسيجه.

وفجأةً، سارعت تعلن وبكلّ براءة:

ـ إنّها عاريةٌ تحت الثوب.

أما الفتاة التي لم تكن قد تذمّرت أو بادرت إلى أيّ حركةٍ، فعلت وجهها حمرة الخجل. لكنّ الفلاح لم يلتفت، فيما الطيف بمحاذاة دائرة الضوء، الذي اتّضح أنّه ليس بقزمة، بل امرأة مسنّة تجلس القرفصاء، فقد أخذت صاحبته تشير إلى ثريا. غير أنّ زوجة الفلاح كانت قد تسلّمت أمر الآنسة:

ـ إتبعيني.

وتلاشت الاثنتان في الغرفة المجاورة أو ربما كان مخزناً.

أما بن، فلم يثر اهتمامه إلا ذلك المصباح الذي أخذ يدخّن، ناشراً في الأجواء نوره الضارب إلى الحمرة. كان يرى هذا الجهاز العتيق للمرّة الأولى، وهو يضيء حيّزاً ضيّقاً من المكان فقط.

وواصلت العجوز إرسال الإشارات الواحدة تلو الأخرى، وهي تومىء إلى المكان الشاغر بجوارها، على جلد ماعزٍ. لكنّها

كانت تخاطب بن هذه المرّة، الذي لم يكن قد فطن إلى ذلك في بادىء الأمر. وبعد وقتٍ ليس بقصير، استرعت حركتها انتباهه، فشرع يراقب تلك اليد التي تلوّح باتّجاهه، من دون أن يفقه ما يحدث. عند ذلك فقط، خطر له أن يتفحّص صاحبة اليد أيضاً: فوجد في عينيها ضوءاً قاتماً يشبه ما يعرف بالنظرات.

لم يَخلُ له شيءٌ مما حدث. كان قد تصوّر نفسه عائداً إلى السيّارة، يرافقه بعض الرجال الأشدّاء من هذا المكان، كما تصوّرهم يخرجونها من الرمل... لكن ها قد وجد نفسه أخيراً إزاء فلاحةٍ قد نسيها الزمن، مطمورةً تحت كومةٍ من الأسمال. فلم يعرف ما عساه يفعل عوض الحيرة والتردد، اللذين أغرقاه في بحرٍ من التخمينات. وبأيّ حال، لا داعي للقيام بشيء، بما أنّ الأحداث تتوالى وحدها، دونما حاجةٍ إلى مساعدة أحد.

كان الفلاح قد أوقفه هنا، ثمّ تركه ليبحث في زاويةٍ ما، قبل أن يخرج من الغرفة مجدّداً وإبريقٌ في يده. ولم يطل الوقت حتّى ارتفعت بقبقة المياه المعكّرة من الخارج.

بعدئذٍ، عادت ثريا وهي تسبق ربّة المنزل. كاد لا يتعرّف إليها وهي ملفوفةٌ بكيسٍ، ومدّثرةٌ بثوبٍ قرويّ فضفاض، سقط عليه ضوء مسرجة الخزّان، على قتامته، فزاد من فرقعة ألوانه. هنا، دخل الرجل من جديد، لكنّه تجاهل وجوده. فمرّ بمحاذاة بن مراح ومعه إبريقه، ومن غير أن يكلّف نفسه عناء التكلُّم، أشار، بإيماءةٍ من ذقنه، إلى المكان الذي كانت تعرضه عليه الجدّة،

على جلد الماعز. لكنّ تلك الأخيرة عادت فوجّهت نداءاتها الخرساء إلى ثريا، التي رأت الجلد وقبلت الدعوة. فإذا بالفلاح يلفت نظر بن، بصمتٍ لا يتخلّى عنه، إلى جلدٍ آخر مبسوط إزاء الجدار المقابل، لكنه جلد خروفٍ هذه المرّة. فاضطر بن إلى الرضوخ والتوجُّه إلى مكانه، وقد خارت قواه.

فتح عينيه فجأةً: أرسل نظراته تتثبت بجدارٍ مطليٍّ بالكلس الأزرق. كان النهار قد طلع. طلع النهار بكلّ بساطة، وهو راقدٌ ووجهه يحاور هذا الجدار. ترى، أيستعيد حواسّه في هذا المكان حيث ران عليه النعاس وغلبه النوم؟ أتكتب له العودة إلى سيّارته؟ في تلك اللحظات، وحدها نداوةٌ حادّة ولجت الغرفة، يخالطها نورٌ قويّ تحسب العين أنّه جبلها من ضلوعه. لكن كان على النور والنداوة أن يكافحا بعض الأطياف الليلية، وبقية برودةٍ لم يطوها الليل تحت جناحه بعد، فبقيت تحوّم في الأجواء. وارتفع هدير أمواجٍ من بعيد، حيث أقبل الزبد لينتحر على صفحة الرمال، بينما طلّق الحاضر في تلك الساعة ماضيه ومستقبله.

وفجأةً صحت الذكريات من كبوتها، وانفرط عقد الأحداث كلّها: الطريق العام، والانحراف، وانسياخ المرسيدس، والمسير الليلي، واستسلامه التام لسلطان النوم على جلد الخروف، في المكان نفسه، وعلى الأرضية نفسها. عند ذلك، تقلّب على فراشه فأحسّ بألم في أضلعه. لا شكّ في أنّ التيبُّس أخذ منه مأخذاً كبيراً. ثمّ رأى الجدّة هناك، وهي تجلس القرفصاء كما تركها

بالأمس، وترسل إليه الإشارات بيدها المشوّهة ما إن واجهها. وسرعان ما ألصقت يدها بوجنتها، وهي تميل برأسها إلى الجانب، مما عنى شيئاً واحداً فقط: «لا عائق يمنعك من النوم بعد يا بنيّ». إلا إن كانت تهنّئه على النوم قرير العين. فافترض أنه من الأفضل أن يجلس بدوره، فلمّا فعل، أحاط رجبيه بذراعيه، حين أدرك الحقيقة فجأةً: إنّ هذه الفلاحة العجوز تكلّمه بالإشارات لأنها تظنّ أنه لا يجيد لغتها نفسه... لغة نفسها... هذا هو السبب...

هنا، ظهرت زوجة الفلاح على وقع خطواتٍ يكتنفها الصمت، لا لشيءٍ إلا لتضع أمامه إناءً تغطّيه ضمّية كبيرة من الشعير. لم تتغيّر حدقتاها منذ العشية. ففي وضح النهار، وتحت قوسين من الحواجب، لم تنفكّ نظراتها تكاد تلتهم وجهه، على غفلةٍ منها، وبالرغم منها، وبدون أن ينفصل الماء في عينيها عن هدوئه العميق.

فسأل:

ـ وثريا؟ أين ذهبت؟

بدت كمن يشكّ في ما سمعه للتوّ، فتراجعت بسرعةٍ في حركةٍ تنمّ عن الهلع، وهي لا تزال منخفضةً. لعلّها لا تصدّق أنّه كلّمها وفهمته فعلاً. وهي بالتأكيد لم تكن تتوقّع ذلك، مثلها مثل الجدّة. فأجابته بإشارةٍ من يدها نحو الباب، حيث اختفت بدورها بحركةٍ خاطفة، وقد خلّفته أسير تساؤلاتٍ جمّة.

- في الخارج؟ لكن أين؟

في غضون ذلك الوقت، راحت الجدّة تحثّ بن، بواسطة إيماءاتٍ بليغة، ومن غير أن تبرح مكانها، على الاهتمام بالطعام الذي قُدّم إليه. فرفع خبز الشعير، ليجد الإناء مليئاً بحليبٍ كثير القشدة.

تناول طعامه والمرأة تراقبه. وقبل أن يفرغ من ازدراده، حجب الضوء رجلٌ ضخم الجثة وقد وقف بقامته العظيمة عند الباب. لم يحاول بن أن يتأمّل تقاسيمه، بل عرف فيه سريعاً منقذه وثريا، ودليلهما إلى هذا المكان. أمّا هذا الأخير، فلم يقدم على أيّ خطوةٍ إضافية، بل ظلّ منتصباً عند العتبة، وهو يفرك بين يديه غسيلاً تلامس أهدابه الأرض. فأصابت مناورته الغريبة هذه بن بالدهشة، ولم يفهم إلامَ يرمي مضيفهما. وما لبث أن انقشع الغموض. كان الرجل ينتظر منه الوقوف، فنفّذ بن رغبته الصامتة، تاركاً ما تبقّى من الخبز والحليب. ولم يكد يتقدّم حتى ألقى الفلاح الرياضيّ الجسم على كتفيه برنساً، استعار من الزنبق بياضه النقيّ. بعد ذلك، ربّت بيده على ظهره وأخرجه إلى وضح النهار.

دفعته اليد نفسها من جديد، إنما بخفةٍ هذه المرّة، حتى وصل إلى أول البيوت الخمسة أو الستة، الذي كان يرتفع فوق أرضٍ منبسطة، بخلاف جيرانه. فسار وهو قلقٌ بشأن ما سيصيبه في هذه النواحي؛ لكنّه لم يكن قلقاً كبيراً في باطنه. أهذا طبيعيّ بالنسبة إليه؟ أيضاً لا. فبطريقةٍ أو بأخرى، كلّ شيءٍ يزرع الدهشة

هنا. لذا، لم يطرح على نفسه الأسئلة، كما قرّر ألا يوجّه أيّ سؤالٍ إلى أحد.

ليس أمامه إلا الانتظار والاكتشاف. وحين التفّ حول زاوية المبنى، رأى ما رآه. كانت لمعجزةٌ حقاً أنّهما لم يتعثرا بفلاحين، جلس بعضهم القرفصاء، فيما تربّع بعضهم الآخر. بكلّ سذاجةٍ، فوق حصير من الحلفاء، وكأنّهم قد تجمّعوا توقّعاً لمجيئه. لعلّ أقل ما يقال إنّه أحسّ بالصدمة. فمن هم كلّ هؤلاء الناس؟ بدا له أنّهم على وشك المشاركة في احتفالٍ.

كانت بعض الأسئلة التي تتخبّط في رأس بن تطلب بإجابة ملحّة، لكنّه موجودٌ في رقعةٍ لا تحمل ردّاً عن أيّ سؤال. فضلاً عن ذلك، أحسّ بضغط الاكتشافات التي كانت تطلعه عند كلّ خطوةٍ، فأنبأه حدسه أنّهم، بلا شكّ، يشدّون حيزيمهم لأمرٍ غامض. لعلّهم يريدون الاحتفال بولائهم لمولى ما. لم ينمّ الشعور الذي اجتاحه لا عن اضطرابٍ ولا عن قلق. كانت مجرّد عبثية، لا اسم لها، تشبه ذلك الشعور الذي أوحى له به منظر المعبود المعروض خلف ستارٍ، لا بل قل شبحاً يجلس فوق صندوقٍ مطليّ ويستند إلى جدار البيت. يا ربّ السموات! إنّها ثريا! لم يجد صعوبةً في التعرُّف إليها، وقد انسدل ثوب الحيك الأبيض من رأسها حتّى أخمص قدميها، فأضفى عليها نقاءً وأيّما نقاء.

حاول بن أن يفكّر. بما أنّها موجودةٌ أيضاً. فهذا يعني أنّ كليهما مرتبطان... لكن بماذا في الحقيقة؟ لعنة الله على آبائهم

وأمهاتهم... أيحتفلون باستقبالهما؟ أم يمارسون طقساً؟ أم يسبّحون إلّههم؟ عند تلك اللحظة، باتت رغبته في المعرفة شديدة الوطأة، حتّى أحسّ بعقله يكاد ينفجر من كثرة التفكير. في غضون ذلك الوقت، دفعه عرّابه، أو مرافقه، باللطف نفسه، إلى حيث تجلس الفتاة، قبل أن يشدّ على كتفيه ويقعده، بلباقته المعهودة، إلى جوارها. ترى، ماذا يمثلان بالنسبة لهؤلاء الأشخاص: أهما موضوع رهانٍ أم مجرّد ذريعة لممارسة لعبةٍ ما؟ وما لبث شعور الحنق أن تضاعف في نفس بن، وهو يرى دليله، صاحب العينين الثاقبتين، يمضي مبتعداً قبل أن يندسّ في صفوف المشاهدين، قبل أن تبتلعه الجموع. ولكن ماذا يجري؟ أيّ مؤامرةٍ يحيكونها من حولهما؟ فالكل يلبس قناع الجدّ والرصانة.

عند ذلك، أقبل شخصٌ يعتمر عمامةً صفراء، بخلاف غيره من الحاضرين الذين أحاطوا رؤوسهم بلفافاتٍ بسيطة من الكتان الأبيض. وألقى عظةً لم يسمع بن بأغرب منها:

ـ يا ولداي، هي يد الله التي قادتكما إلينا. مباركةٌ هي اللحظة التي وطئتما فيها أرضنا. (وأشار الواعظ بذراعه إلى المساحة الشاسعة الأبعاد من حوله). فلتتأملا بلدنا، إنّه كما تريانه قاحلٌ وأجدبُ ومقفر. لكنّنا لم نوفّر جهداً كي نحيل الأرض سخيةً مضيافة. إنما من دون جدوى، فهي لا تفيض إلا شقاءً وبلاء.

بدا هذا الرجل في منتصف العمر، له سحنة زاهدٍ متعبِّد تفتقر إلى المرح، وقد استبدل اللحية على ذقنه بقوباءٍ رمادية، تزخرفها

أنواعٌ مختلفة مما يشبه الحزّاز الأسود، وهو يوشك على بلوغ عينيه. وبالحديث عن هاتين العينين، يا للهول! فخلف هذا البريق الجنائزي، تكمن حدقتان تحولتا إلى هذيان، وأخذتا تترنحان من فرط النشوة. إزاء ذلك، قال بن في نفسه: «من حسن حظ ثريا أنّها ليست مضطرة إلى مواجهة هاتين العينين. لأنّ ستارها يحميها». أمّا هو، فلم تتوفر له هذه الفرصة. مما اضطره إلى تحمّل نظرةٍ أرسلتها عليه أكثر الآفاق وحشةً.

ومضى هذا الشيخ، سواء كان فعلاً شيخاً أم لم يكن، في مرافعته قائلاً:

ـ وما سبب ذلك يا ترى؟ لمَ يتحتّم علينا أن نكون ضحايا قدرٍ ظالم، فنكفّر عن ذنوبٍ لم نقترفها؛ نحن الذين لم نكفّ يوماً عن رفع صلواتنا إلى الله، بقلبٍ خاشع، وإيمانٍ صادق؟ هل قد أُنزلت علينا إشاراتٌ تعطينا الجواب اليقين، وتعلمنا ما ينقصنا!

وفي لحظةٍ لم يتوقّعها بن، استغرق الشيخ في صمتٍ مؤلم.

وساد الصمت أكثر فأكثر، فحفل الهواء بجوٍّ من الخشية والبلبلة المبهمتين والمهيبتين.

لو أنّ بعض الخيفة استبدّت بهذا الرجل، فقد كان لزاماً عليه أن يتسلّح بالشجاعة كي يعزم على المتابعة، ويتجرّأ عليها.

فاستأنف الكلام فجأةً بكلّ ما أوتي من قوّة:

ـ ما ينقصنا هو الوسطاء!

أفلت صرخة الأمل هذه بصوتٍ أعياه فقدان الأمل، فرض الصمت من جديد. تبعاً لذلك، غلب على همهمة الريح جوٌّ آخر من الاستسلام والهلع.

غير أنّ الشيخ ما لبث أن استعاد التحكم بزمام الأمور، فتلفظ بصوتٍ بهيم:

ـ لكلّ دوَّارٍ وسيطه، أما نحن فلا. ولكلّ قريةٍ وسيطها، أمّا نحن فلا. والمدن تملك من الوسطاء ما جعلها تكفّ عن تعدادهم. أمّا نحن، فلا نملك واحداً، أيّ واحد. (وجال بذراعه حول المساحة المحيطة مجدّداً). ولأنّ المرابطين الذين يرقدون في هذه الأراضي منعدمون، تأملا حالها ودوّنا ملاحظاتكما. فلتشهدا، أنتما يا من أرسلتكما إلينا مشيئة العليّ القدير، على أنّ هذه المشيئة نفسها قد اختارتكما لتكونا لنا حماةً وشفعاء. وسنكون لكما خُدّامًا...

وتهدجّ صوت ذلك الرجل بشهيقٍ، يكدّر أكثر من نباح كليبٍ. فردّ بن في نفسه: «أنت مخطىءٌ يا صديقي الورع المسكين. لسنا الشخصين المناسبين. يجب ألا تقصّ هذا علينا نحن. إن كنتم أجمعين قد عجزتم، كما أرى، عن زرع حبّة فول في بلدكم اللعين، فما عسانا نفعل، نحن الغريبان، العابران اللذان علقا هنا بسبب هذه الطريق الرديئة؟»

أما الشيخ، فواصل كلامه دونما توقف:

ـ وها قد وصلتما، بعد أن ساقتكما العناية الإلّهية إلينا وإلى

أرضنا التعيسة المغضوب عليها. الحمد لله! (ورفع يديه نحو السماء كأنّه يدعو، أو يتوقّع أن تمطر عليه السماء أعطياتٍ مفاجئة). مهما أقول، فقد أصبحتما، كلاكما، وليّنا ووليّتنا! لقد أنعم علينا الرحمن بتحقيق دعواتنا!

لو أنّ بن لم يتمالك نفسه، لأفلتت منه ضحكةٌ رنّانة تكاد تساوي نقمته الشديدة. إنّ هذا المعتوه الساذج، والمترجم بدون شكّ، يبالغ في مزاحه. أفلا يدرك أنّ كلّ هذا يستحيل تمثيليةً مضحكة؟

فما كان من بن إلا أن وقف، سامحاً لنفسه أن يرفع من نبرة صوته:

ـ ماذا تريد أن تجعل منّا إزاء قبيلتك؟ وليّين يشغلان الناس من آلامهم، مقابل شمعةٍ تساوي فلسين، يشعلونها على قبورهم؟ سيكون هذا مضحكاً جدّاً! ونحن اللذان كنّا نتوقّع منكم أن تساعدونا!

إثر ذلك، لم يملك إلا أن يقهقه ويسأل:

ـ لو أنّ هذا الانحراف اللعين لم يقع، لاتّخذت الأحداث مجرىً آخر، أليس كذلك؟ ماذا كنتم لتفعلون في تلك الحالة؟

فأجابه الآخر بنبرةٍ متواضعة:

ـ ولكنّها لم تتّخذ مجرىً آخر!

فجأةً، التفت بن نحو ثريا، لسببٍ يجهله: لكنه لم يكن يريد أن يطلب رأيها بالتأكيد. وبينما راح يتأملها وهي مسمَّرةٌ في

مكانها، وقد نزل الرعب في قلبها حتّى أخذ منها كلّ مأخذٍ، وشلّ قدرتها على التنفس تحت الستار، إذا بأربعة رجالٍ جبابرة ينقضّون عليه. حاول أن يقاوم قدر استطاعته، لكنّهم سرعان ما سيطروا عليه، ثم لفّوه ببرنسه الناصع البياض. وبينما هم يمسكوه، أخذوا يجرجرونه إلى بئرٍ حفروها بالأمس ـ وقد بدا ذلك من خلال أكمة التراب التي ارتفعت حديثاً إلى الجانب ـ ثمّ قذفوه فيها.

هذه المرّة، عجز بن عن تمالك أعصابه، فأطلق ضحكةً عاليةً، جبّارة.

قبل أن تنطفىء قهقهته، كانت ثريا قد انضمّت إليه بعد أن رماها غيرهم من القراصنة. لكنّها بدت شبه ميتة، فلم تصدر صرخةً أو حتّى كلمةً واحدة. ثمّ سدّوا فوهة الحفرة بواسطة غطاءٍ مصنوع من الروافد المثبتة بإحكام. بعدئذٍ، سمع بن صوت كتل الحجارة، وهي تتدحرج من فوق رأسيهما.

اصطفّ رجال القرية جميعهم على حصير الحلفاء الطويل، وأخذوا يصلّون. كانوا يدعون وقوفاً أولاً، ثمّ ركعوا وسجدوا فوق التراب، في تصاغرٍ خاشعٍ لله. وفي النهاية، رفعوا الصوت بالحمد وكأنهم يطلبون العفو. وطالت صلواتهم حتّى أنّ ترتيلهم وحده كان يصدح في أرجاء البلد، وقد تضاعف وقعه مرّتين وثلاثاً بعد أن رجّعت الجبال المحيطة صداه.

الفتاة الصغيرة بين الأشجار

طلع الصباح. انشقّ الباب بصمتٍ ثمّ انفتح. كان نعشه أبيضَ. رأيته بأمّ عينيّ. هي صفحةٌ بيضاء واحدة، لا تطوي في قلبها أيّ ذكرى. وعلى وجهها، يمكنكم أن ترسموا ما يطيب لكم. فلترسموا ما تزيّن لكم النفس من صورٍ: أشجاراً كانت، أم بيوتاً أم أزهاراً أم السماء وسحبها. فلترسموا طرقاً تتفرّع في كل اتجاه. أو العالم كما تحبون أن تروه. لكن، مهلكم. ليتكم تتريّثون قليلاً. فمن الأفضل أن تتأمّلوا في هذه الأعجوبة بعد. وأن تمعنوا النظر في هذا البياض أكثر، فيما كان أوّلاً، منذ البدء. ومن الأفضل أن يتأمّلكم هو بدوره. ترونه بياضاً بسيطاً. يكتنفه السكون... بياضاً يكاد ينطق، لكنّه ما يلبث أن يسكت ويكتفي بالوجود. أما أنتم، فلعلّ أفضل ما تقدمون عليه، في تلك الحالة، هو أن تبقوا مثله. وإن لم تفعلوا، فهذا شأنكم. قد تندمون على ذلك لاحقاً؛ لا بل يساوركم شعورٌ بالخجل. وقد عجزتم عن التلذذ بهذه السعادة. لكن أخبروني، ماذا تتوقّعون؟

على المرء أن يتواجد دائماً في المكان المناسب والزمان

المناسب. لأنّ... لأنّ تلك السعادة لن تنتظره، بل ستمضي سريعاً. ومتى فات الأوان، لن يستطيع أن يمنع الأحداث من أن تتّخذ مجراها. فترسم الأشكال نفسها، كما ينبغي أن تكون في الحقيقة، أو كما يحلو لها أن تكون. حينذاك، لن يستحقّ هو المعجزة التي تُعرض عليه، مقابل نظرةٍ خاطفة أولاها بتردّدٍ.

ويحتمل أن يمتلك المرء النظرة الملائمة، كما يحتمل ألا يتمتّع بها. وكيف لا؟ لكنّه لن يخسر شيئاً إن جرّب. فكلّما أبكرتم في النزول إلى بستانكم، كلّما ازدادت فرصتكم في رؤية هذه الورقة نقيّةً، لم تُفضّ بكارتها بعد، فأشرقت رونقاً وبهاءً.

وأجول بنظري، فيسفر وجه اليقين من حولي: لقد محا الليلُ العالمَ ليبدأ مرّةً ثانيةً؛ ولتسنح لنا الفرصة أن نعيد اكتشاف هذه الصفحة، حيث صار بوسعنا أن نخطّ أيّ شيءٍ من جديد.

أقف في الوسط، ثمّ أفكّر بكلّ ما أوتيت من تيقّظ:

«لكن من يجرؤ على إفساد بياضٍ كهذا، فيه من الجمال ما يجعل العصافير لا تقوى على فتح مناقيرها، وتكاد تطفر من الفرح، لمجرّد تأمله لا أكثر؟ من يفعل هذا، عوض استيعاب المشهد في نفسه وتجرّعه في قلبه، كما هذه الطيور؟ أنا؟»

أنا التي تنتظر؟

ولمَ أنا؟

كان الهواء قد ازدان بحنان العيون الفاتحة ورقّتها. لم أكن قد سألته هذا القدر من المشاعر ولا هذه السرعة في إضفائها عليّ.

فما زلت في مرحلة التأمل والتريُّث، ينتابني الذعر من أجل تلك التي بقيت بيضاء، وتوهجت لوناً لن يدوم بقدر الزمن الذي أنفقته وأنا أصاب بالذعر، فأتأمّل وأتريّث... تلك التي تفقد بياضها رويداً رويداً، ثمّ تطلقه... تلك التي حينما تضيع، آنذاك كم أشعر بالضياع!

وداعاً أيها البياض الجميل، وداعاً أيها السكون الحلو. يخيّل للمرء أحياناً أنّ الزمن يتكسّر. لكنّها ليست الحقيقة. فالعالم الذي يعجّ بالأشياء، والأصوات، والأشخاص، والتغيّرات، سبق أن حشد في نفسه سائر الموجودات. وبدوره، لم يعد يستطيع تشكيل نفسه. فلم يعد يضمّ إلا الأشجار: لكنّها ما تزال صامتةً حتى الآن؛ مع أنّها تتأملكم أحياناً والذهول على محيّاها، لسببٍ غامض. أما العصافير، فباشرت ثرثرتها دون انقطاع. عند ذاك، أخذت الأوراق تهتزّ، كما في صورةٍ تنبض بدماء الحياة. حسبها نفحة هواءٍ، أو أيّ حركةٍ خفيفة، لتتقلّب إزاءكم. وإن سوّلت لكم أنفسكم، فضلاً عن ذلك، أن تبرزوها تحت أشعة الشمس المشرقة، فإنّ هذه الأوراق الخضراء، كما تبدو، ستستحيل شعلةً ذهبيةً مرتجفة.

وهكذا، يعلّق الصيف مراياه أينما كان. فينعكس ارتعاشها عليّ أنا، وأرتجف مثلها. لكنّها مجنونةٌ تحت التمرين. لأنّها ترتجف بسبب شيءٍ لا تملكه.

حتى شجرة التفاح التي جثمت على غصنها مجنونة. ومجنونٌ

هو البستان نفسه، في تلك اللحظة، ومجنونٌ هو العالم، الذي لا ينأى عنكم بتاتاً ولا يضيّعكم أبداً. ففي برهةٍ، يكون الواحد منكم صافي الذّهن، خليّ البال، وإذا به، في اللحظة التالية، خاضع لاجتياح هذا الجنون بأسره. باستثناء ذلك، يطالعكم المنظر بجماله. في وسعكم إنفاق الوقت في تأمّل الأشجار التي تستيقظ من كبوتها، وتفرك عيونها؛ فيما لا يخطر لكم، في غضون ذلك الوقت، إلا أن تجحظوا بعيونكم، لترَوا مليّاً كيف تحيط بكم الأشجار من غير أن تأتي بحركة... كمن يحيا وهو لا يدري أنّه حيّ.

كنت أنتظر أن ينتهي بها الأمر إلى ملاحظة وجودي، ثمّ... ثمّ أغمض مقلتيّ. لم تحفل تلك اللحظة إلا بنداوة الصباح، وبي، أنا التي أنتظر وأغمض المقلتين المفتوحتين منذ ستّ سنواتٍ. أغمضهما وأنا أفكّر: «لن يقوى الإنسان على وصف نداوةٍ كهذه إلا إن ولج أعماق نفسه وارتعش. سوف أذوب ذوباناً. أذوب؟ عليّ أن أتأكّد أولاً من أنّني أتمنّى ذلك. ها هي ستّ سنواتٍ قد مضت وأنا أصبحت كبيرة. وتخترقني رائحةٌ لاذعةٌ متيقظة، تنشرها أشجار التفاح والسدر والصنوبر والبلّوط، وقد استحال كلٌّ منها حارساً لي. كما أتمتّع بحماية كلّ نبتةٍ من هذه النباتات الصغيرة، برائحتها الفجّة، وتلك الأعشاب بضحكاتها التي تستدرّ دموعاً نديّة. هي تلك الأشياء كلّها، التي تعيش من أجلها ومن أجلنا، تحيط بي.

ما إن أسدلتُ جفنيّ، حتى رُفع الستار وظهر أبي، فغمرني

إحساسٌ بالأمان. إنّه هنا؛ وهذا عجيب. لم يكن يلتفت إليّ، بل إلى جانبه، حيث أمّي... أمّي التي لها ذقنٌ كزهرٍ نخزمي، تعلوه ابتسامةٌ أشبه بوهجٍ لعوب. كان يتفرّس فيها. كما لم يفعل من قبل قط: بمزيجٍ من عذابٍ وأسى ينتاب الإنسان. حين يرى شخصاً ما يقف أينما كان، فيعجز عن ملاقاته. غير أنّ ذلك المكان، أيّ مكانٍ، حيث يفترض بأمّي أن تقف. كان يحتضنها بكلّ بساطةٍ في منتصف الغرفة. لم يكن عليه إلا أن يخطو خطوةً واحدة، كي يتلاقيا ويتعانقا.

لكن يبدو أنّه مسمّرٌ إلى مكتبه، فيما هي تقف وسط الغرفة، وتشير إليه بأن ينهض وينضمّ إليها. كانت تعيد هذه الإشارة، لا بل نداء يديها هذا، مراراً وتكراراً، كما لو أنّ ذلك قد يساعده. ليتكم رأيتم، في هذه الأثناء، النظرة التي كان يرمقها بها: لكأنّها كانت تنتظره في ما وراء هذا الجدار، خلفها. من الجانب الآخر للبستان، من الجانب الآخر للعالم.

ولمَ تراها ترسل تلك الإشارات كلّها؟ لترقص إليه يراقصها. في ذلك الحين، أخذ يهزّ برأسه، وهو يرسم على وجهه أكثر الابتسامات أسفاً: من غير أن ينهض، أو يغادر مكتبه.

فما كان منها إلا أن راحت ترقص وحدها. بالنيابة عنهما كليهما.

أما هو، فجلّ ما فعله هو متابعة حركاتها بنظرةٍ ملؤها العذاب.

لم يكن أيٌّ منهما يدري أنني لم أغفل عنهما طرفة عين.

كانت أمّي، كلّما تناهت إليها الموسيقى، تسلّم نفسها لها. والألحان تصدح غالباً في بيتنا، لا سيّما وأنّ أبي لا يعمل إلا على صوت الراديو. كانت ترقص حتى وهي تقوم بتنظيف المنزل. فلا تنفكّ تديره وترقص في آن. فهي مولعةٌ بالرقص، تمارسه كما تتنفس، دونما الحاجة حالياً إلى مرافقٍ يراقصها، أو إلى جمهورٍ يتأمّلها. من الناس من يحادث نفسه ويكلّمها. أما أمي، فتراقص نفسها.

لعلّ هذا المشهد لم يستحقّ أن أوليه كلّ هذا الاهتمام، لكنّني فعلت، ورأيته. والآن، يجدر بي أن أفتح عينيّ.

لا، بقيت جاثمةً على شجرة التفاح خاصّتي، وأنا أفضّل أن أطيل الانتظار. لينسني البستان لبرهةٍ. ليتلّهَ عن منظري وأنا أعشّش في شجرتي. إنّني في بحثٍ دائم عن القوة التي تجعل العالم أشدّ بأساً، وتولّد فيّ اقتداراً، أنا قبل الجميع. ترى، هل أجد ضالتي أخيراً؟ لا بدّ من أن أجدها؛ سأطلب من البستان أن يصبر عليّ قليلاً، حتى تنقضي هذه اللحظة الحارقة. غير أنّ الوحدة تحرق أيضاً، تلك التي تصيبنا حين نبقى خارجاً. لكن، أيعقل أن نعترف بهذا يوماً؟ فإن لم نفعل، ماذا يبقى لنا لنعترف به؟ الألم؟ الوحشية؟

ها قد انطلقتُ في رحلة صيدٍ، وإذا بأبي يتبعني. رحنا نتوغّل في الغابة، وقد انتصب أمامنا سورٌ من جنود الظل، هؤلاء الذين

تدثَّروا بستراتٍ بيضاء، من غير أن يتفوهوا بكلمةٍ أو أن يأتوا بحركةٍ. فتمتمت الريح: إنها أشجار السدر. كانت تهمس باسم ما يواجهنا، لا شيء أكثر. لكن ما زال للحديث تتمة. لن يصرّح عنها الكلام، بل سيطويها دفينة صدره، شأنه في ذلك شأن الغابة. تلك هي التتمَّة التي ترغمنا على الالتزام بالصمت نفسه. وبطرح الأسئلة. يا إلّهي! كان أبسط سؤالٍ نطرحه عن أتفه الأمور يجرّ سؤالاً غيره، من دون أن يولّد إجابةً حقيقيّةً قط! فتلك هي الحال: ما من ردودٍ حقيقيّة عن أيّ سؤال. وإن نسيت غبيّةً، فإنا أعرف أنه لو نال شخصٌ جواباً واحداً. لكفّ عن طرح أيّ سؤالٍ، ولأقلع عن النضال ليحشد معلوماتٍ عن أيّ موضوع. وبدورها، تبتكر الغابة والأشجار، كما الكلمات. سنةً. لِمَ تفعل هذا يا أبي، أتعرف؟

ـ أدرك هذا جيّداً. غير أنّ إدراك شيءٍ لا يعني بالضرورة أنه يستحقّ أن يقال.

ـ لم تخبرنا الأشياء عن اسمها قط، أو إن كانت تملك اسماً قد منحته لنفسها حتى.

ـ أبداً، ويخيّل إليّ أنها لا تحفل بذلك بتاتاً.

ـ نحن الذين نتكلّم بالنيابة عنها، طيلة الوقت. فتتركنا نتفوّه بحماقاتٍ لا تصدَّق إطلاقاً.

ـ يصعب علينا أن نتخيّل مقدار الحماقات التي يجرّها ذلك.

وتقدّمنا بين هذه الفيالق التي تجمّعت بانتظام، وقنّنت لنا

الهواء. يجب ألا نفكّر مجدّداً، أنا وأبي، في السير جنباً إلى جنب. لذا، تقدّمتُ المسير بنفسي. أظنّ أنّ أبي يفضّل هذا. وفي غمرة الصمت، ارتفع خرير مياهٍ، وكلمةٌ هي لسان حالنا من بعيدٍ، تسير في ركبنا منذ مسافةٍ طويلة.

أنبأتني ذكرى من الذّكريات أنّنا لم نعد إلا ذئبين، وقد تواجدا في بيئتهما. وبدت الغابة كالجنة التي أفلتت من أيدينا يوماً ما. لم أعد أذكر. إنّها الجنّة حيث ولدنا وترعرعنا، وحيث ما زلنا نعيش. كنت بحاجةٍ إلى أبي بقربي، كي أستعيد تلك الذكرى. وها نحن ذئبان، إزاء معرفةٍ واحدة، كانت شعاب قلبينا قد شغلت عنها، قبل أن تناشدها الذاكرة من جديد، فتهرع إلينا وتسمّينا. إنّها تلك المعرفة التي يحسب المرء أنّه أضاعها، فأضاع نفسه معها.

تتكلّم الأشياء وحدها حين تسوّل لها نفسها ذلك. وهذا بعينه ما تفعله الآن، من حولنا. فلا داعي لإمطارها بوابلٍ من الأسئلة، أو التكلُّم بالنيابة عنها. حسبكم فقط أن تودعوها ثقتكم، ثمّ ترهفوا السمع. لذا كنّا آذاناً صاغية، أنا وأبي؛ فتلقّينا درسنا وفرصتنا الثانية. ذلك هو السرّ الذي كان يحترق منذ قليل. وأنا التي أسميته ألماً... ووحشيةً!

كان بإمكان هذه الأفكار أن تساورني أيضاً: «وحشيةٌ وسعادة معاً. ولمَ لا؟»

نحن ذئبان، لا أقل، ونجري معاً. ولو أنّ هذه الغابة ليست بالجنة، بل الجحيم هي، لكان كلانا متواجداً فيه؛ فنسمع، نحن

الذئبان، تلك الكلمة التي لا تُنطق إلا من أحدٍ ولكن كان، في وقتٍ واحد.

أرهفت سمعي، ولم أعد أحرص على معرفة من أكون، أو أصرخ متسائلةً من أنا. كانت هذه الرحلة الخفية الأولى من نوعها في ذاكرتنا كذئابٍ، فأعادت كتابة تاريخنا. أنا وأبي. لكنّ أبي توقّف.

ـ ألم نبتعد قليلاً؟ (وأشار بيده إلى الأشجار المتشابكة بدون أيّ منفذ). أيجب أن نتابع المسير؟

ـ ميكا، أبي! ما الذي تخشاه؟ فأنا معك.

أخذت أحملق بعينيّ علّني أخفي ابتسامة كان يجب ألا يلاحظ ابتساماتي في أيّ حالةٍ من الأحوال. فقد أريد أن تبدو عيناي حافلتين بالبراءة والسواد والعمق. وتحتوي على الرهبة والاطمئنان في آن. عند ذاك، قال:

ـ فلنواصل المسير إذاً.

ـ هيّا، أبي!

واصطحبته ليضيع في رحاب هذه الغابة العتيقة. التي ألفها، رغم كونه غريباً هنا. أردته أن يرى، بعينيّ. تعرّفت الذئاب التي تواعدنا وإياها على اللقاء. لكن يبدو لي أنّه على علم بالأمر؛ فهو يعرف كلّ شيءٍ. إذاً، سيقع على عاتقي شق الطريق بين نور حويض النباتات، ورائحة أوراق نبت الحرج الرطبة العفنة. وكلّما توغّلنا في مشينا أكثر، كلّما ضيّقت علينا الأشجار لتسندر

الخناق: فطالعنا ذلك الجيش الأصمّ الأبكم نفسه، ومنعنا من التقدم بدون معاناةٍ. وتربّصت بحركاتنا وسكناتنا ألف عينٍ وعين، لم تتركنا نأخذها على حين غرّة، لكنّنا كنا نشعر بها. فبمقدور غابةٍ أن تغرق في جوٍّ من السحر، لا لسببٍ إلا لتخطف ألبابكم بسحرها. فما كان منّي إلا أن حبست أنفاسي؛ و أنا أحسب أنّ من شأن ذلك أن يحيلني غير مرئيّة.

أخذت أطرف بعينيّ، فانفتحتا قليلاً، قبل أن تجحظا بالنظرات، وينهال عليّ العالم دفعةً واحدة: لم يكن من غابةٍ أمامي، لا سيّما غابة مسحورة. لم أبصر إلاّها وحدها، صديقتنا القديمة، تلك الغابة التي أزالت الأسوار، وانتشرت امتداداً لبستاننا. فظهر هذا الأخير من جديد، وظهرت معه أحواض أشجار الورد التي أخذت تينع براعم وردٍ، في هذه اللحظة! كان طوفاناً من الورود، له حمرةٌ وعطرٌ فيهما من الكآبة ما يستذرف العيون. في نهاية المطاف، فضّلت عليها نباتات عنب الديب. فهي تطالعك والحمرة تعلو وجنتيها، قل إنّها أقراطٌ من اللآلىء المزّة، ترنو إليك بعين الغرام، وسط دغلٍ من الجذوع والأوراق. فجأةً، تمرّ نحلة فإذا بي أثمل كما النحلة تسكرها القلوب التي يطيب مصّها. وتنفرط حبّات السبحة، ومثلها، تكرّ الأشياء التي لا تسعى إلا إلى مصلحتنا، ولا تطلب إلا خدمتنا.

وسرعان ما تدخل الغابة بستاننا بدونِ أن نلحَّ على دعوتها، فتتصرّف كما لو أنّها في بيتها. ولمّا كانت قد شدّت رحالها من

مكانٍ بعيدٍ، وبعيدٍ جداً، فقد استقبلها هو بالاحتفال. لا شكّ في أنّه يعي جلوسي على غصن شجرة التفاح. حيث تعجّ ساقاي بنمالٍ تتدلى وتتأرجح في الفراغ. لكن، أيعجّ رأسي بمقدارٍ أقل من الأفكار؟ وما لبثت أن لازمت مكاني. ورحت أنتظر. فعلّق أبي: «البشر في انتظارٍ دائم».

وليعلّق على سجيّته. فأنا أنتظر عودته حتى في غيباته التي لا يفارقنا فيها. فأبي لا يعود إلا ليختفي وراءه من جديد. ترى، كم من الوقت يمضي بين ظهوره وغيابه؟ بعض الوقت ليس إلا! لهذا، لم تكن عيناي تفارقانه. فما هي إلا لحظات قليلة تمرّ على غفلةٍ مني، حتى يتلاشى طيفه عن ناظريّ. لكنه لا يضيع، بل يمضي في حماية نظراتي، أُوقظ له رأسي وأسهر به نفسي. هناك، حيث يعود أدراجه. لا، لا أجري خلفه. بل أنتظر ليعود هو إليّ. لكلّ شيءٍ مآبه حين يجيد الإنسان الانتظار. كلهم يعودون، الآباء، والعالم، والربيع، والورد، وغيب الحبيب. وذلك الأمل الذي يطيّب القلبُ نفوسَكم بتحقيقه. وإنّ خير الانتظار. فلمَ لا أدع ذلك الذي تتوق إليه نفسي يأتيني، بمجرد إرادته دافع التغيير.

البستان هادىء. وأنا مثله هادئة. لأنّ الوقت ما زال مبكراً. ولأنّه يطول ويطول. أتظاهر بأنني أتطلّع إلى آخر. فيما هو يراقبني وأنا أتعمّق في الأسئلة من عمقٍ. بكلّ هدوء. لا بدّ أنّه بانتظار شيءٍ ما بدوره، لكن ماذا؟ أخذت أستدل. من مجثمي، على آثار أقدامي فوق رمال المجازات. وأنا أطرق التفكير: «تلك

آثار زائرة، آثار أنا أخرى».

يدهشني أنني تعرّفت إليها؛ وفي خضمّ هذا الذهول، أشارك في هذا اليوم الأزليّ، وفي هذه الأنا الأزليّة الضائعة بين اخضرار شجرة التفاح، ونور الأوراق الأزليّ.

لا يعكّر سكون هذه الأزلية إلا همهمةٌ خافتة، تفلت من الأشجار، كلّما تغلغلت فيها نفحة هواء. وماذا لو أنّها هي، الأنا الأخرى، من تسبَّب بذلك؟

ولا نملك إلا الانتظار... إما أن يخلد الاخضرار إلى النوم مجدّداً، فتواصل الأزلية، من جهتها، سهرها، بدون أن تكتحل بغمضٍ؛ وإمّا أن يواصل بعث همهماته، فينتهي أمر الأزل في تلك اللحظة. فلفرط ما نعيشه، لا نلبث أن ننساه.

لن أكفّ عن ابتداع أفكاري الخاصّة أبداً، مهما اختلف نوعها أو شكلها. ومن بين سائر تلك الأفكار، لن أنسى لا أمي ولا أبي... لن أسلو عيني أبي، عيني الذّئب، والالتماس الذي تغرورقان به إزاء حَمَل.

كانت أمطارٌ من الجمر تهطل الآن. ارتجّ بين أغصان الشجر أولاً، قبل أن ينتشر على العشب، في البستان وأينما كان. فجنّت الأوراق وغرقت في بحرٍ من القلق. بدا أنّ السيّارات نفسها محمومةٌ، فقد أخذت، حتى البعيدة منها على الطرقات، تزمجر في هذيانٍ هائج.

أمّا أنا، فجسدي ينفث حرارةً، وينضح عرقاً ساخناً أكثر

فأكثر. من يجهل أنّ النار تقتات من الحرارة؟ وقلت لنفسي: «لكنّها تهدّد باجتياح البستان، والبيت ومعه أبي وأمي وحشدٌ من الأشياء في داخله، تحبّنا وتنذر نفسها لنا».

أيجب أن أنادي؟ إنني خائفة. يعتريني خوفٌ من سماع صوتي الخاصّ، وسماعه هو نفسه يجيبني. أشعر أنّ إحدى تلك الآلات التي تأكل الأخضر واليابس ليست ببعيدة. وإنها تسير إلينا في تلك اللحظة بالذات.

سوف أدعو، أنا الذئبة، لا الحملَ بل السمء. لن يبقى أمام الكلمات، حينذاك، إلا العثور على المخرج. عسى تجد باباً للخروج، أيّ بابٍ، ولو لم يكن الفم.

يتناهى إليّ عند ذاك صوت أبي، تتبعه مبشرةً. في تصاعدٍ مستمرّ، ضحكاتُ أمي، أشبه بقهقهات مغنية أوبرا تصدح أحياناً في الراديو. كانت مذهلةً في ضحكها، ترجع رأسها إلى الخلف قليلاً، فيتموّج لونها إثر تصرّفها هذا. كم أعشق رؤيتها تضحك. ما الذي يسلّي هذين الاثنين إلى ذلك الحدّ. لدرجة أن يبلغ ضحكهما مسامعي عند الشجرة؟ أيخالان أنّهما وحيدان في العالم لمجرّد أنّهما مغرمان؟ وماذا عني؟ أنا التي لا أملك في الدنيا إلا أبويّ هذين؟ أو ينسياني؟ سوف أتلو دعاءً من أجلهما كذلك تحسباً.

كنت أبحث عن الكلمات المناسبة؛ وإذا ببقعة قطرانٍ تلوّث النهار. آمل ألاّ تكبر وتنتشر لئلا تلتهم الضوء كلّه. لعلّها تبقى

هكذا، كنجمةٍ متفخّمة. وعلى العموم، لن تدفعني بالتأكيد إلى الركض والصراخ بهلع: النجدة، النجدة! كما إنّني لن أرثي حالها، هذه النجمة التافهة التي لا تفوق عين الخلد حجماً، رغم كونها متّشحة بالسواد.

قفزت عن شجرتي في تصرّفٍ لم أجد خيراً منه. فطالما أبقى بالقرب من أمي وأبي، سيسلمان من كلّ أذىً ويبقيان على قيد الحياة. لذلك، كان من الضروريّ ألّا أجد نفسي، إبان ذلك الوقت، منشغلةً، في أيّ مكانٍ. وسرعان ما هرعت لأعلن لهما الخبر السعيد: أنا ابنتهما، وموجودةٌ هنا، ولا داعي للقلق. وقد عرفت هذا الخبر للتوّ. صحيحٌ أنني كنت مطّلعةً عليه اطلاعاً سطحياً من قبل، حين كنت لمّا أزل أميرةً ضائعة، لكن شتّان ما بين قبلٍ وبعدٍ.

حين بلغت المنزل، اصطدمت بأبي، فصاح:

- ما بك؟ يبدو أنّك رأيت الشيطان بعينه!

لكن أين اختفت أمي؟ لا شكّ في أنّها في القبو، تستحمّ. فهي لا تفعل إلا هذا طيلة النهار.

- أبي، أترك الشيطان وشأنه وأخبرني، أتعلم أنّني ابنتك؟

- ما من أبٍ في العالم يعرف، بقدري، أنّ ابنةً هي ابنته، فيثلج صدره مثلي وقد علم أنّ هذه الابنة هي ابنته، بغضّ النظر عن أنّه يعرف ذلك منذ زمنٍ طويل. وأقصد بذلك أنّه يعرف أنّها ابنته.

كان قد خلع قناع الذئب الذي يخفي به وجهه. لكن أين تراه وضعه؟ فهو لا يمسكه بيده.

وقلت له: هذا جيّد.

ـ هذا رأيي أيضاً.

ـ لكن هذا لا يمنع أنّ أملك، ربّما، قد خاب قليلاً.

ـ بسبب من؟

ـ بسبب الفتاة التي أنا هي عليه.

ـ ما من أبٍ في العالم أكثر سعادةً...

ـ سبق أن قلتَ هذا.

ـ أكثر سعادةً بإنجاب ابنةٍ كابنته منّي أنا، والدك. و...

ـ أتعني هذا حقّاً؟

ـ نعم. وستتميّزين عن البقية دوماً بميزةٍ إضافية.

ـ أخبرني ما هي هذه الميزة.

ـ إنّها أنت.

ـ حسنٌ. لكن أما كان بإمكانك قول هذا ببساطةٍ أكثر؟

ـ لا، للأسف. لو قلتها ببساطةٍ أكثر، لما كنت الأب الذي هو أبوك.

ـ هذه هي حالنا.

ـ أجل، حالنا تشبهنا نحن فقط.

ـ أيضايقك على الأقل أن ترقص معي حين أكبر؟

ـ معك؟

إستوقفته هذه الكلمة اليتيمة، وما لبث أن نجح في ترداداها:

ـ م... معك...

عندما كفّ جفناه عن الطرف، ومضت عيناه ببريقٍ ودود، خاصٍّ بالذئاب دون غيرها. فهذه الحيوانات تفيض نوراً ذهبياً. وما إن يكتنف الإنسان وهيجها حتى تفيض نفسه بشعورٍ من الراحة والاطمئنان، فلا تساوره أيّ رغبةٍ في الهروب. لذا، واجهت عينيه وأنا أفكّر، كما في حلمٍ: «أيّها الذّئب، لم يعد أحد يطوف في الغابات، بل في المودّة يطوف. لكن ما زال علينا أن نعرف مما جُبلت مودّةٌ كهذه، أليس كذلك؟ علينا أن نتحقّق إن كانت فعلاً كما تبدو وحسب، وإن كانت الغابة مجرّد مجموعةٍ من الأشجار، يتنزّه المرء بينها. فإن صحّ ذلك، أين يقع إذاً هذا المكان العظيم، حيث يقبل العالم أن يكشف عن حقيقته الأليمة، وحيث تتعرّفني وأتعرّفك؟ أين يقع؟

في النهاية، قال:

ـ إلى الأمام!

ومن دون أن يتّكىء على مكتبه الذي كان قد جلس إليه، أثناء ذلك الوقت، أزاح كرسيّه إلى الوراء، ووقف بكلّ بساطة. في ما يتعلّق بأمي، لم يستطع أن يراقصها قبلاً، بل لم يجرّب ذلك، ولم ينهض من أجلها حتى! لكن متى حدث هذا بالضبط؟

قلت له:

ـ لم أكن أقصد إلا لاحقاً.

ـ لاحقاً؟

بدا منسحق القلب انسحاقاً زائفاً. فلم [illegible] [illegible] أعرف أنّه ينبغي ألا نثق بمظهره، سيّما وأنّه أكثر ذكاء [illegible] [illegible]. ففي غضون ذلك الوقت، كان يحضّر إجابته في [illegible] [illegible] [illegible]:

ـ حسنٌ، جيّد. سأراقصك حين تصبحين [illegible] [illegible]

فرددتُ عليه وقد كانت إجابتي حاضرة [illegible]

ـ وأنت مثلاً، أتشعر أنك قادرٌ على [illegible]

ـ ماذا؟

تردّدت بدوري، والكلمة ترقص على [illegible] [illegible]... لا أقول... أخيراً، هتفت:

ـ ... ذئب.

ـ لأنّك رأيت ذئباً. وماذا بعد؟

كشفت عن نظرةٍ مرعبة.

ـ لقد رقصت معه في الغابة.

ـ أنت تعودين لتوّك من الغابة [illegible]

ـ نعم.

ـ ماذا عن الموسيقى؟

ـ أيّ موسيقى؟

- للرقص! أكانت هناك جوقة عواء؟

- وُجدت جوقة عواء، ومباراةٌ فيه أيضاً. وقد عويت أيضاً...

- وناديتِ الدم.

- الدم؟ لمَ الدم؟

- في رأيي أنّني إذا استحلت ذئباً من جديدٍ، ذات يومٍ، وعدت قافلاً إلى غابتي، فإنني سأبدأ به.

- لستَ جادّاً يا أبي.

- ما من أبٍ في العالم أكثر جدّيةً في التحدّث إلى ابنته منّي وأنا أحدّث ابنتي هنا وفي هذه اللحظة.

- آه يا أبي! أهذه الكذبة حقيقيّةٌ فعلاً؟

- مهما فكّرَت ومهما قالَت.

- كيلاً. كيلاً.

جلس في كرسيه ثانيةً، قبل أن يقترب من الطاولة. كانت ابنته قد خيّبت آماله، أو أنّني مخطئةٌ أشدّ الخطأ.

- أعدك بمراقصتك حين أصبح كبيرة.

- شرط ألا تكون رقصة الفالس، أو التانغو.

- الفالس أو التانغو؟ ومن يرقصهما بعد في أيّامنا؟

لمعت الفرحة في عينيه، وبدا هذه المرّة أنهما تبحثان عن شيءٍ يئستا من وجوده حولهما. أتمنّى من أعماق قلبي أن تجداه؛ لكنّ هذا ليس أكيداً.

وما لبث أن شرح لي:

ـ إن كان الأمر يتعلّق ببعض الهزّ كما تفعل [illegible] فوق.

ـ أتسمّي هذا هزّاً؟

ـ وما هو إذاً؟

ـ أنت تعرف يا أبي.

في نهاية المطاف، انكمشت النظرة [illegible]. فأطفأت نورها، لا لشيءٍ إلا لتستعيد تلك المودّة [illegible] أعين بعض الحيوانات، كما في الأحلام. و[illegible] قناع الذئب من جديد، حتى قبل أن أتنبه [illegible].

الليلة الـمتوحشة

- الفصل الأول -

خرجا، وبيهانة تسير في عقب نديم.

لكأنّ جرحاً خدش شفافية النهار، وهجس [illegible] جتاح الجادة.

كانت جبهات الهروب مستقيمةً. و[illegible] فارغة؛ لكنّهما واصلا المسير. بين الفينة والأخرى. [illegible] ضيفان أو ثلاثة، فتبدو، على ندرتها، كأنّها ترغب في [illegible] تارةً، أو الابتعاد تارةً أخرى.

كانت تومىء ذات اليمين وذات [illegible] هي تقترب مدّاً ولا تبتعد جزراً. بل تتراءى من أعماق [illegible] وهي تهزّ بيديها هزّاً. تعبّر بالحركات وهي محفورةٌ في [illegible]. نعم بيضاء. فما كاد خيال الغسق يلامس [illegible] حتى [illegible] هذه النيران تتوهج مستعرةً.

مشى نديم وبيهانة، أو باهي كما [illegible]، معاً، من غير أن يجدّا في سيرهما.

كانت هي أوّل من التفت، فرمت أخاها بنظرةٍ خاطفة. ولمّا بادلها بالمثل، أخذا يسيران سيراً حثيثاً.

أمّا تلك الأطياف في أعماق الجادة، هناك، فظلّت لا تأتي اقتراباً ولا ابتعاداً.

تبادل نديم وباهي النظرات من جديد. وارتسمت على ثغريهما الابتسامة عينها، وقد كادت تستحيل ضحكاً. غير أنّهما تمالكا نفسيهما، ووجّها أنظارهما إلى الأمام.

صبغت السماء وجهها بلون اليود. رغم ذلك، بدا أنها قد انصهرت والجادة في طرفها البعيد. كان أيّ مكانٍ يمرّان به يطالعهما بصمته؛ ووقعا، أثناء سيرهما، على حدائق عميقة، فلاحظا الثلج يكسو الدور وقد غرقت في ظلالٍ من الخضرة الوافرة. كان الشابان قد هربا للتّو من فيلاّ شبيهة بتلك البيوت.

بقيت الأطياف هناك، بعيدةً عن المتناول، لا تبرح تهزّ بأيديها، من دون أن تزيد في اقترابها أو ابتعادها.

فجأةً، انبجست حافلةٌ كهربائية من خلف باهي ونديم، وأطلقت زمجرةً عالية، قبل أن تتجاوزهما. فما كان من باهي إلا أن اغتاظت: «لقد احتكّت بنا، وأقدمت على الخوار كالجاموس».

ظلّت الرؤية لا تنقشع أمامهما لبرهةٍ. في هذه الأثناء، كانت الحافلة قد توقّفت عند المحطّة، فهرعا ليلحقا بها.

هنا، ترجّل منها شخصٌ.

تشبّثت باهي بذراع أخيها، وهي تنطنط بكعبيْ [illegible]. بينما أخذ نديم يشدّ على ذراعه أكثر فأكثر، كي يتمكّن من إحكام قبضتها عليه. كانت الحافلة الكهربائية مليئةً [illegible] على طول النوافذ الزجاجية؛ وما لبثت أن انطلقت وقد ترافق هدير محرّكها بأنينٍ طويل.

إحتلّ نديم المقعد الخلفي سريعاً. ثمّ حمل باهي من خصرها، حتى ترامت إلى جانبه وقد أخذ منها [illegible] كلّ مأخذ.

هذه المرّة، لم تجرّب أن تكبت في صدرها الضحكات التي تملّكتها. كانت تضحك له وهي عاجزةٌ عن [illegible]. عند ذلك الحين، مالت العربة عند المنعطف. فرمت [illegible] منهم في أحضان الآخر. وما كان من باهي إلا أن خفّفت من وقع الصدمة، فرفعت يديها الرقيقتين إلى أبعد حدّ أمامها. [illegible] فوق صدر أخيها.

ثمّ توالت الهزّات، بكلّ عنفها وعددها. وفي ظلّ تواتر الاصطدامات، عجزت عن المحافظة على توازنها. فآل بها الحال أخيراً إلى التمسُّك بمعصم نديم.

كانا يضحكان، ويحدّقان في وجه بعضهما البعض. جذبها صورتيهما وهما يمعنان في الضحك. [illegible] تتحدبان وتتلاحمان.

تنكّر هو بأسمالٍ نسائيةٍ فاقعة الألوان. فيما تدثّرت هي بخرقٍ

رجالية. كان فيهما من الشبه ما يلبس على المرء إمكانية تفريق الواحد منهما عن الآخر. فأوقعهما هذا الازدواج أسيرَي الانبهار، سواء على غفلةٍ أو على علمٍ منهما؛ لا سيّما أنّ كلاًّ منهما كان يرى نفسه في الآخر، ويخالُ أنّه يستطيع أن يكون في كلّ مكانٍ، في الوقت ذاته. كان عبق شانيل الذي تعطّرت به باهي يتغلغل في أنفاس نديم. أمّا هو، فلم يكن يتعطّر قط، ولعلّه يدين لها بذلك على الأقل.

كانا من سلالةٍ قديمة من الجزائر العاصمة، تشهد على ذلك حدقتاهما الزرقاوان. ذلك هو أصلهما الذي لا سبيل إلى إنكاره. ففي عيني نديم المقوّرتين يغفو سفيرٌ خالص، وهما تكشفان عن طبعٍ فطن، حين لا يخمد ألقهما ستارٌ كابٍ.

أما عيناها، فأكثر امتداداً، نجلاوان على صفحة محيّاها، وقد استعارتا من البحر القريب لونه البنفسجي، واضطراب أمواجه المكبوت.

وتتراوح خصلات شعر الأخ وأخته بين تجعداتٍ قصيرة (نديم) وشعيراتٍ متدليةٍ ومهدّلةٍ وناعمةٍ للغاية (باهي)، فيما لونها بين الأشقر التِبني (نديم) والأشقر الذّهبي الخاصّ بمدينة البندقية (باهي).

كان بإمكانهما أن يتبادلا هذه التباينات نفسها حتى، لا بل أيّ شيء. وحين يجري الحديث عن البروج الفلكية، كانا ينتميان إلى برج الجوزاء، وإليه ينتسبان دائماً.

بعد وقتٍ قليل، أخذت الطرق تنحدر. فيما يـحي تعرّجها الحافلة الكهربائية، ويحثّ خطاها، فتجري هذه الأخيرة. مثل فيلٍ ثائر يصدر نهيماً يصمّ الآذان، وكأنها سائرة نحو غارةٍ محتومة.

توجّهت أنظار نديم إلى حقيبة يد باهي. فتمتمت في أذنه:

ـ نديم، لا تخشَ شيئاً.

ولمّا أحنت رأسها، تركت شلالين من خصلات يسيلان على وجهها. خلف ستارهما، كمنت عينان مكرّرتان غير أنّ بقية تقاسيمها كانت قد رقّت من وجنتيها وحتى أنفها. فيما جاء الصوت حيادياً، كما أرادته:

ـ أوهذه هي المرّة الأولى؟

بقيا هناك.

ثمّ ردَّت شعرها الكثيف إلى الوراء ورفعت رأسها. من غير أن تبالي إلا بتصميم الأبواب، والجدران، والجسور المشبّكة، والبوابات، والحدائق التي أخذت تندر شيئاً فشيئاً. وتبتعد بمقدار ما تتقدّم بهما الحافلة.

كيف يستطيع الناس ألا يحبّونها؟ حاول نديم أن يفكّ سرّ هذا السؤال الذي طعنه في عنقه على غفلةٍ منه. فهربت كلّ الكلمات التي ناشدها المساعدة. فالكلمات معدودةٌ وتصف ما يختلج في صدره. وعليه أن يحتفظ بهذا الألم في نفسه

كان يراها تتأمّل أطراف المدينة المنتّتة. نعم، سيحتفظ بهذا الألم طيّ صدره. فقد قبلت أن تبحر معه ثانيةً في بحرٍ من الأخطار. من هنا، لا مجال بعد للتفوّه بأيّ كلمة.

أخذ يتفحّص الناس الذين يحيطون بهما من جديد. بَدَوا شاردي الذّهن، وكأنّهم قد استقالوا من سيطرة القدر، فلا يكترثون ولو جرّهم الساعة للمذبحة.

ثمّ أخذت الحافلة التي تلملم المصائر تخفّف من حمولتها على طول الطريق، قبل أن تواصل انحدارها من دون تأخير. ففكّر نديم في سرّه: فلتأتِ المذبحة... فليأتِ الجحيم.

وانقضّ عليه ذلك الخسوف المألوف. ومن دون أيّ تحذير، أصبح كلّ شيء منظّماً. لكن حين ارتدّ عنه، احتدّت حواسه وتسلّح بتوحشٍ وشراسة. فشعر أنّه يغوص في مناطق جنونٍ أصمّ، إنما من غير أن يتخلّى عن عزمه أبداً.

تلك هي الحال كلّما لاح الخطر من بعيد. وقد آن الأوان. فها هو الخطر أمامنا، ونحن لم نتجاوزه بعد. ها هو التنّين. ونحن نتقهقر بمقدار ما نتقدّم نحوه، متوقّعين مما سيتألف «الآتي»، مع أنه سيكون كما يريد أن يكون. هما رعدةٌ واجترارٌ في غير محلّهما حين يستحوذان على عقلك، لكن ربّاه كم يعينانك حين يصبحان، على عتبة الموت، المرجع والملاذ!

هذا هو الحديث الذي تحاور به النفس نفسها: والمفاجأة أنّ الحافلة الكهربائية لم تتسمّر في مكانها، وأنّ الإعصار الذي

يجتاح المرء يُكتب له الخلود، وأنّ الدوّامة تبتلع سائر الأشياء بكلّ قوّتها، وأنّه لم يحدث... لم يحدث...

حفل الجوّ بترقّبٍ لموجة النهاية، تلك التي تتدفّق وتخفي المعالم، تلك التي تنتصب نصلاً ينغرز في الأعماق. فيخطف النور من العينين، وعندها يكون كلّ شيءٍ قد قُبِل.

وأُغلقت العينان. فالموجة لم تأتِ.

لم تكفّ الحافلة عن التقدم. تطلّع نديم حوله. فوجد الركّاب وجوهاً تفتقر إلى أيّ تعبيرٍ، تشبه أصحابها المحجوبين. من دون أن ينسى باهي... باهي التي لن يستطيع أن يحتمل كثيراً. أبداً، أبداً.

وأدركتُ أنّ هذه اللحظة هي أسعد لحظة في حياتي. لكنّني لم أعرف ذلك إلا بعد زمنٍ طويلٍ، طويلٍ جداً. كنت نفسي إذاً أسيرة الندم المرير، فأنزل بنفسي هذا العقاب الذي في شيءٍ قد يحدث للمرء، ثمّ يمرّ به مرور الكرام ويبقى؟

إنّ الدماء التي تسري في عروقه هي نفسها التي تسقي هذا الجمال المشعّ أمامه، وهذا الحضور الذي يغبط حسناً. فلا يتغيّر ولا يقهر .

وبكلّ هدوء، استبدّت بنديم رأفةٌ وتدفّق حنان لا يوصف: أيها الحنان، أجهل أيّ أفضال أنتظر منك. ما هي الشتحول السماء لها العطاء!

بدأ الضوء العظيم يتلألأ وقد شارف عمره على الانتهاء. لعلّه

يلبس ثوب الحداد أيضاً بسبب استشهادٍ عانى سكرات الموت. في الحدائق العامة، استحالت بعض الاشجار، كالحور والكينا، مجرّد مشاعل شحيحة. أما على مستوى البحر، فأخذت الشمس تحتدم التهاباً، وكأنها عرفت أنّ ساعة المنيّة قد باتت وشيكة.

كان نديم يبتسم. لافترض الرائي، بسهولةٍ، أنّه يبتسم لمنظر هذه المدينة التي لا تكاد تطالعه، حتى تبتعد عنه. لكن لا. فقد كان يهدي بسمته إلى رؤيا.

كان أبوه وأمّه يقفان بمحاذاته، وقد باعدت المسافة بينهما قليلاً. بدا أنّهما على وشك التكلم... فأرهف سمعه: ما الأمر؟ غير أنّ صمتاً ساد بينه وبينهما، لم ينتبه إلى شدّة وطأته في بداية الأمر، لكنّه ما لبث أن أقسم أنّ الصمت الذي ألّف دائرةً، توقّف دونها الزمن، كاد، هو نفسه، ينطق. وقال لسان حال نديم: أبي، أمي، ماذا تريدان أن تعلماني؟

لكنّ أيّاً من أبويه المسنّين لم يفتح فمه. وبقي هو ينصت وقلبه حافلٌ بالأمل. أيعزمان على الكلام؟ ثمّ اضطر إلى أن يرضخ للأمر الواقع: فهما لم يظهرا إلا ليكونا موجودين هنا، في حماية دائرة الصمت.

أيعقل أنكما تكلّمتما، فعجزت عن سماعكما؟

خيّل إليه أنّهما يومئان برأسيهما إيجاباً. لكن بأيّ لغةٍ تكلّما حتى عجز عن فهمهما؟ أو أنّ الكلمات التي تفوها بها، على شيوعها، قد لفظت أنفاسها قبل أن تصل إلى مسامعه؟

كان من غير المتوقّع أن يجد السؤال سبيله إلى الجواب بنفسه، وعندئذٍ ما كان من المشهد الذي انبثق من العدم إلا أن تلاشى واندثر.

بدت المدينة أشبه براقصةٍ لا تهدأ، فتجرف في طريقها المباني والساحات والآثار والنباتات والحدائق، حيث ظهرت أشجارٌ غريبةٌ فجأةً، وسط النباتات المحلّية التي تلطّف من جفاف الحجارة. وسرعان ما انحدرت المدينة نحو البحر الذي لاح من بعيد، وهو يحرص على لملمة آخر أنوار النهار بين كفّيه، ويهدهدها تلك الهدهدة الأبدية، حتى وقتٍ متأخِّر من تلك العشيّة.

إستغرق نديم في التفكير، من غير عجلة. وما لبث أن قطع أفكاره بسؤالٍ طرحه على نفسه. لعلّ أبي وأمي يعلمان سرّاً أو اثنين في ما يخصّني، لكن ماذا عن باهي؟ أوّاه لو أنهما يشكّان في أيّ شيء! ولو كان بسيطاً! تبّاً، لا شكّ في أنهما ظهرا للتأكد ليس إلا. وكما جرت العادة، بالغا في التكتّم على الموضوع. أيعقل أنهما استسلما للأمر الواقع؟ استسلما للأسوأ؟ فتلك كانت حالهما دائماً وهما لم يتغيّرا قط. فمن جهةٍ يندبان الشرف الملوّث، ومن جهةٍ أخرى يغذّيان أسطورة المجد العظيم. صحيحٌ أنهما مجروحان في الصميم، لكنّ سراب الأمجاد القديمة ما زال يبهرهما. لكأنّ الاحترام قد أقعدهما، فلا يجرؤان على رفع صوتيهما.

لم يحاول أن يكبت أعصابه. فضحك.

غمرت المفاجأة باهي، ومنحته ابتسامةً سرعان ما سحبتها. كانت تكتشف إزاءها، بمزيجٍ من الاضطراب والقلق، جسداً غريباً. فهو مجرّد فلانٍ مدّثرٍ بوحدته، يكاد من فرط وقعها أن ينسى وجودها. اصطدمت بهذا الواقع الرهيب وهي تشعر بالشفقة عليه.

كانت تشفق عليه، وإحساسٌ بخوفٍ غير مفهومٍ يعتمل في صدرها. فأيّ سرٍّ غامض أحال نديم غريباً عنها؟ أهو الزيغ المشابه لذلك الاضطراب الذي يستخرج رجلاً من قلب حيوانٍ؟

علت الحافلة سماءٌ لا يخطّ على صَفحتها إلا السلام والكمال.

أخذت باهي تقسم في داخلها. ليست هي من يترك هذا الصبيّ الفزّاعة يسيطر عليها.

«كلّ من ينفي أنني أخ نديم ودرعه، بقدر ما هو أختي ودرعي، يكون طائشاً أخرق. فهو أنا، وأنا هو».

أحسّت باهي أنّ هذا الامتياز الذي وهبهما أن يكونا على حالهما قد أسبغ عليها قوةً. وخطر في بالها أنّ نديم سيهزأ بها، ما إن تصارحه بما يدور في مخيّلتها. فوعدت نفسها أن تطلعه على كلّ شيء عندما يحين الوقت المناسب.

بدأت زوايا السماء الأكثر بعداً تحشد ظلاً، لا يبدو أنّه مستوحىً من المساء وحسب.

استعادت باهي الثقة بنفسها، وراحت تراقب تلك السماء وذلك الظل. كان نديم ما زال يبدو مثال الإنسان الوحيد. ومن دون أن تنتظر باهي ما يبرّر موقفها، قبضت بيديها الاثنتين على كتفيه. لم تكن تفصلها عنه، في تلك اللحظة، إلا حقيبة يدها التي انزلق رباطها حتى معصمها.

عند ذلك الحين، تجمّع فيها القلق المشتّت، المعلّق كلّه في الحافلة الكهربائية. وعرفت أنّها ترمي بنفسها للغرق، وقد وقعت ضحية افتتانٍ وحدسٍ فظيع. كان الأمر أشبه بحريقٍ اندلع في نفسها، من فرط ما عبرت المرآة وتموجاتها، في كلا الاتجاهين، وكأنّها تحاول أن تعيش الحلم المحرّم إلى الأبد. لم تفهم كيف وصل بها الحال إلى التفكير بهذا الحلم، أو لماذا، بل لم تفقه كيف نسيت شبهها الواضح بأخيها الذي يفضحها ويعرّضها للخطر؛ ونسيت أنّ النسيان هو الثمن الذي تطالب به الحياة.

«نديم، نديم، أنت، مع ذلك، هو الجسد المعتم الذي يلقي بالظل. وأنا، يا نديم، هي ذلك الظل، ملاذ ليلتك الفارغ».

تركت باهي نفسها أسيرة هذه الأفكار، وهي تجسّد مثال الابتهاج والسكون معاً، ومثال الإغواء. غير أنّ نظراتها أخذت تترنّح في شرودٍ، وهي تتعثّر بوجوه الركّاب الجامدة، وهم يصعدون إلى الحافلة، وترى تلك العيون الغافية، المعفّرة بالرماد، تصرخ، والأفواه المقفلة تصيح، فيما خشيتهم من الموت ورغبتهم في القتل تصدحان بعواءٍ ما بعده عواء.

أخذت مظاهر الأبهة تتلاشى شيئاً فشيئاً، معلنةً انقضاء المدينة. وفي خضمّ الاكفهرار الشاحب، شرعت تتحوّل، بين السماء والبرّ والبحر، إلى قصورٍ وأبراجٍ ذهبية محطّمة. وينعكس المنظر في مقلتي نديم، فلا يبصر إلا رقّة البشرة الدانية منه، ولا يشعر إلا بالوجه والعنق؛ هي بشرة الضباب ووجهه وعنقه أيضاً. فاستاء وقد عيل صبره: متى يحين الأوان؟ متى؟

في تلك الأثناء، بقيت يدٌ واحدة على كتف نديم، ربّتت بها على ظهره برفقٍ. وكما لو أنّ أحداً انتشله من غيبوبةٍ، تصنّع تشنجاً في جفنيه. فقد كان ما زال مستغرقاً في التفكير: بدورهم، هؤلاء الركاب التماثيل سيُلقى بهم في ألسنة اللهب، وستحيلهم النار رماداً.

حانت من باهي نظرة إلى ساعتها وأعلنت:

ـ لم يبقَ إلا ربع ساعة.

ثمّ أضافت:

ـ نعم، تقريباً.

رماها نديم بنظرةٍ ثاقبة زرعت فيها التشوش والقلق.

فما كان منها إلا أن سحقت كتفيه بأطراف أصابعها. فاتّسعت عينا أخيها إزاءها وقد بدت التسلية فيهما. ها هي أخيراً تلتقي بنديمها هي، لا ذلك المجهول الآخر الذي اغتصب ملامحه. فتملّكها ارتعاشٌ من جديد.

سألته بنبرةٍ فظة:

ـ هل أنت بخير؟

ـ نعم، سيكون الأمر على ما يرام. ماذا عنكِ؟

وارتسمت على ثغره بسمةٌ تربك الأقدام. فعضّت على شفتيها.

كان ذلك غباءً منها، لكنها لم تستطع إلا أن تتابع:

ـ لقد وصلنا. يجب أن نترجّل من الحافلة.

ـ جيّد. جيّد.

«من أجله، لن أطلب أمنياتٍ بعيدة الأمد».

كبحت الحافلة الكهربائية الفرامل لتتخلّص من حمولتها كلّها، فمالت إلى الأمام قبل أن تستقيم مجدّداً. كان آخر من صعد إليها هو أوّل من ترجّل منها، ومن بينهم، نديم وباهي.

- الفصل الثاني -

تفرسا في وجه بعضهما البعض. واختتمت لحظة الفراق بطرفة عين. كان نديم هو أوّل من ابتعد؛ وبات الأخوان لا يعرفان بعضهما.

غير أنّ باهي كانت تمشي في إثره، على بعد عشرين متراً منه.

من يبالي بصبيّ يشقّ عباب الحشود، في السابعة مساءً؟ غير أنّ منظر فتاةٍ تراقبه من بعيدٍ، وترصد تحرّكاته، وتقتفي أثره،

حريصةً كلّ الحرص على ألا يغيب عن عينيها، يسترعي انتباه كلّ من يدرس تصرّفاتها.

بعد قليل، مرّ نديم بالقرب من الجامعة، ثمّ مرّت هي بها. كان المبنى الجليل قد تقدّم نحوهما بسلّمه الحجريّ المزدوج، تخالطه بعض المواد الثمينة أيضاً. غير أنّ أياً منهما لم يعره اهتماماً في تلك اللحظة؛ كما لن يعيراه أيّ اهتمام في الغد أيضاً، حين يصعدان هذه الدرجات نفسها.

صحيحٌ أنّ المسافة التي قصدا أن تفصلهما قد باعدت بينهما، لكنّهما تابعا المسير، وخيطٌ غير مرئيّ يربط بينهما. ارتاح نديم للأرض الثابتة تحت قدميه، عوض أرضية الحافلة الكهربائية المتراقصة.

إنتصر الغسق على المدينة، فأخذ يفكّكها جبهةً تلو الجبهة، ويخلّف وراءه أضواء نيون لها ألوانٌ متنوعة برّاقة. غير أنّ تلك الألوان الكبريتية المتنافرة كلّها لا تكفي، كذلك واجهات القطارات التي تشعّ بكلّ قوتها، والحافلات الكهربائية المتوهجة، ومصابيح السيارات التي تقضي على سماكة الحشود المعتمة، كلّها لا تكفي لتسدّ الفراغ الذي خلّفته أعمال الهدم.

وحدّث ولا حرج عن ارتفاع الأصوات المفاجيء: بدءاً من صراخ بائعي الصحف المسائية، ومروراً بزعيق أجهزة الإذاعة والجلبة المتدفقة، وانتهاءً بزمجرة السفن. حتى كلّ هذا الضجيج نفسه كان لا يكفي لسدّ طبقات الصمت التي، إن توقّف سيلها من طرفٍ، نضحت صمتاً من الطرف الآخر.

لكن، بات بمقدور المومس التي سمّوها الجزائر أن تخرج من مخبئها، وتتبختر في الشوارع، وقد صبغت وجهها بما تيسّر من أدوات التبرج الرخيصة والمضيئة.

كان نديم مستعدّاً أن يمضي على وقع هذه الخطى حتى نهاية العالم، يدفعه تصميمٌ قارسٌ يحتدم في النفس. أخذ يتوغّل، وهو واثقٌ من تحرّكاته، بين جمهرةٍ من الناس، يرون ولا يرون، ويصطدمون ببعضهم البعض دون مبالاة. لكنّ الرؤية كانت جليّةً في نظره، فعرف ما كان مستعدّاً لفعله بين الفينة والأخرى، حتى يصل إلى هدفه.

في تلك الأثناء، لم تنفكّ باهي تتبعه من بعيدٍ.

عند الاقتراب من مركز البريد، ازدادت أفواج الناس. قد يخيّل للمرء أنّ فوران أمواجهم ينبثق من جوف الأرض. فاضطر نديم أن يلجأ إلى الخشونة كي يشقّ طريقه بين الجموع. كان يتقدّم، مستنداً إلى ذلك الاطمئنان، وقد شعر أنّ في خطواته بعضاً من خطوات باهي، والعكس صحيح. ولعلّ أغبى حركةٍ قد يقدم عليها هي الالتفات فجأةً، ورميها بنظرةٍ من فوق كتفه، ليبحث عنها وسط هذه الجموع الغفيرة.

عوضاً عن ذلك، رفع معصمه وتحقّق من الساعة. ثمّ قال لنفسه: تبقى من الوقت أربع دقائق.

كان ثَمَّة رؤوس تنبثق دوماً من الظل، والتعبير على محيّاها فارغٌ فارغ، يجرفها التيار نفسه إلى الأمام، قبل أن تغوص

في الظل مجدّداً عند اللحظة التالية. غير أنّ البعض منها، لا سيّما رؤوس النساء، يطيل الانتظار عند السطح أكثر، فتزيده الأنوار الليلية حدّةً وجمالاً، وتحيط به هالةٌ من البرونز، فيما العيون يتألّق بريقها. لكن ما تكاد تمضي هنيهةٌ، حتى تعبر النساء المكان بدورهنّ، كأنما على مضضٍ، ويختفين في وميضٍ عابر.

أخذ نديم يقول لنفسه: سنمضي حتى النهاية، حتى أعماق أنفسنا، وإلى أن تخور قوانا. ردّد على مسامعه أنهما مضطران إلى إثبات ذلك قريباً، وهو يدرك أيّ قوةٍ يمدّه بها وجود باهي خلفه. لم يشكّ في الأمر. فحتى النهاية سيمضي ...وها النهاية قد حلّت؛ لقد وصلا. أخذ البحر يغدق عليهما برودته، وقد امتزجت بالهواء الذي يلفهما. انتظر. بل بالكاد انتظر. أحسّ بلمسةٍ خفيفة. إنها باهي. وبينما انزوى ليفسح لها المجال، شعر ببرودة المعدن في يدها. فما كان منه إلا أن شدّ بقبضته على هذه البرودة. في غضون ذلك، كانت باهي قد انصرفت. اختلس النظر إليها وهي تتلوى ضدّ الريح وتذوب في الزحام. ثمّ اختفت. لم يبال أحدٌ بهما، بل لم يكلّف أحدٌ نفسه عناء ذلك.

فجأةً، توقّف نديم كمن نسي شيئاً، وما لبث أن تظاهر بتمالك أنفاسه. ولم تتأخر باهي في عودتها. وفيما هي تقبل عليه، لاحظ كم بدت طبيعيّة، مسيطرةً على رباطة جأشها. هذه المرّة، تقابلا في نظرةٍ سريعةٍ خاطفةٍ لا غير، قبل أن يمضي كلٌّ منهما

في الاتجاه المعاكس للآخر. بدت كأنها تمنع نفسها من أن ترنو إليه، لا بل من أن تراه.

اكتفت بالتمتمة والحيرة على وجهها:

ـ آسفةٌ يا سيّدي.

ـ آسف.

واحتكّ المعدن، بكلّ برودته، من جديد بيد نديم الرطبة. لقد نال ما يبتغيه.

وتجاوزته.

كيف له ألا يحبّها؟ كانت أعصابه مشدودةً حتّى الألم، فمشى خطوةً فاثنتين فثلاث، فيما هي، التي باتت بعيدةً عنه بأشواط، تجري بحرصٍ. كانا قد اتّفقا على أن تنعطف عند زاوية الشارع المتاخم، فينتهي الأمر وتنتهي وظيفتها في الأنحاء. أما هو، فكان يمشي. أحسّ بشللٍ موضعي ينخر في عظام الجوّ، لكأنها نقطةٌ سوداء انعقدت عقدةً لا سبيل إلى حلّها. إنّه الموت. خلال ذلك الوقت، لم تكفّ عن السير، متخاصرةً وأشخاص تربطهم مشاعرُ كبيرةٌ من الارتياب، والبغض، ونوعٍ من اللامبالاة باللعبة التي يلعبانها. لكنّ ذلك دام وقتاً طويلاً. أما الآن، فلا شيء سيمنع تاريخاً معيّناً من العودة إلى نقطة انطلاقه، لينكتب مجدّداً بطريقةٍ أخرى، وبحروفٍ من الدم.

أخذ يعدّ بدون وعيٍ: خطوة، خطوتان، وهو يلتفت نحو القذيفة، نحو ذراعه المسلّحة.

ثلاث، أربع. هذا هو المكان. خمس خطواتٍ؛ نزع شكّة القنبلة الأولى، ثمّ رماها داخل مشرب الجعة. ستّ. رمى الثانية. دوًى انفجار الأولى. ستّ خطواتٍ. انفجر الزجاج. سبع. انفجرت الصرخات والنداءات. سبع. سبع. صدح الانفجار الآخر. هوى المشرب حتى أعماقه، فيما اهتزّت الطريق المغتصَبة.

ثمان، تسع...

أخذ الناس يدبرون في جريٍ معتوهٍ، وهم يقذفون أمامهم رجالاً ونساء. كانوا يتساقطون، كالمحصول حينما يُحصد، فمنهم من يحاول النهوض، ثمّ يسقط من جديد، فلا يحرّك ساكناً. أمّا المتاجر ومداخل البنايات، فأخذت تبتلع الناس أفواجاً أفواجاً.

وفي النهاية، لم يبقَ إلا من كان ممدّداً، فيما فرغت المنطقة من حولهم، كما فرغ الرصيف والشارع. بعد الدمار الذي أنزلته هذه الصاعقة بالمكان، أفرغت ما في جوفها من صمتٍ، فدام لوناً تافهاً أبيض، باسطاً سيادته، مستبدّاً بالمدينة وبقلبها الحُمَريّ.

وفغر المشرب بشدقه الملتهب الدامي، وقد حشرجت أنفاسه وكابد غصص الموت. لم يكن الوقت نفسه يملك وقتاً ليضيّعه عليه: فحكم عليه بالصمت، فيما تزيّن الجحيم الأخرس بأشعةٍ دقيقةٍ عن الوصف.

أما نديم، فابتعد وهو يترنّح على قدميه، خطوةً فاثنتين فثلاث. لم يكن باستطاعة عقله أن يسافر إلى أبعد من ذلك، لكنّه قدر على التفكير في أنّه قد فتح على نفسه الباب المحرّم.

فجأةً، دوَّت طلقةٌ ناريةٌ وحيدة. وما لبث الصمت المذلّ أن خيّم بستاره مرّةً أخرى، واشتدّ كما الجرح يكتوي فوق نصلٍ حارق: كان هذا كلّ شيء.

امتدّ الوقت طويلاً، لكن حين انطلقت طلقاتٌ جديدة، من عدّة نواحٍ هذه المرّة، فإنّ سيلها لم يتوقّف. كانت أسلحةٌ من مختلف أنواع العيارات تبصق الرصاصات، فيما تزايدت الطلقات، الواحدة منها على الأخرى. واستمرّ الوابل القاتل بالتزايد، حتى سيطر على الحيّ بأكمله. ولم يطل الأمر حتى أقدم سيل الرشاشات على تمزيق ضجيجه نفسه إرباً إرباً.

منذ ذلك الوقت، لم يعد يسمع إلا صوت هذه الرشاشات، رغم أنّ بقية الأسلحة لم تعلن عن سكوتها، لكنّها كانت ترجّع مجرّد حازوقاتٍ تافهة.

كرّت سبحة الدقائق، الواحدة تلو الأخرى، إلى ما لا نهاية، ثمّ اخترقتها جوقة صفّاراتٍ، ووصلت سلسلةٌ من السيّارات المصفحة، لتنتشر إزاء المبنى المدمّر. إثر ذلك، اصطفّت ربوضاً، حتى أنها أعاقت مرور سيارات الإسعاف التي لعلعت بصفارات إنذارها الثاقبة، وهي مصممة على التوغل بينها.

في الوقت نفسه، أقبلت أفواج الجموع، وحاصرت المشرب؛ فإذا بحشودٍ من الفضوليين والرعاع يتدافعون بلا لباقةٍ، ثمّ يرتمون، وقد اختلّ توازنهم، في هجومٍ جديدٍ على الحواجز التي نُصبت على عجل. وكما يحوم الذّبابُ حول جيفةٍ، لم يعد باستطاعة أيّ تدخلٍ أن يشتّتهم.

لكنّ منهم من مضى من تلقاء نفسه، والمسدّس في يده. فأخذ يطلق النار في الشوارع بغير هدفٍ، ويصيب الناس كيفما اتّفق، من الخادمات المياومات إلى الباعة المتنقلين فماسحي الأحذية الصغار؛ بدون أن يكلّ صراخه قط: موتوا! موتوا! فلتتحقّق العدالة!

ويمكن للرائي أن يقع أيضاً، من هنا وهناك، على سيّداتٍ محترماتٍ استسلمن للعَبرة، فاخضلّت مسارب عيونهنّ، وقد اتّكأن على جدارٍ ووجوههنّ غائرةٌ بين الأكفّ.

وجد نديم نفسه وقد تجاذبته جموع المتقهقرين أوّلاً، ثمّ انكفاء المتسكّعين، فتعرّض مثلهم للضّغط والتدافع قبل أن ينتهي به المطاف على الرصيف المقابل. كان يقول لنفسه: عليّ أن أستفيد من الفرصة، فأبلغ الزاوية حيث لا يتحتّم عليّ إلا الالتفات وترك الضجيج ورائي. وقال لنفسه أيضاً: عليّ أن أنصهر في متاهات المدينة، وأنصهر في الليل. واعترته حتّى العذاب رغبةٌ مجنونةٌ في الركض؛ لكنّه تمالك نفسه. وما لبث أن التفت عند زاوية الشارع، حيث أخذت الطريق بالانحدار. عند تلك اللحظة، لاحظ أنه يسير بوتيرةٍ قد تجذب الانتباه إليه. فتمتم بالشتائم.

في الطرف الآخر، رأى قامةً سوداء تقف وكأنها تقوم بالحراسة. أفي لحظةٍ غير معقولةٍ كهذه، يطالعه حضورٌ غير معقولٍ؟ إحترس نديم كلّ الاحتراس وهو يكبت أنفاسه. وأنبأه

حدسه أنّ هذه الليلة لا تدبّر له إلا لقاءاتٍ غير معقولة. ثمّ تذمّر وتقدّم وقد فقد القدرة على تمالك أعصابه.

لو أنّ المجهول في الجهة المقابلة لم يوحِ بأنّه يتحرّك، فقد كان يقترب مثله. تابع نديم تقدّمه. أما الآخر، فبقي يصعد الشارع نحوه. وما لبث نديم أن حثّ الخطى، وإذا بباهي ترتمي بين ذراعيه.

في الحقيقة، كان هو من تهالك عليها. فقد كان لينهار لو أنّها لم تستقبله في أحضانها، وتعرض له كتفها، كي يلقي عليها برأسٍ لم يعد يقوى على حمله.

كانت الفتاة قد ترنّحت تحت ثقله، لكنها تماسكت وهي تكاد تصرخ. ثمّ تمتمت في نفسٍ واحدٍ وحسب:

ـ نديم، نديم! ما الخطب؟

ـ لا أدري. لا شيء، على ما أعتقد.

فتصنّعت صوتاً طبيعياً وبعض الكلمات المستوية، كي تسأله من جديد:

ـ نديم، لستَ جريحاً على الأقل؟

فلزم الصمت.

عند ذلك، لم تتردّد في رفع رأسه بين راحتيها، وهي تتفحصه بشراسة. لم ينبس هو ببنت شفة، ولم يبد أيّ اعتراضٍ. أغمض عينيه وحسب.

أما باهي، فلم يبق أمامها إلا تعرّف هذا الوجه الجديد. سرت قشعريرةٌ في بدنها. أهذا هو إذاً نديم الذي يتخلّون عنه لها؟ غير أنّ منظره ذاك لم يثر سخطها أو يستدعِ خوفها. بل شرعت تمسك بذراع أخيها لتضعها على كتفها؛ ثمّ أحاطت ذراعه الأخرى بخصرها. فخضع نديم، وقد وجد نفسه مُقَاداً هكذا، ثمّ مشى.

- الفصل الثالث -

كان الشعور بالألم يتصاعد ويجتاح كليتيه. لا، لم يكن ألماً، لكنّه أحسّ بخدرٍ غريب في رجليه، بمقدار ما كان يتقدّم، وكأنّه سينهار من وطأة ثقلهما.

عندئذٍ، أدرك أنّ باهي تحمله أكثر ممّا يحمل نفسه. لقد وقع خطبٌ ما. فباهي تجرّ حماراً نافقاً. أنا حمارٌ نافق.

كان يدرك أنها موجودةٌ، فهذا من أولى البديهيات. وأخذ يجرّ نفسه بدوره، وعيناه تحدّقان في بريقٍ يومض في أعماق الليل: إنها نجمةٌ. أيتوجّهان هما نحوها، أم أنّها هي التي تقبل إليهما؟ كانت هذه العين اللامعة أشبه بالأمل وقد بسط لهما ذراعيه. فجرّ نفسه أكثر، عساهما والنجمة يتلامسان قريباً؛ عسى مصيرهما الليلة يأتي إليهما سريعاً.

لكانت المنيّة وافتنا بسرعةٍ. فكم كان شبح الموت حقيقياً هناك، في الخلف، أشبه بكابوسٍ نرويه عند اليقظة. ونضحك.

يضحك كلانا، يا باهي، ثمّ نرقص. فأنت تجيدين الرقص مثلي. وتشرق الشمس على نهارٍ جميلٍ آخر. هيّا، تلألئي أيتها النجمة الصغيرة.

وسمع صوت استيائه: تبّاً! فقد وقع على رأسه أولاً، ومن حسن حظّه أنّ جمجمته لم تصطدم بالشارع المبلّط. ترى، لمَ تلتصق هذه الطريق الرديئة بالنعل هكذا؟

آه، تذكّرت، لتوافنا المنيّة سريعاً! فلأوافِ على الأقل ظلي الخاص أولاً!

مضت الليلة متكسّرةً مهشّمة، تتدثّر بثوبٍ من الثلج الفحمي، وتدور في زوبعةٍ عنيفة. لكن، حتى في تلك الحالة، ظلّت أطراف النجمة تتوهج.

علمَ نديم علم اليقين أنّ هذا ليس بتأثير النجمة وحدها، فالأجواء من حوله تفوح برائحة الموت والجثث.

أخذ يقدّم رجلاً أمام الأخرى، خطوةً فاثنتين فثلاث. سيتحقّقان من أمرها لاحقاً. فالنجمة لن تراوح مكانها. وسيكون قلباهما صافيين كلّ الصفاء.

فجأةً، احتجبت تحت أنظاره. وهنا أيضاً، لا في البعيد ولا في أيّ مكانٍ آخر، تجسدت راقصة باليه أمامه، فطردتها، قبل أن تتنقّل بين أفلاك الليل، وتملأ أرجاء الفضاء كلّها، وهي توزّع ابتساماتها هنا وهناك.

توقّفي! دعينا نبلغ مداكِ! لو استطاعت الصرخة التي أطلقها أن

تزرع الشحوب على وجه الليل. لكنّ شيئاً لم يحدث: فلا الليل تغيّر، ولا درع الصمت الذي تحتمي به المدينة تبدّل، فيما ذهب صراخه أدراج الرياح، هذا إن كان فعلاً قد نطق به.

إختلس النظر إلى الأمام من جديدٍ، فلم يجد إلا حشداً فوضوياً من الظلال. وتمتم:

ـ باهي، أرجوك.

فأجابت أخته وهي تحافظ على رباطة جأشها:

ـ نعم، نديم.

ـ متى نصل؟

ـ أصمد. قريباً يزول عنّا الخطر.

عن أيّ خطرٍ كانت تتكلّم؟ كم يناسبها المزاح، باهي العزيزة الطيبة! أيكمن الخطر في قصورهما عن بلوغ النجمة الراقصة؟ يا لتلك الصديقة العزيزة الطيبة!

فكرّر:

ـ الوصول إلى النجمة.

ـ أيّ نجمة؟

ـ أيّ نجمة!

وفيما الليل يواصل بسط سيطرته على المدينة المحرّمة، بدأ نهارٌ جديدٌ بانقشاعٍ لم يكن في الحسبان.

وفي غمرة هذا الانقشاع، باغته منظر باهي من حيث لم

يحتسبه، وقد كانت تقطع المسافات اللامتناهية ركضاً. فراح يتأمّل وثباتها وهي تلعب وسط ألسنة اللهب المتطايرة. ثمّ ارتسم الانبهار على وجهه، وأخذ يترنّح ونظراته حافلةٌ بالتوتر. وما كان منه إلا أن اتكأ على الجدار الأقرب.

بدا له المكان أشبه بمدينة ملاهٍ واسعة الأطراف، تمتدّ فيها صفوف أنوارٍ تسلّط أشعتها، بغضبٍ شاحب، فوق ألعاب الخيل الخشبية المهجورة، المتوقفة عن الدوران؛ هنا رآها، تدور حول نفسها، دورةً بعد دورة، في قلب هذه النار، في جوهرها المضيء.

لمَ لم تصطحبه معها؟ لودّ أن يرافقها. بل كان مستعدّاً أن يزحف على ركبتيه، لو أنّ قدميه لم تسعفاه على المسير.

وفي هذه اللحظة، أحسّ بثقل قدميه يطبق عليه.

شرعت باهي تشرح له:

ـ لسنا مضطرين إلى الاستعجال. يكفي أن تمشي وحسب يا نديم. إمشِ بشكل عاديّ.

بان التصلب على وجهه، قبل أن يستعيد أنفاسه. وما لبث أن أغمض عينيه في إشارةٍ إلى الموافقة. لم يكن مضطراً إلا إلى أن يحرّك رجلاً واحدة، ويرفعها: وهكذا عاود التقدم. وفيما هو ينقل خطواته، حاول تمالك أعصابه من جديد، فأعاد توحيد عناصر واقعه نفسه، في الليلة عينها. هذا الواقع هو نفسه الذي رآهما هائمين على وجهيهما قبلاً، فأخفى الحقيقة كلّها، مدّخراً

من أجلهما الضياع والعقاب والمصيبة التي تؤخّر سيرهما. ويعترينا الأسف من أجله، نحن الذين يذوب الجسد منّا في هذا المسير. أجسدٌ هو؟ لا بل شبحٌ معلّقٌ بخطواتكم.

داخل واجهة قبّعاتٍ ملتهبة، وقف تمثالٌ لعرض الثياب، نصف عارٍ، يشاهده يقترب. فقلّص نديم المسافة المعتمة التي تبعده عنه، حتى لم يعد يفصل بينهما إلا زجاجٌ. وإذا به يجد نفسه إزاء باهي.

جحظت عينا الشاب وهو يتفرّس في تمثال العرض، بينما راح ذلك الأخير يحدجه من الهاوية المتوهجة التي يقبع فيها.

كان الضوء المنتشر يعلو عن أيّ وصفٍ، فانتزع من قلب نديم كلّ شعورٍ، لا سيّما أنّ تلك الحدقتين الخزفيتين شرعتا ترمقانه، حتى لم يعد يدري إن كان يقوى على تحمّل إشعاعهما أكثر. فجأةً، تغلغل الخوف إلى فؤاده. ألن يخمد الوهم فوق هذا الزجاج المصقول كي يتوقّف عن التحديق به هكذا؟

رغم ذلك، بقيت باهي إلى جواره، كي تهبه ملاذ كتفيها وسند جسدها. فتعاقبت على رأسه سلسلةٌ من الأفكار الساحقة، حيث أخذت تدور دوراناً بطيئاً، لتعود فتنطلق في دوامتها من جديد. وماذا لو أنّ هذا ما يسمّونه الموت؟

من الذي بدأ يتوسّل إليه بغتةً؟ باهي؟ أم تمثال العرض؟

ـ أبذل مجهوداً أكبر بقليل يا أخي. أتسمعني يا نديم؟ يكفيك مجهودٌ قليل وننجو. أتسمعني؟ سننجو!

من جهةٍ، عزفت هذه الكلمة في أذنه نغماً شجياً، ومن جهةٍ أخرى، واجهته ابتسامة هذه الدمية الخرساء التي تكشف عن عريها البارد، وقد سُلّط عليها الضوء من الأعلى والأسفل، فبدت ملاكاً دجّالاً في ضريحٍ من نار، لا تفصل بينهما إلا واجهةٌ زجاجية. النهاية. اقتربت النهاية. لم يعد من أسئلةٍ تطرح. فالأسئلة المقبولة معدومةٌ. عند هذا الحدّ، خيرٌ له أن يصبّ اهتمامه على ما سيلمّ به لا محالة. وقبل أن يبادل نديم الملاك ابتسامته، سيسقط ويسقط ويسقط، فيتعفّر وجهه بالتراب. وما زال في جعبته كلامٌ كثير، لكن ماذا يضيف بعد؟

وانبجست أصواتٌ يرقانيةٌ، أخذت تصدر من أعماقه:

إفترّ ثغرها عن بسمةٍ سرّية

لكن في عينيها ظلامٌ كئيب...

وفي لحظةٍ غير مؤاتيةٍ، اكتنف صوته الارتجاف حتى بات غريباً، قبل أن يخمد بوهنٍ. وخطر في باله أنّ عبراتٍ من الدم لا بدّ قد أفلتت من جفون الليل، في مكانٍ ما من هذا الوجود. لكنْ لا أحد يعرف، لا أحد يرى.

لعلّ الصوت الذي غنّى هو العين التي دمعت. واكتشف إلى جواره، وعلى صدره، باهي التي عادت من نزهتها ودورانها هناك. فتمتمت وفي عينيها دمعةٌ وابتسامة، وقد تناثرت على وجنتيها لآلىء جفنيها:

ـ سمعتك تغنّي يا أخي. وكأنني أعرف هذه الأغنية. إنها، كيف أعبّر عن ذلك...

واحتضنته، وهي تضمّه بين ذراعيها. فأرخى الصبيّ رأسه على كتفها مجدّداً. أخذت تداعب عنقه وتمسّد شعره، وهي تسأله بنبرةٍ متأثرةٍ ومضطربة:

ـ أعرف هذه الأغنية؟ من ينشدها؟

لم يسقط. ولن يسقط. وتنحنح قبل أن يعترف:

ـ لقد... لقد أُصبت.

فانفجرت باهي بصرخة:

ـ يا صغيري!

واختنقت صرختها وهيّ تشدّ نديم إلى صدرها بكلّ ما أوتيت من قوّةٍ، وتهدهده بين ذراعيها.

فحاول أن يفلت من حضنها، ثمّ حوزق قائلاً:

ـ لقد أصبت... أصبت. خذي هذا واذهبي!

ـ ماذا عليّ أن آخذ يا نديم؟

كانت تهمس في أذنه، فيجيبها هو بلهاثٍ:

ـ السلاح. إنّه في جيب سترتي. خذيه. إذهبي. اهربي. لا عليك، سوف أنجو.

ـ مستحيل.

فتوسّل إليها:

ـ خذيه واذهبي.

ـ مستحيل.

ولمّا كانت قواه قد خارت، حاول خداعها قائلاً:

ـ تخطئين عندما تقلقين عليّ يا صديقتي. تخطئين تماماً!

ـ مستحيل يا نديم، مستحيل.

ما السبيل إلى إقناع هذه الفتاة العنيدة؟ فكرّر كلامه:

ـ أصغ إليّ...

ثمّ استسلم، وأخذ يفكّر: إنها تقاوم التعب واليأس اللذين أقاومهما.

أما باهي، فقد حانت منها خطوة إلى الوراء، من غير أن تفلته، وراحت تتفرّس فيه. غير أنّ ضوء الشارع الشحيح حال دون أن تميّز ملامح وجه أخيها، أو أن تقرأ فيه ما كانت تتوقّع العثور عليه. لكنّ هذا لم يردعها، بل أوصته بصوتٍ هامس:

ـ تابع في الاتّكاء عليّ، يا عزيزي نديم، ولنمشِ. يمكنك أن تنجح. وسترى كيف سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام. لا، فلتترك ذراعك ملقاةً على كتفي. أين تشعر بالألم؟

ولمّا هزّ لها برأسه نفياً، قالت له:

ـ إمشِ الآن، أو يخال الناس أننا عاشقان.

وضحكت. ثمّ انطلقا متعانقين.

- الفصل الرابع -

كانا يبتعدان في غمرة الليل.

اتّسعت أرجاء المدينة التي كانت قد ضيّقت عليهما الخناق، فانبسطت الشوارع، خاليةً تقريباً، مستقيمةً تقريباً؛ تزداد طولاً على وقع عاشقَين، ينمّ تصرّفهما عن طبيعةٍ لا تشوّه المشهد، حيث احتلاّ مكانهما المناسب.

كانت الريح المجنونة لا تزال تعصف خلفهما، وضجيجٌ بالكاد يعلو، تخترقه طلقاتٌ ناريّة بين الحين والآخر، لكنّها لا تستدعي أيّ قلقٍ.

كانت السيارات تظهر ثمّ تتجاوزهما. بعضها سيارات جيبٍ، تعود إلى الجيش من دون شكّ. في البعيد، بثّ الأخطبوط مجساته، تحيّناً للافتراس. لكن، ألم يبتعد نديم وباهي عنه بما فيه الكفاية؟ في الحقيقة، منحهما هذا المخلوق تقدّما بسيطاً عليه، لا أكثر.

أطلق ركّاب سيارةٍ سخرياتٍ في الهواء. لكنّ باهي لم تعرهم انتباهاً، سيّما وأنّ دعم نديم كان همّها الوحيد. بين الفينة والأخرى، راحت تختلس النظر إليه من أسفل، علّها تلمح وجهه وتطمئن إلى حاله. بدا لها أنّ أخاها لا يفكّر إلا في احتساب خطواته، وعيناه نصف مغمضتين ورأسه في ترنّحٍ واضح. في الواقع، كان يجسّد الغياب، يمشي ويجسّد النسيان؛ نسيان نفسه والعالم من حوله.

جبلت باهي كلّ خطوةٍ من خطواتها بأملٍ في الخلاص. عليهما أن يتقدّما ويثابرا. نعم، سيتقدّمان ويثابران ويرفضان أدنى استراحة. أضف إلى أنّها لن تدري أين المآل إلا خلال سيرها. فعند ذلك فقط، ستعرف كيف تنجو وتخلّص نديم من هذا المأزق.

عندئذٍ، أقدمت على هزّ قدميها، الواحدة تلو الأخرى، لتتخلّص بغضبٍ من خفّيها. لقد كفاها ما احتملته من هذا الكعب العالي. الذي كاد يتسبّب مراراً بالتواء مفاصلها. وما إن لامست قدماها التراب وطراوته، حتى لجّ بها الارتياح وسكن ألمها.

انتهى بهما المطاف إلي منعطفٍ، فسلكت طريق اليسار، بدون أيّ تردّد. في تلك اللحظة، باتت بالكاد تحمل أخاها.

لمّا كان التعب قد أنهكها، ارتأت أن تسند نديم إلى جبهة منزلٍ. واغتنمت الفرصة لتمسح، بكلتي يديها. سيل العرق على وجهه، وجبينه، وصدغيه، وتمسّد شعره أيضاً، وهي تهمس في أذنه بكلّ ما تعلّمه قلبها من كلمات الحنان وعباراته.

كان الوقت قد سمح لها بالتقاط أنفاسها، فرجت أن يحذو نديم حذوها، ثمّ ينطلق بنشاطٍ. في هذه الأثناء، ظلّت أنظارها تجول في الأرجاء. ولم يخفَ عليها أنّ سيّارات الجيش والشرطة، والسيارات الخاصّة التي لا تقلّ عنها خطورةً، قد تطبق عليهما من أيّ ناحيةٍ، وتمسك بهما.

كمنت في مخبئها وهي تراقب المكان بعينٍ لا تغفل. ثمّ لم

تعد تستطيع أن تمكث مكانها، فجرّت أخاها معها. عبرا الطريق. استقبلتهما هذه الأخيرة بظلمتها الداكنة، وانحدرت بهما نحو المرفأ. بالنسبة إلى الفتاة، أنبأها حدسها أنّها تشرّع أمامهما طريق الحرّية. ما كان عليها إلا أن تبلغ المرفأ والرصيف البحريّ، هناك، حيث ينتظرهما الخلاص. فأخذت عهداً على نفسها بالوصول، جاعلةً من ذلك مهمةً ملقاةً على عاتقها.

كان نديم يجري بجهدٍ، فيأخذ منه التعب كلّ مأخذٍ، لا يدفعه إلى المسير إلا قوّة إرادته وحدها.

إقترحت عليه أخته:

ـ أنشدها من جديد أرجوك. أنشد تلك الأغنية. لستَ مضطراً إلى رفع صوتك. هلا غنّيتَها كما فعلتَ من قبل؟ أظنّ أنني سأتعرّف إليها.

تذكرُ أنّ الكلمات الأولى تقول: افترّ ثغرها عن بسمةٍ سرّية... ترى، أيّ سيارة جيب قد تتجرّأ الآن على سلوك هذه الطريق بسلالمها ومنحدراتها الممتدّة؟ تناهت إليها الموسيقى، لكن حين وصلت إلى نهايتها، بدأ الشدو. وحين يصل الشدو بدوره إلى نهايته، متى قد يعرف حدوده؟ عارية تبقى الكلمة. وماذا يحدث حين تصل هذه إلى نهايتها، حين تستنفد طاقاتها؟ يتألّق الشدو من جديد. أو الصرخة. وماذا عن الموسيقى؟ الموسيقى... أتجرؤ على التوغل إلى هنا، حيث قد تتدهور سيارة جيبٍ رأساً على عقب، حتى النهاية. تلك كانت الأفكار التي ضجّت في ذهن

باهي، فيما الصمت أصبح زاد نديم الذي لم يثقل عليه الوهن، بقدر ما هدّه السكوت. فكان، إن فغر فاه صدفةً، لا يتفوّه إلا بأعاصير أنفاسٍ مشوّشة. لم يكن قد غنّى، ولن يغني أبداً، فوحده الصمت قد أمسى شدوه.

إتّجهت باهي نحو السلّم هناك، وهي ترافقه خطوةً خطوة. لن يطول وصولهما. إنّ القدر يحضّر لأخيها تجربةً إضافية ليجتازها. وقالت باهي لنفسها: «لو أنّ الطرق قد تعلّمت فنون الالتواء، لالتوت على نفسها، حتى تصبح مسألة إخفائنا في غاية السهولة، ولتحاول الكلاب أن تتعقّبنا حينها؛ لكن باستقامتها هذه، ويلٌ لمن يتعرّض للملاحقة!»

في تلك اللحظة، انبثقت دوريّةٌ من الليل، أخذ ثعبانها يتلوى بحذر. فلم تشعر باهي في حياتها أنها مكشوفةٌ بهذا القدر قط. كلّ ما فعلته هو أنها انزوت في مدخل بنايةٍ، وهي تجذب نديم وراءها. استندت إلى الباب الذي لم يفلح أيّ دعاءٍ في شقّه ولو قليلاً، وانتظرت مرور الفرقة المسلّحة. إبّان ذلك، كان الجنود قد وصلوا إلى مستواهما، ورشاشاتهم جاهزة للتّسديد. فلم تجد أمامها إلا أن تقبض على وجه نديم بين راحتيها، ثمّ تغطّيه بوجهها، وهي تطالبه بصوتٍ مخنوق:

ـ أنظر إليّ، أتسمعني؟ افتح عينيك، قبّلني.

وأطبقت شفتيها على شفتيّ الصبيّ اللتين افتقرتا إلى أيّ حسّ؛ فإذا بجفنَي نديم يطرفان، فيفسحان المجال أمام نظراتٍ

بعيدةٍ حدّ الرعب. فاستعادت باهي بقية عبارات الأغنية العاطفية: لكن في عينيها ظلامٌ كئيب ...هكذا غنّى قبلاً، كما لو أنّه أسير هذيانٍ. لثمت الفتاة شفتيه، وقد اختلج في صدرها شعورٌ بالاضطراب، فلم تتوقّع ذلك الضغط الخفيف الذي مارسته عليها شفتا نديم.

مرّ أولّ جنديّ من الصف، فسعل سعالاً خفيفاً:

ـ إحم!

فما كان من الباقين إلا أن نحوا نحوه:

ـ إحم! إحم!

وما لبثوا أن اختفوا في أعماق الزقاق. فبدا الهواء تلقائياً أخفّ وطأةً.

«من حسن الحظ أنهم لم يسمعوا خفقات قلبي تطرطق في صدري». وفيما هي محصّنة في مدخل البناية هذا مع أخيها، حاولت باهي أن تستعيد رشدها، بعد هذه الانفعالات التي تملّكتها، فإذا بنافذةٍ تُشرّع في أحد الطوابق العليا، وصوتٍ يرعد على نحوٍ متوقّع:

ـ أنتما، أيها العاشقان! لقد نضب من وجهكما ماء الحياء فعلاً! أحسنتما اختيار الزمان، في خضمّ كلّ ما يجري. لكن هذا لا يهمكما، أليس كذلك؟ خيرٌ لكما أن ترحلا من هنا بسرعةٍ!

عاشقان! نزل عليها هذا الإثبات من علٍ، فعرفت باهي أنّ الفكرة التي خطرت لها لم تكن سيّئة. واستحال كلّ شيءٍ من حولها إشاراتٍ وبشائر.

كانت على وشك أن تصرخ طالبةً الرحمة، غير أنها ما لبثت أن أجابت نفسها: نعم، الرحيل، نحن لا نطلب إلا هذا.

في غمرة تلك الليلة التي سكن الشيطان وقافلته جنباتها، مضت ونديم بين ذراعيها، إلى أن نزلا الدرج الكبير، درجةً درجة، كيفما كان.

كان على باهي أن تتابع سيرها، وهي توازن بين مشيتها ومشية أخيها المترنّحة. قرّرت أن تصطحبه إلى المرفأ. كانت تسير حافية القدمين، فتشعر أنّ فيها من الارتياح ما يجعلها مستعدّة للتوجه إلى الأمام، وإلى الطريق المعاكس أيضاً. لكنّها تعرف أنّ المرفأ قريبٌ وأنّ إلهامها قد أسبغ عليها فكرةً رائعة. وإلا ما كانت لتفعل؟ أتعود إلى البيت؟ وكيف يجرؤان على مجرّد التفكير في هذا؟ سيضطران حينها إلى العودة إلى المركز وركوب الحافلة الكهربائية. كيف يفعلان هذا ونديم على تلك الحال؟ من شأن تسليم نفسيهما إلى السلطات أن يوفّر عليهما كلّ تلك المشقة. أما ركوب سيارة أجرة، فليس بحلّ حكيمٍ أيضاً.

لا بدّ من أنّ المرفأ، ذلك الملاذ المرتجى، خالٍ في هذه الساعة، برصيفه البحريّ وقعره ومخازنه وحمولته المكدّسة وصناديقه الكبيرة ورافعاته. بدأت الرغبة في الوصول تصبح ملحةً

أكثر فأكثر. فنديم أشبه بخرقةٍ لا حياة فيها. دهشت باهي أنها لا تزال تملك القوّة على نقله، من غير أن يسقط من بين يديها، في كلّ خطوةٍ. فهي نفسها تتمنّى، في تلك اللحظة، أن تضطجع على الأرض، فلا تنهض أبداً.

- هيّا يا نديم، أبذل مجهوداً أخيراً.

رفضت أن تقف آمالها على شفا اليأس في ما يتعلّق بتقدّمه، بل كانت مستعدّةً لتقديم يد العون إليه، والدفاع عنه مهما يحدث.

- فلنمشِ قليلاً بعد ونصل.

لكنّ الإجابة التي تلقّتها كانت مجرّد تنهيدةٍ ضعيفة. فما كان من الفتاة الشابة إلا أن شدّت على ذراعه وسحبته، حتى سار إليها.

رافقت خطاه وهي تمصّ، مع ذلك، دمعةً سالت على وجهها. كان جسده المحموم المضطرم الذي ضمّته إلى صدرها قد نقل إليها الحمّى، فباتت تغلي تحت وقع حريقها أيضاً. رغم ذلك، أخذت تعزّي نفسها أن لا مجال للتوقف بعد ذلك.

راحا يتوغلان بين جدران الظل، تحزّها أشعةٌ طويلةٌ من الضوء، حتى بلغا هاوياتٍ لا سبيل إلى سبر أغوارها، رمقتها باهي بعينين متسائلتين وطافحتين بالكلل. فخفق قلبها حتى بلغت ضرباته حنجرتها، لا بل حدّ الانفجار؛ ونسيت المرفأ الذي ينتظرهما.

هذا المرفأ الشنيع! فجأةً، جذبت نديم بقساوةٍ لم تتعمدها.

كان مجرّد التفكير أنها عاملته بشراسةٍ كفيلاً بأن يستدرّ عبرات شعورٍ ما في قلبها.

كان المرفأ هناك.

حين أبصرته، تراءى لها عالم أشباحٍ، لكأنّه مفصولٌ عن العالم المألوف، لكأنّه لم ينشأ ولم ينتصب إلا من أجلهما. لقد تورّطا وانتهى الأمر.

رجّعت إليهما الصدى، من بعيدٍ، بقبقة مياهٍ راكدة، غير مرئية. وانبعثت من الأحواض ضبابةٌ خفيفةٌ، عفنةٌ، لا تدرك باللّمس، تمتزج فيها رائحة السمك والمازوت والقطران؛ فألقت بيدها الرطبة على وجه باهي، كما لو أنّ أحداً لا يُسمح له بالتجوال في تلك الأنحاء، إلا إن تمّ التعرف إليه. وانتشرت مصابيح مركّزة هنا وهناك، فاستنفدت نوراً معتلاً بدون ضرورةٍ؛ عبثاً حاولت أن تضيء المكان، غير أنّ الفتاة لم ترَ فيها إلا حاملي أخبارٍ سعيدة، ولم تلمس في وميض بصرها سوى غمزات عينٍ متعاطفة.

ظلّ نديم حيث تركته، مسلماً رأسه على صدرها بدون تعمدٍ، وبدون الإتيان بأي حركة؛ أشبه بوجه الظل الذي تتزعزع صورته، مع كلّ نظرةٍ ترمقه بها. فأثار فيها هذا الانطباع عذاباً مريراً، كيف لا ونديم الحقيقي قد تحرّر من نفسه، بسبب سرٍّ غامضٍ ـ ليلتحق بأيّ عالم يا ترى؟ ولو أنّ من يقف بجوارها ليس بأخيها، بل شخصٌ آخر هو، فمن يكون هذا الغريب؟ لم تعكس هذه الأسئلة

تماماً ما يعتمل في صدرها، بل في صدر أيّ امرىءٍ يلمس شيئاً كهذا، جثةً مبهمةً كهذه، فيروح يتخيّل أيّ خطوةٍ يترتّب عليه أن يتّخذها.

إنقضّت مختلف أنواع الأفكار على باهي، فيما هي مستغرقةٌ في تأمّل صفّ الأضواء التي تتعقّب منحنى الجون اللانهائي، كي تعبر الفضاء الليلي. وعلى ضوء هذه الفرجات المنيرة، حاولت، على غفلةٍ منها، أن تحدّد ما لا سبيل إلى معرفته؛ وما لبثت أن عرفت: كانت تبحث عن موضع بيتٍ، فيلاّ، معلّقة هناك، في زاويةٍ من زوايا الضباب، فوق سطح البحر. فأحسّت بغصّةٍ في حلقها. كان هذا بيتهما.

وسرعان ما حاصرتهما طبقات الرطوبة التي كانت تبسط أجنحتها الكبيرة. فسرت قشعريرةٌ في بدن باهي، وقد اجتاحها الشعور بتلك الوحدة، وبعضٌ من خطرٍ يحدق بهما.

ثمّ وقفت، كما ساعدت نديم على الوقوف أيضاً، قبل أن يتوغلا في غمار الليل. كان ليلاً بلا وجهٍ، ومما يثير العجب أنّه يشرّع أمامهما أبوابه بقدر ما يوصدها في وجهيهما، ويخفيهما بقدر ما يخفي متعقّبيهما، كما يخفي المقت الذي لا سبيل إلى الاحتماء منه. في ذلك الحين، لم تكن باهي قد وجدت الملاذ بعد، حيث لن يقبض عليهما أحد.

راحت تسير على طول السكك الحديدية التي تؤمّن المواصلات إلى المدينة، وترمي فوق المرفأ شبكةً حديدية،

ونديم ما زال بين ذراعيها. عند تلك اللحظة، لمحت بين أحواض السفن مكاناً آمناً، على ما يبدو. سيتمدّدان هناك بانتظار عودة السكينة إلى الأجواء، علّهما ينجوان، إن ابتسم لهما الحظ.

فجأةً، ارتعدت الأرض تحت قدميهما: وإذا بقطارٍ أشبه بوحش اللوياثان البحريّ يزعزع مشهد الليل، ويخترق ستاره بعويله وغضبه الهائج، فتجلدهما رياحه بسوطها، قبل أن يتجاوزهما، فيخلّف المكان في ترنّحٍ مشوّش لبرهةٍ، ويوقظ المرفأ من سباته، ويسرّع من ضربات قلب باهي الجنونية، فيما تضمّ أخاها إليها.

بعد عشرين خطوةٍ، سلّط كشّاف نورٍ حزمةً ضوئيةً لامعةً على الفتاة التي تجرّ نديم. فجحظت عين عملاق السيكلوب، وقضت في طريقها على عتمة الرافعات، والجسور الآلية، والسفن في المرسى التي يعانق خيالها السماء، من دون أن ننسى أفق أرصفة الشحن وأبنيتها، هناك في الأسفل، حيث تتدثّر بظلامٍ ما بعده ظلام. فيغلق هذا الأفق المنافذ كلّها وهو يكدّس العتمة، ليلاً فوق ليلٍ.

راودت الأفكار نديم: خطوةٌ وراء خطوةٍ، ويقودني هذا المسير إلى نفسي؛ وينتهي بي الأمر إلى ملاقاة ذاتي؛ وملاقاة تلك البهيمة التي تقتات مني؛ بهيمةٌ عاشقةٌ هي، فقد سبق أن قضمت عينيّ، وقضمت عقلي، وقضمت قلبي؛ سأنتهي بعد أن تكون قد استهلكتني؛ فتخال أنها قد احتلّت كياني، ويؤول بنا

المآل تحت ثلجٍ أسود يغطّينا، قبل أن نسلّم كلّ شيءٍ إلى البراءة الناصعة البياض. إنني أرى... لا، لست أرى شيئاً.

وتسلّم زمام الكلام الوميضُ الذي أحرق، بنوره الوحشيّ، ذلك الفراغ الذي ابتدعه. وسمعت باهي صوتاً متحجّراً يعلن:

- الأوراق!

- الفصل الخامس -

كانت زيزا تقفز هنا وهناك، إلى أن غارت في الغرفة، وما لبثت أن توقّفت، مشدوهةً، وقد صدمها ثقل الصمت الذي تَشوّه به المكان. لم يكد ينقضي شدهها حتى حدّدت، في النور الشحيح، طيف امرأةٍ تجلس إلى زاوية نافذةٍ، وتصبّ اهتمامها على حديقةٍ وافرةٍ بالنباتات، استطاعت الفتاة الصغيرة أن تلمحها وهي تتبع نظراتها، وقد أسرها شيءٌ ما. ثمّ ارتدّت نظراتها إلى قاع الغرفة من جديد، ثمّ إلى صورة المرأة فيها، فإلى النافذة المائلة. بعدئذٍ، هرعت ترتمي على المرأة التي لم تكن عيناها قد فارقتا الحديقة. كانت في مقتبل العمر، لا هي شابةٌ ولا مسنّة (لكنّ زيزا لم تحفل بذلك قط).

إحتضنتها المرأة بذراعها، بينما سألتها زيزا من دون أن تحاول التفلت من قبضتها، أو أن ترفع رأسها:

- خالتي باهي، لِمَ لا تأتين وتجلسين معنا؟

وما إن فرغت من كلامها، حتى أشارت بيدها، هي السجينة، إلى الغرفة التي تقصدها؛ في مكانٍ ما من ذلك البيت.

ـ تبقين وحدك دائماً. أتفضّلين الوحدة؟

تأخّر الجواب. لكنّه ما لبث أن بان:

ـ أنا سيّدةٌ مسنّة، ولا يجوز على السيّدات المسنّات أن يفرضن وجودهنّ على غيرهنّ، لا سيّما على الشباب.

كان الصوت بطيئاً، بعيداً، يرتفع فيتلفظ بكلمة، ثمّ يتلفظ بأخرى منفصلة تماماً عمّا سبق.

وثارت الطفلة:

ـ لستِ مسنّة! لستِ مسنّة!

بدت كأنّها تشرف على البكاء. ثمّ تابعت:

ـ كما أنّك لستِ بسيّدة! فأنت غير متزوّجة! خالتي باهي، لمَ لم تتزوّجي؟

مرّةً أخرى، استغرق الجواب مدّةً كي يصاغ، لكنّه لم يكن وقتاً للتفكير بقدر ما كان وقتاً معلّقاً، مقطوعاً وحسب.

ـ إنّ الرجل الذي أحبّه رحل بعيداً...

ـ أوتنتظرين عودته؟

أومأت السيّدة برأسها إيماءاتٍ خفيفة علامة الموافقة. بدا أنّ أنظارها قد ضاعت نهائياً في تأمّل الحديقة.

ـ ولا تفعلين إلا التفكير فيه.

ترى، هل أدركت زيزا وهي تقول ذلك أنّ سؤالها ليس بسؤالٍ، وأنّه سيبقى دوماً يتيم الجواب؟ في ذلك الحين، كانت قد رفعت أنظارها لتتأمّل، لا لسببٍ يذكر، تلك المقلتين الأخريين بلونهما الأزرق الفريد، المائل إلى لون البحر البنفسجي، ذلك البحر الذي لا تودّ أيّ موجةٍ أن تشوّش شفافيته وسكونه.

المسعود

- الفصل الأوّل -

أحكم قبضته على جلد محفظته الأسود، القابعة في باطن كفّه، وهو مستغرقٌ في التفكير كمن يواجه معضلةً ما. فبدا أنّ في فتحها من العسر ما يشقّ على النفس.

كفّ عن التردد. لقد اتّخذ قراره، مهما بلغ من خطورته، وليحدث ما يحدث! وبعد، ألم يُخرج محفظته من جيبه لسببٍ ما؟ فتحها. كانت محفظته تنفتح نحو الأعلى، كدفتر أوراق المختزل. بعدما رفع الغطاء، كشفت طيّته العليا عن جيبين، حافتهما مفتوحةٌ من جهةٍ ومدروزةٌ من جهةٍ أخرى. دسّ (الرجل) إصبعين في الجيب الأكبر، فاكتشف صورةً، أخرجها إلى وضح النهار. كانت صورةً شخصيّةً عنه، بالألوان. لم يتغيرّ البتة، أو لعلّه بالكاد تغيّر: فذلك القناع الثقيل ما زال هو نفسه، وتلك الملامح الجليّة هي هي. كم أراد أن يبدّل من معالم هذا القناع وتلك التقاسيم، وكم اشمأزّت نفسه من أن يصبحا جزءاً منه، لكن عبثاً يحاول. أوتسألون عن الانطباع الذي يولّده هذا الشعور

في نفسه؟ لقد تأمّل في صورته، فخيّل إليه أنّ خلف هذا الستار تكمن هاويةٌ عظيمة، كتلك التي تتساقط في أعماقها الدفينة قطرة ماء، وقد استحالت دمعةً.

بحركةٍ مباغتة، أعاد الصورة إلى مكانها. وما لبث أن عثر على صورةٍ شخصيّةٍ ثانية، في الجيب الآخر، بالألوان هي أيضاً، وتعود إليه كذلك؛ غير أنّ عمرها يتجاوز خمس عشرة سنة على الأقل. لم يُطل فيها النظر، ولم يرَ فيها ملامحه الحالية. ثمّ أعادها إلى الجيب نفسه، حيث سحب ملاحظةً خطّية. لم يكن الخطّ مألوفاً في نظره، إلا لسببٍ معيّن: فعلى صفحتها، كان قد كتب بنفسه أرقام النفقات التي دفعها، والمبالغ التي صرفها، إبان رحلةٍ إلى السويد. وبدورها، عادت الوريقة إلى الرقاد قرب الصورة. عند ذلك، انتبه إلى وجود ورقةٍ رقيقة، في الجيب نفسه، على سطحها مجموعةٌ من الأرقام: 09 18 19 40. إنّه رقم هاتفٍ. لكن لمن؟ لم تسعف الرجل ذاكرته، كما لم يبذل أيّ جهدٍ للتذكر، بل ترك جيب المحفظة الصغير ينغلق عليه.

امتدّ نهر السين بين هذه الحافة والحافة المقابلة، ماضياً في مزيجٍ من التكاسل والتواني، كما لو أنّ رعشةً من السعادة سرت في عروقه. ترى من قد تعتريه الدهشة حينذاك، إن كانت الانعكاسات التي يهدهدها النهر في جحره قد أثارت صور حلمٍ لم يرتوِ بعد، في ذلك العصر المضيء؟

لبرهةٍ، سلّم الرجل نفسه لذلك المنظر، وسرعان ما انتشلها منه على مضضٍ، ليدقّق مجدّداً في محفظته المفتوحة فوق يده. هنا، ظهرت أمامه محفظةٌ أصغر، رفع طيّتها، فطالعته نافذةٌ تغطّيها واجهةٌ من البلاستيك. فانتزع منها تذكرة هويّته. لم يعد يحتاج إليها. ثمّ أخرج ورقةً أخرى: بطاقته الانتخابية. لم يعد يحتاج إلى هذه أيضاً. وما لبثت أن تلتها بطاقة الائتمان. لم يعد يملك حساب ائتمانٍ، ولا يحتاج إلى بطاقةٍ كهذه. لم ينقطع سيل البطاقات هنا، فسرعان ما برزت بطاقة فئة الدم. ألقى نظرةً على فئة دمه، فإذا بها مكتوبةٌ بالفرنسية +Rh: A. لأوّل وهلةٍ، تساءل إلام يرمز هذان الحرفان، ثمّ هزّ كتفيه بلا مبالاةٍ، فما عاد يفيده أن يعرف شيئاً.

جمع البطاقات في رزمةٍ، وأقحمها تحت الواجهة البلاستيكية مجدّداً، فتلاشت تذكرة هويّته، للمرة الأولى، عن الأنظار. كانت رخصة سوقه الزهرية قد دُست في غلافٍ من البلاستيك أيضاً، فطُويت مراراً وتكراراً. فما كان من الشخص إلا أن فرد الطيّات الثلاث، لتظهر أمامه فجأةً صورته الشخصية، بالأسود والأبيض، وقد شُكلت على الطيّة الأولى. ها هي صورةٌ إضافية تسدّد إليه النظرة تلو النظرة، رغم أنها التقطت من الجانب هذه المرّة. أما هو، فحدّق فيها بقدر ما حدّقت فيه. كان الوجه الذي يرجّع إليه النظرات غريباً أيضاً. فمن هو صاحب هذه التقاسيم الشابة الحافلة بالكآبة والجدّية؟ يا لسخرية القدر! كيف تصدّق هذه الصورة

المجهولة على وثيقةٍ رسمية محرّرة باسمه؟ أو لعلّه مجرّد خطأ ارتكب سهواً؟

أفلت رخصة سوقه بحركةٍ غير إرادية، فانثنت وحدها، متّخذةً وضعيّتها الأصلية. لم يعد يحتاج إلى هذه بعد الآن. فالسيّارة قد بيعت. لم يكن قد نال حتى نصف قيمتها، مع أنها سيارةٌ من طرازٍ حديث. وهكذا، لم يكد يسدّد بعض الديون حتى كان المبلغ قد نفد.

لكن على الرجل أن يبعد رخصة السوق المثنية، إن كان مصمّماً على التوغل في ما وراء الغلاف الذي تغطّيه، والمصنوع من البلاستيك أيضاً. كانت الواجهة الأولى فارغة؛ رغم ذلك، لمح صورةً قابعةً في الواجهة التالية. فأخذ الرجل يتأملها من غير أن ينتشلها من جعبتها الواقية. طالعه مربّعٌ بخمسة سنتيمترات عرضاً وطولاً. أبصر في أسفل الإطار فتاتين صغيرتين. كانت إحداهما تحيط كتفي الأخرى بذراعها، وقد بدت أكبر منها سنّاً بقليل. لم يعطِ أيّاً منهما عمراً يتجاوز السنوات الستّ كحدٍّ أقصى. كانت عدسة الكاميرا قد فاجأتهما وهما تضحكان، لكن كم كان ضحكهما مختلفاً! فعلى سبيل المثال، بدت الفتاة التي تحيط رفيقتها بذراعها، وهي تفغر فاها كأنما أصابها الجنون، فيما تلك الأخيرة تزمّ شفتيها وتكتفي برسم بسمةٍ على ثغرها، وكأنها تكبت ضحكةً كادت تفلت منها. تذكّر الرجل أنّ تكشيرتها الأشبه بتكشيرة العجائز لم ترق له في ذلك الحين. أما

اليوم، فقد انجلت فكرةٌ للتوّ في رأسه. لا بدّ من أنّ هذه الطفلة كانت قد فقدت بعضاً من أسنانها، فحرصت على ألا تكشف عنها. غير أنّ ذلك لم يكن السبب الوحيد الذي منعها من الضحك: فقد كانت تحمي بطنها براحة يدها أيضاً.

كان سيتزوّجها لاحقاً، ورغم ذلك، ستبقى هذه الفتاة الصغيرة غريبةً بالنسبة إليه، لا بل لغزاً حقيقيّاً. صحيحٌ أنها أهدته هذه الصورة قبل الزواج، لكن هل أتت على ذكر أيّ معلومةٍ عن صديقة طفولتها تلك؟ لا يذكر ذلك فقد محا النسيان هذه الصور من قلبه.

في الجيب الصغير نفسه، إنما من الجهة المقابلة، عثر على صورٍ أخرى. كانتا صورتين اثنتين هذه المرّة، لامرأةٍ واحدة ذات جمالٍ فتّان. لو أنّ المرء أشاد بحركتها اللافتة في كلتا الصورتين، وهي ترجع رأسها قليلاً إلى الوراء، فتمنحه عينيها كقدحين من نور؛ لو أنّه التفت إلى الغموض الكامن في هاتين المقلتين اللتين، مع ذلك، تلبيان أيّ دعوةٍ تناديهما من الخارج؛ لو أنّه وصف ابتسامتها، ووصف ألف ميزةٍ وميزةٍ غيرها تزيّن حسنها، لظلّ قاصراً في حقّ السحر والجاذبية اللذين يشعّان منها. كانت الطفلة الصغيرة بتكشيرتها العجائزية هي صاحبة هذا الجمال الأخّاذ.

كانت إحدى الصور قد قُصّت لتوضع في قلادةٍ، فيما احتفظت الأخرى بحجمها العاديّ. بدت الساعة في يدها، فيما

ذراعاها ملقاتان فوق طاولةٍ أو مكتب. هيئة الوجه هي هي، والابتسامة هي هي، وقد أُضفيت عليها لمسة افتتانٍ إلى حدٍّ ما. ما من صورةٍ يتأمّلها فيها، إلا ويبصر تلك الابتسامة التي تسبغ هالةً حول وجهها.

ما كاد يرمق تلك الصور بنظرةٍ، حتى انتقل إلى الجيب الثالث. كان يحتوي بدوره على صورة امرأة. وقد التقطت الصورة هذه المرّة من أسفل العنق وحتى الخصر، بدون الرأس. سدّدت العين المتطفلة نظراتها المباشرة على بياض نهدٍ، تفلّت من أسر صدارٍ مقوّر، ليطعم فم طفلٍ رضيع. لم يكن الرجل ينظر إلا إلى السلاسل الثلاث التي تزيّن ذلك الجيد، ومناجدها التي تتدلى منها؛ وقد كان قد ابتاعها لها هديّة. وما لبث أن أعاد الصورة إلى الجيب الصغير.

عثر، خلفه، على بطاقةٍ قديمة للاشتراك في نادٍ لكرة المضرب. وفرغت، بهذه البطاقة، محتويات المحفظة كلّها. فلم تكن الطيّة الجلدية الثانية تكشف إلا عن نافذةٍ سوداء، على غرار الطيّة الأولى.

لكن لا، لم تفرغ محتويات المحفظة كلّها بعد. فما زال فيها ذلك المكان السرّي الذي يمتدّ على طول المحفظة، ويحمي الأوراق المالية. أزاح الشخص الغطاء، فظهرت أوراقٌ نقدية، ستّ في مجملها، أخذ يعدها وهي لمّا تزل كامنةً في مخبئها. فما كان منه إلا أن نقلها إلى جيبه الخاصّ. بعدئذٍ، وقع نظره على

بطاقةٍ إضافية تستتر بين الشقوق. فجذبها بإصبعٍ واحد، ولمّا أدرك أنها بطاقة الضمان الاجتماعي، أقحمها من جديد. لم يعد يحتاج إليها بعد الآن. إثر ذلك، أغلق المحفظة على مصراعيها، وعدّل من جلسته، نافخاً صدره، ثمّ دوّر ذراعه دوراناً ورماها هناك، حيث ابتلعها نهر السّين.

كانت المحفظة قد سلكت مساراً فسيحاً، قبل أن تخوض عباب الماء وتغوص فيه. لكنّ صوت السقطة المفاجئة الذي ينتظره المرء عادةً لم يصدح، ولم تتولّد أيّ تموّجاتٍ كذلك.

إرتسم على وجه الرجل تعبيرٌ بالاغتباط، فتحسّس صدره بكلتا يديه، وإذا به يشعر بحدبةٍ خلف سترة بذلته، ويكتشف وجود مفكّرةٍ بعناوين معارفه. استخرجها من أحد جيبيه الداخليين، ورمى بها لتنضمّ إلى المحفظة. كانت مجرّد حركةٍ بسيطة نابعةً أحياناً من النور الذي يشعّ في داخل الإنسان. لكن أيّ نوعٍ من الحركات هي؟ ومن سيأتيه بالجواب الصحيح؟

سافر نظره نحو نهر السين بضفتيه الاثنتين، وقد احتضن جزيرة «لاسيتيه» التي طالعته، عن اليمين، بأنفها الكثيف الشعر، المكتظّ بالأشجار، فيما ظهر، عن اليسار، جسرٌ ضيّق يعجّ بحشدٍ من النمال البشرية. وبين الهواء الذي لفحه والسماء التي انبسطت فوقه، اعتراه فجأةً إحساسٌ بشيءٍ نافذ، أثيريّ: «لكن ما

زال ينبغي على الحياة أن تقرّ بذنوبها، وتطلب السماح إن أمكن».
ثمّ أضاف الرجل وهو لا يفكّر إلا بذلك: «لكن لا يكفيها أن تتجسّد في المصيبة التي تلمّ بكم».

مع ذلك، كان يخيّل إليه أنّه يحتلّ المقعد بأكمله، إن لم يكن الضفة بأسرها، وقد فكّ أزرار سترته، وألقى رجليه المنفرجتين أمامه، كما مدّ ذراعيه على مسند المقعد. ظلّ محافظاً على تلك الوضعية المحرّرة من كلّ قيد، فيما جريان الماء قد هدهده على وقع دندنته.

فجأةً، جرّ رجليه إليه ثانيةً، وانتصب بقامته الفارعة، قبل أن يمضي بعيداً. لم يكن يصعد إلى الأعلى، عائداً إلى المدينة، بل راح بالأحرى يذرع المكان باتّجاه الرصيف المخصّص للمشاة.

فيما بعد، مرّ تحت جسر «بون نوف»، وحين انتهى به المسير لاحقاً، اضطرّ إلى العودة أدراجه.

حين بلغ مستوى مقعده، أكمل الخطى بدون تلكّؤ أو توقّف. فاجتاز مسافةً لم يبالِ بقياسها، إلى أن وضعت نهاية الطريق حدّاً جديداً لتسكّعه. فما كان منه إلا أن عاد على أعقابه. أيمكن للعقل أن ينبض بالأفكار في ظلّ هذه الأحوال؟ فأينما اتّجه، تواجهه هذه الحواجز التي ترتفع من كلّ حدبٍ وصوب.

لمّا رجع إلى مقعده، لم يجده شاغراً، بل وجد فوقه زوجين متعانقين. فاقترب وجلس على أحد طرفيه، لا سيّما وأنها ليست

غلطته. في الوقت عينه، قام العاشقان الفتيّان ورحلا فجأةً. فأخذ يتطلع إليهما وهما يبتعدان وهو يفكّر: «لقد طردتهما».

هل تمتّع يوماً باحترامٍ تجاه الآخرين؟ أبداً. لقد اعترف لنفسه أنّه لم يحترم غيره قط. هنا، تناهى إليه صوته: «ومن تحسب نفسك أنت؟ أتخال، بدورك، أنّك شخصيّةٌ مهمّة؟». إنّه هنا الآن، وحيداً. وما لبث أن تردّد صدى صوته: «من تحسب نفسك أنت؟ أتخال، بدورك، أنّك شخصيّةٌ مهمّة؟» إثر ذلك، انتقل إلى وسط المقعد. إنّه لوحيدٌ فعلاً. لكنّ هذا ما أراده، أليس كذلك؟ كان أشدّ ما تبغيه نفسه هو أن تغلق أذنيها دون تلك اللازمة المبتذلة: «من تحسب نفسك أنت؟ أتخال، بدورك، أنّك شخصيّةٌ مهمّة؟».

ضحك هازئاً، وقد قرّر ألا يزعج نفسه: «تنجلي الحقيقة حين يحتار الإنسان بشأنها. ويُقطع اللسان حين تسكت لغة الكلام». ثمّ أردف: «تنجلي الحقيقة حين تكشف عن وجهها التعيس».

لا، لم يكن وحيداً. فبمحاذاته يجلس إبليسه، أبكم. كان الرجل يجهل ذلك. فصوت جريان الماء يهرس النفس ويسحقها سحقاً.

أسدل الليل ستاره. فتفتّح بأمره عددٌ لا يحصى من الأزهار الضوئية على صفحة نهر السين. لم يكن هو قد حرّك ساكناً من فوق مقعده. ظلّ يتأمّل هذه الأزهار اللامعة حتى كاد يفقد وعيه،

لا بل حتى كاد يستحيل بدوره مجرى نهرٍ صامتٍ، وقد غمرته الأزهار. غير أنّه لم يبرح متيقظاً للدويّ المتدفق من الأعالي.

زاد الليل من ستائره الداكنة السميكة، والأزهار الضوئية لا تنفكّ تشرّع تويجيّاتها. كذلك، لم يطرأ أيّ تغييرٍ على المشهد الخارجيّ. ببساطة، لم يتغيّر شيء. وحدها هذه التويجيات أخذت تتعاقب، في تلك اللحظة، الواحدة تلو الأخرى، فتسلّم نفسها للتيّار يجرفها، عوض أن ترقص في مكانها. وتجدر الإشارة إلى أنّ أحداً لم يكن يتسكّع على الضفة الخالية، سوى رجلٍ حسب أنّه غيّر اسمه بمياه النهر المعمّدة، ثمّ تعمّد من جديدٍ باسمٍ ما زال يترقّب معرفته. فإن بقي أحد ارتجاجات المدينة التي تعذّب بها الليل يقرع أذنه قرعاً، فسيعتقد، وله الحقّ في ذلك، أنّ أذنيه تطنّان مع تقدّم العمر به. وفي الواقع، بدأت السيارات تقلّ شيئاً فشيئاً، حتى أنّ ظلّ الضجيج، الخافت والخاطف هذا، لم يخدش رقّته إلا نفس حيوانٍ.

بات ليلته على المقعد نفسه.

أشرقت الشمس، فبدّدت نداوة الهواء، وقد كانت قارسةً عند بزوغ الفجر، فيما أضحت بعده مجرّد ذكرى. فوقف واستمتع بمطّ جسده مراراً وتكراراً، وهو يطرد النعاس الذي ران عليه. أحسّ بخدرٍ تسرّب إلى أطرافه، وألمٍ يعتري أضلعه، وقد فعلت فيه قساوة مضجعه فعلتها. مع ذلك، لم يشعر أنّه سيكون أفضل حالاً، لو أنه استيقظ في فراشه تلك الليلة. عند

ذلك، أحسّ أنّه يماثل الأسد شجاعةً، وتصنّع شعوراً أشبه بالزهو والكبرياء.

في تلك اللحظة، غادر ضفاف السين ومضى في سيره، لينضمّ إلى رجالٍ عند السطح، كانوا قد انطلقوا في سباقهم اليوميّ. «سباقٌ إلى الكنز هو، مجرّد سباقٍ من أجل السباق». وبدورها، استعادت السيارات سباقها الوحشيّ، الذي لا يرحم.

إنتظر طويلاً أمام إشارة المرور التي لم تستحل حمراء، ولم توقف اندفاع السير، إلا بعد مضيّ وقتٍ طويل. فالمرء لا يخسر شيئاً إن انتظر. فانتظر وانتظر. في غضون ذلك، أخذ يفكّر في تلك الخطوة التي ألهمته، وحسناً فعلت، بالاحتفاظ بنقوده قبل إلقاء بقية أغراضه في الماء. فذلك عملٌ بلا مبرّر، بل بقايا من ذكريات المدرسة الابتدائية المبهمة. واستعاد ذكريات الخصومة بين الرفاق، وكلّ تلك الأكاذيب التي كان المعلّمون يحشون رؤوسهم بها. فيصدّقهم الفتيان، بكلّ ما في قلوبهم من سذاجةٍ، ويبتلعون ما جرّعوهم من معلوماتٍ، حتى يتعلّموا أصول الكلام الذي لا يفيد معنىً. بالإجمال، ذلك ضربٌ من العمل الذي لا مبرّر له.

فجأةً، انفضّ الزحام من على قارعة الطريق، فاجتازها من غير أن يطيل المشي، ثمّ بلغ الناحية المقابلة تقريباً، ودخل إلى أحد المقاهي.

- الفصل الثاني -

كان لا يفرغ من استعمال المرحاض إلا ليتعلّم كيف يغتسل بمياهٍ تفي بالحاجة وحسب، يضطر من أجلها إلى الضغط على الصنبور غير مرّةٍ. فيا له من مكانٍ ملائم للتأمل والخشوع!

بينما كان يمسح وجهه بمنشفةٍ ورقية، حذّرته الصورة التي رجّعتها إليه المرآة، فوق المغسلة، كم طالت لحيته، وكم نثرت من رمالٍ على محيّاه. حاول إقناع نفسه أن لحية الأشقر لا تخيف بقدر لحية الأسمر، لكنّه عرف أنّ لحيته ستنتفش. فهو يراها تنمو منذ الآن، بالوجه الذي يراقبه في المرآة، الوجه المغلق، الغائر، بعينيه الزرقاوين الكابيتين. الجوّ هنا، الجوّ بأسره، حافلٌ برائحة مطهّرٍ بعطر الخزامى. لكأنّه يشتمّ النظافة بقدر ما يشتمّ السكون... سكون لا يخدشه صوتٌ.

لمّا دخل القاعة، توجّه إلى المشرب قبل الجلوس، وطلب شطيرةً بالجانبون، إلى جانب فنجان قهوة. ولم يمضِ وقتٌ حتى قدّم له النادل طعامه بهمّةٍ، لا سيّما أنّه كان الزبون الوحيد في مثل تلك الساعة. أما هو، فضرب عصفورين بحجرٍ، متناولاً فطوره وعشاء الأمس في الوقت عينه.

كانت فتحة الباب تملك صفات شاشة تلفاز عملاقة، لا بل إنّها أوحت بتلك الفكرة الوهمية نفسها. فعلى عتبته تضمحلّ شهبٌ متفجّرة، خرافية، قبل أن تنبعث من جديدٍ بجنونها

المطبق، وتواصل لعبها اللانهائي بمجموعةٍ من النيازك التي تطارد بعضها البعض.

لم يستغرب انبعاث رائحة العادم القويّة من السيّارات، لكن أن تمتزج برائحة النبيذ والبيرة والتبغ العفنة فهو أمرٌ لم يتوقّعه في مكانٍ مماثل.

أخذ الرجل يأكل ويشرب، فيما يرهف السمع لارتجاجٍ بهيمٍ، تهتزّ تحت وقعه الأرضية والجدران والهواء نفسه. في غضون ذلك الوقت، حجب النور طيفان ظهرا عند المدخل، وشرعا يتناوبان على دعوة بعضهما البعض إلى الدخول أوّلاً. ولمّا رفض كلٌّ منهما عرض الآخر، انتهى بهما الأمر إلى التحرك معاً فالاصطدام، من أجل اجتياز العتبة، إلى أن كشفا أخيراً عن مظهريهما البدائيّ وقامتهما الطويلة، فوق سيقانٍ متيبسةٍ، يحركانها بانتظامٍ، وقد أثقلا من الثياب ما لا يلائم الفصل. لم يكونا قد كفّا عن الحديث قط، حتى حين أصبحا إزاء المشرب، حيث هتفا بطلبهما إلى خادم المقهى، بدون أن يتحقّقا إن كان يسمعهما، أو إن كان موجوداً في مركزه أصلاً، بين المصفاة ومضخّة البيرة ورفوف الزجاجات المتعدّدة الألوان المعروضة.

ـ قدح نبيذٍ أبيض صغير.

ـ الطلب نفسه.

تنخّم صوتهما، فتنحنحا بين الفينة والأخرى، في استراحةٍ وحيدةٍ منحاها لنفسيهما.

- أؤكّد لك أنّنا لن نعرف أبداً.

- لن نعرف أبداً؟

- أبداً.

- لكن يجب على الأقل أن نحاول المعرفة.

- لو كنّا نستطيع! لو كنّا نستطيع!

- لكنّك تعتقد أنّ هذا ضروريّ.

- ضروريّ فعلاً؛ لو كنّا نستطيع!

- لو كنّا نستطيع؟ وماذا لو يكن ثمة خيار بديل؟

- ما من خيارٍ بديل؟ طبعاً!

- طبعاً...

- طبعاً!

وما إن فرغا من الكلام، حتى امتدّ كفّاهما الأعجران إلى قدحيهما، من غير أن يرمياهما بنظرة.

أخذ الرجل يمشي على غير هدىً، حتى أفضى به المسير إلى ساحة «سان ميشال». فراح يتساءل بتردّد ما عساه يفعل في ذلك المكان. فهو لم يطأ الحيّ اللاتيني منذ مدّةٍ تشبه الأزل، منذ التحالف الشعبي من أجل الأمل الذي لقّب بأيّار 68. حتى هو صدّق هذه التفاهات.

تردّد لبرهة، وما لبث أن سوّلت له نفسه التقدم، فصعد جادة «سان ميشال». وهنا، رأى شاحنة تنظيف ترشّ دفقاً من المياه،

يخليها الكنّاسون بانتظام. على طول الطريق، ارتعشت أشجار الدلب، بأوراقها وأشعتها المتموجة، فمدينة باريس تأخذ حمّام الصباح. حفل الجوّ بنسيم نديّ، وسعادةٍ تهزّ المشاعر وتخلّف فيها تأثيراً مضطرباً. فكاد الرجل يقع تحت سحر هذه الأجواء، لولا أنّه شعر بضرورة مجابهة أيام صباه، وأنّه، كلّما ازداد منها اقتراباً، يجتاحه ما يشبه الغثيان.

لكنّ تقزّزه ما لبث أن تلاشى رويداً رويداً. أمّا الجادة، فأخذت تكشف عمّا تحوّلت إليه: مجرّد سلسلةٍ من محال الألبسة الجاهزة. وقد كان الرجل يتوقّف، كلّما دعت الحاجة، ليلمح نفسه في واجهات المقاهي الزجاجية التي ما أخلفت إحداها بموعدٍ قط. بدت له هذه المرّة أنها ترزح تحت ثقل البهرج اللماع؛ لكأنها، في سبيل أن تلبس قناع الجاذبية والتجديد، رضيت أن تذلّ نفسها وتحطّ من قدرها.

«لا تجيد الحياة إلا أذية كلّ من يعيش فيها».

وعاد أدراجه.

فيما بعد، اجتاز جادة «سان جيرمان» من جديد، عند المنعطف، غير أنّه تابع، هذه المرّة، سالكاً شارع «لا آرب»، ومنه توجّه إلى «سان سيفيران». المزيد من التغييرات هنا أيضاً. كانت الحانات المنزوية التي لم تستبدل ألوانها بأثواب العوالم نادرةً نادرة. وتعاقبت عليه قصور ألف ليلة وليلة تلك. ترى، من يرتادها؟ ما زال الوقت مبكّراً جدّاً ليعرف الإجابة. تسكّع قليلاً

بعد في الأزقة المتشابكة، قبل أن يجتاز شارع «سان جاك»، ويمرّ أمام كنيسة «سان جوليان لو بوفر»، فيبلغ الأرصفة البحرية.

المدينة مجرّد ستارٍ شفاف، تتقاطع وراءه الأطياف. وأبصر، بمحاذاة درابزين نهر السين، بعض تجّار الكتب يفتحون أكشاكهم، بكلّ جدٌ ونشاط.

وسرعان ما وصل إلى جزيرة «سان لويس»، بفضل الخطوات المنتظمة التي اعتمدها، حيث اكتفى بسحق التراب تحت قدميه، من غير أن يعير أيّ شيءٍ اهتمامه. البضاعة المبتذلة هي هي تطالعه أينما كان، فهو يعرف الكوكب بأسره زاويةً زاوية. لقد اجتازه من نيويورك إلى طوكيو، ومن القاهرة إلى هونغ كونغ، ومن باريس إلى موسكو عبر هلسنكي، ومن لندن إلى لوس أنجلوس.

حين اقترب من حيّ «سان بول»، لم يعد يدري أين وصل به المسير. ماذا لو أنّه حطّ على كوكبٍ آخر؟ لم يكد يخلّف وراءه ذلك العالم الموحّد الذي تركه في مكانٍ ما على وجه هذه الأرض، حتى عثر عليه ثانيةً، بالشبه نفسه، والفرادة نفسها والألفة نفسها. وجرّته رجلاه في سيرٍ دام ساعةً ونصف، فشعر أنّه بلغ شبه مكانٍ ولا مكان. ساعةٌ ونصف من السير، وها هو يجد نفسه في أوروبا وسطى، كما تخيّلها تماماً، يهز أفئدتها شرقٌ، كما تخيّله أيضاً. فضاع، هو المهاجر غير الشرعيّ، بين منبذ أقلياتٍ ومدينةٍ حقدا على من وحّدهما، من غير أن ينفصلا.

يا لها من دوَّامة بشريّةٍ، تفوح منها رائحةٌ حيوانية: أحسّ أنّه يطوف في قلب هذه الدوّامة، غريباً كما لم يحسّ بذلك قبلاً، سواءٌ في طوكيو أم نيويورك أم موسكو. أبصر بعضاً من أهل الحيّ يستترون تحت قبعاتٍ سوداء كبيرة، تنسدل منها لحىً اكتحلت بالسواد نفسه. كان هؤلاء يخترقون الحشود بصفتهم حرّاساً صامتين يحملون المظلة اليهودية. أما الباقون... في الواقع، بدا أنّ الباقين قد اتّفقوا جميعاً على الانطلاق في بحثٍ، لكن بحثٌ عن ماذا؟ كانوا يفتّشون. من يدري، ربّما يبحثون عن الوطن الذي يحيط بهم من كلّ جانب، كما يفلت من أيديهم من كلّ جانب. تراهم يبحثون في غمرة هذا الضجيج، في هذا الهرج والمرج الذي ينفجر فيه زعيق بائعي الصحف، ويتشبثون برأيهم، لأنّ هذا واجبهم.

وبصعوبةٍ، تنفست على طول الأرصفة وعلى قارعة الطريق محالٌ مزدحمةٌ حتى الثمالة، اصطفّت فيها الفواكه والخضار واللحوم والأسماك والأمتعة المستعملة والألبسة البالية والأقمشة والخردوات. هناك، كان المارّة يدوسون على القاذورات، فتكاد أرجلهم تزلُّ عند كلّ خطوة، فيما الباعة يصرخون بهم من بسطةٍ إلى أخرى، فيتسببون بجلبةٍ ترتفع، تتعاظم، تمتلىء سخطاً، كأنّها أفلتت من برج بابل، ثمّ تبلغ أوجها كأنما هالةٌ ما أسبغت على ضوضائها نشيداً روحياً.

كان هذا النشيد من القوّة بحيث بلغ أسماع أولئك المتقهقرين

في الحفر الأبعد؛ فمن البديهيّ أنّ أكثر من يتدافع هم الصعاليك الذين يقبلون من كلّ حدبٍ وصوب. لكن في خضمٍّ هذا التدافع، كان رجلٌ واحد، واحد فقط. بدا مهموماً، لا يعرف كيف يشقّ طريقه وسط الزحمة الخانقة بقوّة معصمه أو ركبته أو كتفه، فلم يدرك أنّ شخصاً، في المقابل، كان يشدّه من هدب سترته، منذ بضع دقائق.

غير أنّ تلك الهزّات الخفيفة ما لبثت أن كشفت عن إلحاحٍ، دفعه إلى الالتفات في نهاية الأمر. فإذا بصبيّ في العاشرة من عمره تقريباً يدسّ، بحيويةٍ، ورقةً في يده. كان أسمر اللون، قطع عليه الطريق، وأخذ يحدّق فيه بعينين أشبه بعيني الوعل.

تأمّل الرجل في راحته المفتوحة، وفي الورقة المثنية وسطها، من دون أن يفهم. ثمّ نقل نظراته الحائرة والفضولية إلى الولد. فقام هذا الأخير، وقد فاجأه عجز الرجل، يشرح له بالإشارات. بدا أنّ الرجل مستغرقٌ في مراقبة تلك الأنامل خاصّةً، وذلك الجسد النحيل الذي يحرّكها: فرأى سروالاً رثاً، وقميصاً باهتاً، وجسماً نحيفاً من غير هزالة، وشعلةً من الحياة تحتدم في الحدقتين.

فما كان منه (أي الرجل) إلا أن فضّ الورقة وقرأ: «أنا لاجئٌ رومانيّ. لا أهل لي. لا مال عندي. وأنا جائع».

لكن ما إن مدّ يده إلى جيبه، من حيث فاجأه هذا الأرعن الصغير، حتى زمجر صوتٌ قرب منضدة خضراء:

ـ فلترحل من هنا أيها السوقيّ الحقير الصغير! لا يفعل إلا التسكع في الأرجاء والسرقة. لقد رأيته بأمّ عيني! ويلٌ لك! بانتظار أن أطلب الشرطة، لن يستطيع الهروب طويلاً!

لم يكن هو (أي الرجل) يملك وقتاً إلا لرمي الصبيّ بنظرة. لكنّ الفتى الأسمر لم يكن موجوداً، لكأنه لم يوجد قط، لكأنه تبخّر!

لم يبقَ إلا قصاصة الورق، حيث انطبعت الثنيات، في كفّه. فأعاد قراءتها من جديد: «أنا لاجئٌ...».

من قد يكتب ورقةً أخرى من أجله؟ وكيف تجرؤ الحياة، والحالة هذه، على طلب السماح؟

حوالى الظهر، جرّب حظّه، وارتاد أحد مطاعم الحيّ الحقيرة. فلمَ التراجع وقد وصل به الحدّ إلى هنا؟

كان يتذوّق أطعمةً مجهولةً. فحين يجري الحديث عن الاختبارات، يمكن للمرء أن يمرّ باختبار حشو فمه ببهاراتٍ شتّى، اجتمعت في الطبق نفسه. كان قد نفر منه في بادىء الأمر، ثمّ استسلم للأمر الواقع، قبل أن يستميل ذوقه أخيراً.

E finita la comedia[1] . وانتهت البعثة البولُسية. فقرّر أن يعود أدراجه.

---

(1) هكذا في الأصل بالإيطالية وتعني: انتهت الكوميديا والمراد أن الأمر قد انتهى

لم يتحاشَ عبور «بوبورغ» في طريقه. فأخذ يدور هنا وهناك، وهو يمشي بهويّة الغريب.

لكن، حسبه نظرة واحدة ألقاها على هذه السوق الخيرية، ليكتفي منها. فهجر المكان، تاركاً إيّاه لمرتاديه المعتادين. كانت المدينة قد غرقت في نور المغيب، فلم يطل الأمر حتى أخذت ألوانها تشحب شيئاً فشيئاً، فيما غاصت الأشياء مجدّداً في بؤسها وتوحدها. شعر بثقل العالم مرّةً أخرى، وقد استعاد حالته المتقلّبة. هذه هي باريس التي يجتازها (الرجل) ثانيةً.

لكنّه لن يصل قبل أن يدرك أنّه كان قد بلغ ذلك المكان، حيث يفوت أوان كلّ شيء، وحيث الساعة ساعة احتضارٍ لمن يريد أن يموت، ولا يعرف كيف يموت.

- الفصل الثالث -

مرّت الأيام وانقضت الليالي. بدا أنّ كلّ شيءٍ يجري على ما يرام. أو على الأقل، هذا ما فكّر فيه (أي الرجل)، من غير أن ينسى أنّ المرء يعتاد كلّ ما حوله.

اليوم، لم يبتعد كثيراً عن ضفاف السين. قرّر أن يتشمّس أولاً في الممرّ المشجر الذي لم يمضِ وقتٌ طويل على إنشائه، مقابل كنيسة نوتردام. جلس على أحد المقاعد الحجرية، وهو لا يفعل إلا التملي بمنظرٍ يتكرّر إلى ما لا نهاية، منظر أولئك الناس وهم

يتوافدون نحو تيّاراتٍ قويّة تجرفهم وتطبق عليهم، كأنما وجدت لتحجبهم عن الأنظار، وتشتّتهم. كانوا سيّاحاً جميعاً، أو قل معظمهم، وقد سيطرت رغبتهم في التقاط الصور على الرؤية بأمّ أعينهم. فالرجل لم يقع فيهم على واحدٍ تأمّل نوتردام بعينٍ ملؤها الاهتمام والتركيز.

في الواقع، كان، هو نفسه، يتأمّل هذا الصرح كغيره، دون أيّ تفكير. فإذا بفراغٍ يحتلّ أعماقه، من غير أن يساهم هو في تشكيله، بأيّ طريقة كانت. رغم ذلك، لم يشعر أنّه يغرق فيه، أو على العكس، أنّه يسيطر عليه: كانت هذه الحالة قد أوجدته، بكلّ بساطة، عند فاصلٍ بين حدّين، حيث يشعر بكلّ اندفاعٍ لا إراديّ، ويمسح كلّ بريق حياة، بسكونٍ شديد، وعلى خلفيةٍ من السعادة، أو أيّاً كانت الكلمة، لا يهمّ. وبقي على تلك الحال، حتى لم يعد يحسّ بانقضاء الوقت.

ثمّ ذرع الأرصفة البحرية على غير هدىً، بالوتيرة المنتظمة نفسها. بعدئذٍ، دخل إلى حانةٍ أخرى ليأكل شطيرةً ويقضي حاجته. حين خرج، توجّه من جديد نحو نوتردام؛ فقصد هذه المرّة الحديقة العجفاء الشاحبة التي تحيط بها. فرأى هناك شرذمة أولاد، صغيري السن، يرتعون تحت مراقبة أمهاتهم، ووسط أسرابٍ من طيور الحمام والدوري. وعلى غرار تلك النسوة، جلس على مقعد، من الخشب هذه المرّة، وصبّ اهتمامه على مراقبتهم.

خيّم الليل باكراً، كحالته في باريس، وفوق نهر السين أيضاً: فوزّع العتمة والنور بحصصٍ تسلّلت عبر الأبواب المواربة، فأعطت إشارة الانطلاق لانعكاسات المرايا غير المرئية، حيث الظلام يعكس النور، والنور يعكس الظلام، إلى أبعد ما يمكن أن يتوغل المرء.

فجأةً، صدح نداء الأرض المضيفة مرّةً أخرى. ولمّا وصل إلى سمعه (أي سمع الرجل)، سلك وجهة ذلك المكان الثابت الذي لن ينساه أبداً، حيث أردى اسمه غرقاً، وقتل أيضاً كلّ ما جاء معه. وما لبث أن مشى على طول النهر، حيث لمح الشيء الذي أثار فضوله، في هذه الليلة المتنكرة. بمقدار ما كان يقترب ويبلغ مداه، أخذ هذا الشيء يتوضح. رأى جسماً ممتدّاً على مقعده هو. أخذ يتفحصه. فرأى ثنايا وركين بارزين بالنسبة إلى الخصر؛ وعرف أنها امرأة. كانت نائمةً على جنبها الأيمن، وقد رفعت ركبتيها قليلاً. استطاع أن يميّز، بين الظلال المبهمة التي عكسها نهر السين، الثوبَ وقد أُسدل فوق الساقين، حتى العرقوب، يغطّيه رداءٌ صيفيّ خفيف، انساب ذيله على الأرض.

كتم أنفاسه وقد أحسّ بالصمت يعصر قلبه. ثمّ انحنى فوقها محدّقاً فيها. كانت من الصبا بحيث لم تتجاوز الثلاثين بعد، وقد ضمّت يديها الاثنتين سنداً لرأسها وسعياً للرقاد. فبدت، وقد غلبها النعاس، كمن طلّق الهموم كلّها، بما في ذلك همّ سلامتها. لكنّه لن يوقظها.

ومضى مبتعداً.

بينما راح يجرّ خطواته نحو «بون نوف»، أخذت الصُورة ترافقه، أو بالأحرى تتموّج أمامه، كما لو أنّها سُكبت في قالبٍ من الضباب. لكن، لم يكن قد مضى على سيره بضع خطواتٍ، حين أقبل صوتٌ يلاقيه. فانحجبت المشاهد المرئيّة، وانفضّت الصورة في ذوبانٍ ذاتيّ.

تناهى إليه الصوت أبحَّ، غريباً، فيه من التنافر ما يجعلنا لا نصدِّق أنه صادرٌ عن تموّجات المياه، بل من ذلك اللون الأسود، الكثيف، المركّز في أسفل الجسر. تابع الرجل المسير نحوه، ولم يطل الأمر حتى توغّل في العتمة نفسها، تلك التي بدت طبيعيّة حين أصبح تحت الجسر. كان الصوت يخاطب موجوداتٍ افتراضية قابعةً في الظل، وقد بدا أنّ صاحبه قد أسرف في الكلام وأفاض.

وفي ردّة فعلٍ لا إرادية، ما كان من الرجل إلا أن بحث عن مكانٍ غير بعيدٍ، عند دعامة الجسر، وافترش الأرض جلوساً.

وسرعان ما دوّى الصوت في أذنه، بنبرةٍ لا يخالطها أيّ تواضع:

ـ أنت أيّها الجديد! ألا تعرف أنّ الرطوبة تضرّ بالمؤخّرة؟ إمسك!

تكلّم الصوت، بلا وجه ولا سخريةٍ أيضاً، لا بل بنبرةٍ من الألفة. ثمّ أردف:

ـ سبق أن لاحظناك. التسكع فنٌّ يُتعلّم، وأنت لم تتعلّم بعد.

تلت ذلك قهقهةٌ عالية.

فقام هو (أي الرجل)، وأولج بينه وبين الأرض اللوح الكرتونيّ الّذي وُضع بين يديه.

وهَدَرَ الصوت من جديد.

ـ أنت أيها الجديد! أخبرنا أوّلاً ماذا يسمّونك؟

قلّب السؤال في فكره. فعلاً، أيّ اسم يلقّب به نفسه؟ فهو الذي لا اسم له. لم يعد يُسمّى. ترى، ماذاً يكون جوابه؟ فقال:

ـ المنبوذ.

لم يكن قد اعتبر هذا السؤال المتطفل أقل لياقةً من رفع الكلفة الغريب هذا.

ـ تقصد أنّك المسعود. لا بأس بهذا.

إنّ هذا الصوت يولّد في القلب حرارةً مؤثرة.

ـ نعم، هذا ما قصدته، أنا المسعود.

وهكذا، من خلال هذه الهيئة السوداء، أنبأته الكلمة المجرّدة من الجسد اسمه الجديد، اسمه الحقيقيّ.

لم يجدّ في البحث عن الكلام، لا بل لم يحاول ذلك، فعاد يقول:

ـ نعم.

كان يلمس الموجودات إلى جانبه، أو أمامه، من خلال أنفاسها. ترى، كم بلغ عددها؟

وما لبث أن ارتفع الصوت من جديد:

ـ إن قرّرت البقاء بيننا، ستُسمّى السعيد وحسب. أيروق لك ذلك؟ أيكفيك هذا الاسم؟

أذعن السعيد:

ـ سأكون ناقصاً لو قلت إنه لا يروق لي. إنه أكثر من كافٍ.

وما لبث أن ردّد بصوتٍ خافتٍ هذه المرّة:

ـ أكثر من كافٍ.

تراءت أمام السعيد تلك المضطجعة هناك، على مقعده. «لقد أصبح مقعدها الآن. لكن سنرى ذلك غداً».

ـ أنت لا تتكلّم أيها السعيد. ألأنّك لا تملك شيئاً يقال أم ماذا؟

ـ إنّ العالم يبدأ من جديد. إنها بدايةٌ جديدة حقّاً. وليضحك كثيراً من يضحك أخيراً.

ـ هلّلويا!

عند ذلك، أخذت أضواء الشارع تومض من ناحيتي الجسر، فوق الضفتين كلاهما، فما رجّعت إلا صورة الفراغ.

عامرية والفرنسي

وصلت ثمّ تمتمت بصوتٍ كأنّه الهمس: «جدّي! لو أنّك رأيتَ ذلك!» (تسأله، هو الكفيف، إن كان قد رأى هذا أو ذاك... هي عبارةٌ قد غدت عاديّةً طبعاً، لم يعد أحدٌ يعيرها اهتماماً، وقد كفّ هو، على الأخصّ، عن تسجيل معناها في ذاكرته. ربّما لأنّ العمى لم يرافقه منذ نعومة أظفاره، بل أخذ يزوره لاحقاً، بين الفينة والأخرى، في مرحلةٍ متقدّمة من مراحل عمره؛ لهذا، لازمه أبداً ذلك الشعور بفقدان البصر تارةً والرؤية تارةً أخرى، وما زال يلازمه حتى اليوم. لكأنّ الأشياء لا تزال تتراءى له مبهمةً، تلوح من مسافةٍ بعيدةٍ، وتنأى أكثر فأكثر كلّ مرة. ثمّ ماذا بعد؟ ما عساه يقول؟ فهي مجرّد عبارةٍ تستعمل في الكلام، وليس أمامه إلا الردّ بالإيجاب. أجاب بنعم لأنه، بكلّ بساطةٍ، يرى قصد محاوره ويفهمه فعلاً، ويعرف ما خطبه مهما قلّ شرحه، أو تأخّر تفوهه بالكلمات. فما كان منه إلا أن جلس، عسى حفيدته تتكلّم في تلك اللحظة، وهو لا يملك إلا أن يصبر تحت أشعة شمسٍ ربيعيةٍ مشرقة. لم يكن المقعد الذي استقبله

وهو يتنعم بحرارة الشمس بمقعدٍ حقيقيّ؛ فقد افترش جذع شجرةٍ مقضّبٍ بغير إتقانٍ، يمتدّ على طول بيتهم الصغير، بيتهم جميعاً، هو ومن تبقّى من عائلته. صحيحٌ أنّ عرى صبره لم تنفصم إثر ذلك، لكنّه لم يعد يقوى على الانتظار، فلجّ به بعضٌ من القلق، وعقد فوق مقبض عصاه أصابعه الرفيعة كأغصان العرائش. لا، كانت بالأحرى هراوةً، وقد عقف أحد طرفيها. وما لبث أن أخذ يطرف بأهدابه، من دون أن يردّ السبب إلى الشمس التي تلفحه لفحًا؛ فلطالما طرفت أهدابه وحدها، بسبب تشنّج عضليّ أصيب به حين فقد البصر، وهي عادةٌ يشعر بها ما إن تحدث له، لكنّه يعجز عن التحكم بها أو مقاومتها، لذا، سرعان ما طرفت أهدابه أكثر فأكثر وهو يسألها):

ماذا يا روحي؟ ماذا رأيتِ؟

كانت عامريّة قد ركعت بجانبه، بينما أفلتت يداه الهراوة، ومن غير أن تطيلا البحث، أحاطتا برأسها، كمن يحاذر في إمساك كنز ثمين، كبائعة الحليب التي تحمل إحدى جرّاتها، وهي تحرص كلّ الحرص على ألا توقعها. أما الفتاة الممشوقة القامة، فقد ألقت رأسها في حضن هاتين الذراعين، وعادت تردّد في لهاثٍ خافت:

لو أنّك رأيت... لو أنك رأيت ذلك...

نعم، نعم. صه، اهدئي يا طفلتي. (ثمّ كرّر برفقٍ وهو يمسّد على شعرها: صه، اهدئي).

في هذه الأثناء، تمزّقت صفحة القبة العالية من فوقهما، على وقع صرخةٍ ثاقبة وسريعةٍ في آن. كان الفاعل طيراً من أوائل طيور السنونو، يعلن عن فرحته برجوعه، وقد أدرك أنّ تلك السماء كلها ملكاً له، فترك نفسه تضيع في أرجائها. بالإضافة إلى ذلك، امتزجت أنفاسهما برائحة غبار الطلع وهو يرتحل على نفس لفحةٍ خفيّة، يحملها الهواء من كروم ملك غرامون. (فلان لها فؤاد المسنّ وخاطبها بحنانٍ صامت: مرحباً بك أيتها السنونوة السعيدة. مباركةٌ أنت يا بذرة الكروم. لكنّه لم ينفكّ يشعر بأطراف حفيدته ترتعد، وقد أخذ منها الانفعال كلّ مأخذ: كانت أشبه بورقةٍ. حاول أن يخفّف عن تلك الورقة، فشدّ على رأس عامريّة، وبين يديه طفلةٌ عاجزة عن لجم عنان ارتعاداتها، فنسيت لغة الكلام. أمّا هو، فمرّر أصابعه بين خصلات شعرها، وشجّعها على التكلّم مطمئناً إياها):

إحك لي. إحك يا عامريّة، فإنني مصغٍ.

لو أنّك رأيت... لا، لم أقصد هذا... قصدت ما رأيتُه أنا! يا إلّهي، يا لهول ما رأيته!

ولكن ماذا رأيتِ يا سنونوتي؟ تكلّمي. (كانت عيناه المنطفئتان تحدجان شمس الصباح التي زرعت في قلب الريف ذهولاً عظيماً؛ فربّت على رأس عامريّة وقد أضحى ملقياً على ركبتيه، هو المسنّ). ماذا رأيت يا عامريّة؟

فأجابت بصوتٍ تهدّج من الرعب:

الفرنسيّ... كان ما يزال هناك. لقد رأيته...

الفرنسيّ! رفقاً، فلتهدئي يا صغيرتي.

هو بعينه. كنت قد لمحته قبلاً. مرّتين لمحته. لكنّها كانت مجرّد لمحةٍ. لقد عاد. أؤكّد لك أنني رأيته، رأيته، رأيته!

رأيتِه. أين؟ (فطن إلى أنّ الكرب سيقضّ مضجعها لو أنه لم يصدّقها، وأنها ستكتشف ذلك من مجرّد سماع نبرة صوته، أو بأيّ طريقةٍ أخرى. وإن كان من شيءٍ لا يقوى عليه، فهو الإحساس بأنها مكفأة الوجه، مطرقة الطرف، بسببه هو). أين رأيته؟

هناك. في ملك غرامو، حيث لا يزال.

قالت غرامو، لا غرامون، على غرار سائر سكان القرية. فسمح المسنّ لنفسه بإبداءِ شيءٍ من الدهشة:

في ملك غرامو؟ (ثمّ استغرق في التفكير وقال لنفسه: آل غرامو أمسوا من العدم. صحيحٌ أنّ الملك ما زال موجوداً، وأننا نسمّيه ملك غرامو جميعنا، لكنّهم رحلوا، أولئك الناس رحلوا. آل غرامو وسواهم. منذ مدّةٍ بعيدةٍ بعيدةٍ رحلوا! حينذاك، لم تكن فكرة الولادة قد مرّت في ذهن عامريّة بعد، وها هي اليوم قد بلغت من العمر اثني عشر ربيعاً. أو على الأقل، هذا ما أظنه. وفي تلك الحقبة، كان أبوها نفسه مجرّد ولدٍ، وكنت أنا... كنت ما أزال أتمتّع بالبصر. رحلوا كلّهم، رجالاً ونساءً، صبيةً وأطفالاً، مخلّفين وراءهم الحيوانات، وذلك الكلب الضخم الذي

كانوا يملكونه أيضاً. لم يعد من فرنسيّ واحدٍ في البلاد، مهما توغّل المرء بحثاً عنه. لكنّنا نسمّيه ملك غرامو حتى اليوم. حتى في نظر عامريّة، تلك الفتاة التي لم تألف أحداً منهم قط، يبقى الملك حاملاً اسم المزرعة، اسم ملك غرامو. فهم، وإن ابتلعتهم الغربة، قد خلّفوا بعضاً من كيانهم، فيجتاحك أحياناً إحساسٌ بسيط بأنّ الأسياد ما زالوا يسكنون أرجاء الملك. لا، ليس مشهداً قد تراه العين، بل إحساساً بالقلب تحاكيه، فتشعر أنّ ذلك الجزء من كيانهم يحافظ على أرضهم ويرعاها، ويعترف بحقّهم الأبديّ عليها، ويحمي رابط التواصل هذا من الانقطاع. إنّه العهد. عامرية تترك رأسها ملقياً على ركبتيّ. مجرّد طفلةٍ هي، تبحث بعد عن حمايةٍ. لكن حماية ممّا يا ترى؟ بل أيّ حماية؟ ومن يحمي الآخر، أأنا أحميها، أم هي بدرع الأمان تطوّقني؟ في الحقيقة، إنها تبعث فيّ التسلية. لكنّني سأتسلّى بنفسي وأنا ألاطف فلوتي الصغيرة وأسألها):

وهذا الفرنسيّ الذي رأيته، ما شكله؟

فأجابت بنبرةٍ يخالطها الأنين:

ما شكله؟

ما أدراك أنه فرنسيّ، وليس واحداً من أبناء قريتنا؟

إنه فرنسيٌّ!

لكنّك ما رأيتِ فرنسياً في حياتك قط كي تتعرّفي أشكالهم!

فرفعت رأسها. وبينما هي راكعةٌ على ركبتيها، أخذت تتأمّل

ذلك الوجه الطيب الذي تتآكله مشاقة لحيةٍ غزيرة. لم تكن بيضاء اللون تماماً، بل رمادية، يسيطر السواد على بعض شعيراتها. وممّا يثير العجب أن لا نور يسطع على سطح الوجه إلا بريق العينين. فاعتقدت أنّ محيّا المكفوفين يشرق بنوره الخاصّ، ويقتات منه. عندئذٍ، أجابت بهدوءٍ هذه المرّة:

لعلّي لم أرَ فرنسيّاً في حياتي قط. لكن، حين يتعلّق الأمر بتعرّفهم، فإنني أجيد ذلك. والشخص الذي رأيته كان فرنسياً! أؤكد لك ذلك يا جدّي!

لمّا نطقت ما نطقت به، ألقت برأسها من جديد على ركبتي العجوز الضرير، وقد أمالت وجهها جانباً، ثمّ أردفت:

لا يستطيع أحدٌ أن يجزم إن كان رجلاً، أو كان طفلاً. فبالنظر إلى قامته الممشوقة، ووجهه الطفوليّ، وشعره خاصّةً، شعره الأصفر المجعّد الذي ينسدل خصلاتٍ حلزونية على عينيه، لا هو برجلٍ ولا طفلٍ. (وبمقدار ما كانت عامريّة تفيض بالحديث، كان هو، أيْ الجدّ، يستعيد وميض الأمس، ليكتشف رويداً رويداً هوية ذاك الذي تتكلّم عنه، أكان رجلاً أم ولداً، لا يهمّ. فقد اشتعلت ذاكرته خاصّةً عند ذكر هذه الخصلات المجعدة التي تنسدل فوق عينيه. فكانت على وشك أن تسمّيه، إلى أن فعلت في نهاية المطاف):

فصاح بصوتٍ عالٍ:

مسيو جاك!

ماذا يا جدّي؟... (فاستعاد العجوز حبل أفكاره، وفكّر: إنّه غرامو الابن، إنّه هو بعينه. وما لبث أن قال):

لا، لا شيء.

فتابعت عامرية:

كان جلّ ما يفعله هو الركض خلف السياج. رأيته يتنقّل من جانبٍ إلى آخر، ثمّ يرجع، ويعيد الكرّة. كان وراء سياج العفصية في ملك غرامو. راح يركض على طول هذا السياج، وكأنه يريد أن يلعب الاستغماية، وكأنه وجد رفيقاً يلعب معه. لكن كان بوسع أيّ أحدٍ أن يرى أنه يبحث عن مخرج أيضاً، عن ممرٍّ ما؛ بدا أنه يلعب ولا يلعب في الوقت ذاته. لا يستطيع أحدٌ التكهن إن كان يلعب حقّاً، ولا معرفة ماذا أراد فعلاً، لكن بإمكانه أن يستنتج أنه سجينٌ في الملك، لا تراوده إلا رغبةٌ واحدة: الخروج منه، الفرار. في بعض الأحيان، كان يندفع نحو المزرعة، وسرعان ما يعود. يعود مهرولاً ليلقي بنفسه إزاء سياج العفصية ذاك. لا، لم يكن يحاول الاختباء. أمّا في ما يتعلّق باللعب، فلم يرد اللعب كذلك. أنا من ذلك على يقينٍ جازمٍ الآن. آهٍ، يا جدّي، يا لمنظره وهو يعود ليصطدم بسياج العفصية! كان يبحث عن بابٍ يا جدّي، باب! لكن عبثاً، فقد ظلّ سياج العفصية يطالعه هو هو. كان يجهل أين ذلك الباب منه، مثلما يجهل وجود بوابةٍ كبيرة. أمّا نحن، فلا يفصل بيننا إلا ذلك السياج. لو أنك رأيتَ ذلك البريق في عينيه يا جدّي، تلك الشعلة الزرقاء

التي تضطرم في موقد حدقتيه، لعرفتَ كيف رجّعتا إليّ ابتسامة حبورٍ لمجرّد رؤيتي هناك. أؤكّد لك، هي ابتسامةٌ يمتزج فيها الحبور ونقيضه في آن. هي... لا أدري، شيءٌ آخر، كأني بها بسمة فرحٍ همجيّ، لا سيّما حين لاحظ حضوري. فعندما يحدّق فيّ، يعتريني إحساسٌ بتلك النار الزرقاء المنبعثة من موقد الغاز، وهي تلامسني، تلامس بشرتي وتلامس قلبي. رغم ذلك، ما هي إلا فكرةٌ واحدة سكنت خيالي: الهرب. غير أنّ قدميّ لم تطاوعاني، فبقيت مسمَّرةً مكاني، على الأرض. يا لشدّة الهلع الذي كاد يشقّ صدري، يا لفرط النظرات التي راح يرميني بها، وهو يظهر كلّ مرّةٍ في مكانٍ مختلفٍ عن ذلك الذي رأيته فيه قبل برهةٍ، وحيث توقّعت رؤيته ثانيةً. كلّ هذا كان يفقدني عقلي، يكبّلني. (هنا، أوشك الرجل المسنّ على سؤالها: «لكن لمَ اقتربتِ من هذا المكان أولاً؟ هل ساقتك جنّيةٌ إلى هناك؟ لكن ربّما تكونين أنت نفسك الجنّية، أليس كذلك؟» لكنّه ما لبث أن عدل عن رأيه، فعامريّة ليست بجنّية. واكتفى بالتمتمة: «اللهم احفظنا! إنّه مسيو جاك... مسيو جاك بعينه. هذا الطفل الذي لطالما حملته بين ذراعيّ قد بات اليوم ذلك الفتى، ذلك الكيان الضائع. إنّه هو الذي رأته صغيرتي عامريّة. مسيو جاك. غرامو الابن...»).

وانبثقت السنونوة في السماء من جديدٍ، ثمّ أطلقت صريفاً طويلاً في غمرة عاصفة الفضاء الضوئية التي حزّتها بصياحها حزّاً.

ـ آهٍ يا جدّي، لو أنّك رأيتَ ذلك، لبكيتَ على حفيدتك حتى اخضلّت لحيتك، من شدّة ما كان قلبي يقوم ويقعد. بدا لي أنّه أراد اللعب معي، أجل، اللعب معي كما لو أنّه يعرفني، رغم أنّه أخذ، في الوقت نفسه، يحدجني بنظرةٍ مرعبة لا تعرف أحداً. لم أرَ مثيلاً لذلك في حياتي قط. بدا لي أنّه يعرفني أو يتذكّرني، وهذا مستحيل، مما بعث فيّ خوفاً يشيّب الرؤوس. (أمّا الرجل المسنّ، فشرع يفكّر: رأيناهم يغادرون بأمّ أعيننا، مسيو غرامو، ووالده، والفتية، والنساء، جميعهم؛ ولا أنسى وكيل الأعمال، ترافقه عائلته. باختصار، جميعهم: المسنّون والشباب معاً. بعد ذلك، صار الملك وحيداً. يتيماً. لم يبقَ له من يرعاه إلانا. لكنّني أذكر مسيو فرنسوا الذي لطالما خاطبنا كأنه، صاحب الملك، الآمر الناهي، ولا أحد سواه، رغم أنه لم يكن إلا وكيل الأعمال. أذكره عندما جمعنا في اللحظة الأخيرة، وشرع يوصينا وهو لا يزال يخالنا عاجزين، ويشرح لنا طبيعة العمل الذي نجيده منذ الأزل: «انتبه لهذا، ولا تغفل عن ذاك. لا تنسَ ريّ أشجار البرتقال يا قادر. أنت يا دهمان ـ وقد كان يقصدني ـ تذكّر أنّ العنب سينضج باكراً هذه السنة، فاسهر عليه، وليتمّ القطاف في أوانه. أتفهم ما أقوله؟ في أوانه. يجب أن تكون الأحواض نظيفةً أيضاً. فلتغسلوها قبلاً. أمّا أنت يا ميلود، فستتولّى قطف الذرة قبل أن يفقأها القيظ الشديد. حذار جميعاً! إعتنوا بالفواكه، بالكرز والمشمش والدرّاق، فلا تنسوا قطافها عن الأشجار. ولتتناوبوا على الاهتمام بالمساكن وريّ الأزهار». وراح مسيو فرنسوا يتكلّم

ويتكلّم، فيما نحن نومىء بالإيجاب على كلّ أمرٍ يسديه. أجبنا بحاضر، كما كنّا نجيب دوماً. فما عساكم تجيبون غاسل الموتى يوم تمثلون بين ذراعيه؟ أجل! كنّا نحسب أنّ مسيو فرنسوا والبقية يغادرون لفترةٍ وجيزة، ويعودون مجدّداً. فسبق لهم أن قاموا بذلك، إنّما لم يكونوا قد رحلوا جميعاً حينذاك؛ أمّا تلك المرّة، فقد ساورتنا بعض الأسباب بأنّ هذه الحالة مغايرة. مع ذلك، خامرنا في أعماقنا شكٌّ في رحيلهم إلى غير عودة، بعد أن ينفقوا أوقاتهم حيث ينفقوها. فنبرة مسيو فرنسوا كانت توحي بغير ذلك. وذهبوا، مخلّفين كلّ شيءٍ وراءهم: فيلّا الأسياد، وملحقاتها، والآلات، والمُلك بطوله وعرضه، والحيوانات، إضافةً إلى ذلك الكلب الكبير، الكلب الأسود الضخم الذي أخذ يعوي في الاتجاهات كلّها، منذ أن طواهم البعد. لم يعد أحدٌ منّا يجرؤ على الاقتراب، بالرغم من أنه لطالما أنعم علينا بنظرة رضىً حتى تلك اللحظة. ففي حين كان يقلب برطيله تحبّباً، لم يكن يقابلنا، نحن عمّال مزرعته، إلا بالكشف عن أنيابه. صحيحٌ أنه ظلّ يسمح لنا بالدخول إلى الملك، لكن من دون أن يكفّ عن الزمجرة في وجهنا ورصدنا بنظراتٍ مختلَسة. أوتسمّون هذا المخلوق حيواناً؟ في هذه الحالة، سيكون حيوان الجحيم بعينه! وخطرت لنا جميعاً الفكرة نفسها في أنّ خطباً ما سيلمّ بهذا الحيوان: فقد مسّه طيف جِنّية، ذهب بعقله. ويوماً بعد يوم، كان يستعيد مقداراً أكبر من وحشيته البدائية. أمّا نحن، فلم نَنتظر أن يلتهم واحداً منّا، كي نقفل الحواجز المشبّكة كلّها، ونكفّ عن العودة إلى هناك. هناك؟

منذ ذلك الحين، كلّ من بلغ به الطيش حدّ المجازفة هناك، كان ليتعرّض إلى كلب ينقضّ على عنقه ويمزّقه إرباً إرباً. وهكذا، استحال ملك غرامو مجرّد مكانٍ ملعون يهيمن عليه سيّدٌ واحد، هو كلبٌ مجنون. فبالفعل، لمّا انقضى بعض الوقت، ووفد أولئك السادة من لجنة الإدارة ليستولوا على المزرعة وما فيها، تصدّى لهم الكلب بحفاوته المعهودة، لدرجة أنهم لم يجرؤوا حتى على تخطّي عتبة المدخل. فظلّوا يراقبون المنظر من البوابة، بدون التوغل إلى أبعد من ذلك، أو حتى محاولة القيام بأيّ خطوةٍ إضافية. والجدير بالذكر أنهم اكتفوا بمعاينة البستان الأمامي الذي اجتاحته الأعشاب الضارة. لكنّهم ما لبثوا أن عادوا، هم أو أشباههم، مزوّدين بأسلحةٍ هذه المرّة. فأردوه، ثمّ ذهبوا، من غير أن ينفذّوا شيئاً آخر طيلة اليوم. ومرّ يومان قبل أن نشهد على وصول حشدٍ من الناس، هرعوا يفتحون بوابة المدخل، ويشرّعون أبواب المساكن ونوافذها كلّها. كنّا نراقب هذه المناورة عن بعدٍ؛ فما من أحدٍ وجد بدّاً من طلب رأينا، بخصوص أيّ مسألةٍ كانت. غير أنّ ذلك لم يكن مهمّاً: فبالنظر إلى الحالة التي آلت إليها المباني والملك، بتنا أنفسنا لا نعرفها، وهي بدورها لا تريد التعرّف إلى أحد. أمّا ما حدث بعدئذٍ، فهذا ما لا نملك علماً عنه. لكنّني أظنّ أنّ أمراً وقع، سيّما وأنّ كلّ شيءٍ قد ترك معلّقاً. واليوم، بعد مرور خمس عشرة سنة على الأقل، لا يعود سيّد الملك، بل ابنه، مسيو جاك. ترى، ماذا حصل لمسيو غرامو؟ أيعقل أنه أسلم الروح؟ لكنّه لم يكن متقدّماً في السنّ إلى هذا

الحدّ. أيعقل أنّ الأحزان قرعت ساحته لحظة اضطر إلى هجر ملكه، حتى أنه مات مقهوراً؟ كيف لا، والأرض بعضٌ من دمائكم، ونفسٌ من حياتكم؛ جزءٌ متجزىءٌ هي تستحيل كلاً متكاملاً إن أُرغمتم على الانفصال عنها. ولو فرضنا أنّ الفراق لم يقتلكم، وأنكم تمكّنتم من النجاة بعدها، فستمسون روحاً تهيم في أودية الأحزان، بحثاً عمّا أضاعته منها، ويتحوّل اسمها إلى قوقعةٍ فارغة تسكنها أصوات الأشباح. أفلا يقال إنّ للصحراء حرّاساً يسهرون عليها؟ لا، لم تكن عامرية مخطئةً بتاتاً حين اعتقدت أنها تواجه شبحاً. لكن لمَ لا يكون شبح الابن، مسيو جاك، عوض الأب؟ لا مناص من أنه جاء، نزولاً عند رغبة مسيو غرامو، ليطالب بإرثه، كما لو أنّ الابن بوسعه أن يبسط سلطته عليه، بغياب المالك الحقيقيّ).

جدّي، جدّي! أتسمع ما أقوله أم لا؟

وقبضت عامريّة على ركبتي جدّها، ثمّ أخذت تهزّه يمنةً ويسرة.

فأجابها بصوتٍ متبدّل، يكتنفه البعد والتحفظ:

رفقاً يا يمامتي الصغيرة، رفقاً، فأنا لا أفعل إلا الإصغاء إليك.

كانت على وشك أن تسأله عن سرّ أسلوبه الجديد في الكلام، حين كشفت الطريق غير المرصوفة عن فلاحٍ يهمز حماره، وقد تهالك تحت ثقل حمولته. لكن حين وقع بصره عليهما، ظلّ يثبّت نظره عليهما دون توقف، وهو يتابع المسير.

ولم يطل به الأمر حتى تدخّل أخيراً:

هل من خطبٍ يا عمّ دهمان؟

أبداً أيها الغوطي، كلّ شيءٍ على ما يرام. إمضِ بسلام.

حسناً، إن صحّ ذلك...

إنه صحيحٌ فعلاً، اطمئن.

فحثّ الرجل دابّته على المسير، وهو يدوّي في أذنها: شي! شي!

أمّا العجوز، فتمتم في نفسه: عسى أن ينعم كلّ منّا دوماً برعاية الآخر، وعسى الملائكة تحفظنا جميعاً.

وما لبث أن أخذ نفساً طويلاً قبل أن يهتف لحفيدته:

قومي يا عامرية. فلنلق نظرة على الأمر.

في تلك اللحظة، انتصبت عامريّةٌ أخرى عند عتبة البيت الصغير. بدت طلقة المحيّا، كاملة التقاسيم، امرأةً بكلّ معنى الكلمة، كأنّي بها نسخة مطابقة عن الأولى، أو خدعة فيها من الوهم ما يربك العقل. فحدّث ولا حرج عن الوجه البيضاويّ الممتلىء، ونقرة الذقن الأبيّ، والمرجان الأحمر في شفتين امتدّت خطوطهما عند زاويتي ثغرها. وكيف السبيل إلى نسيان العين، نعم العين، حيث يتزاوج سواد الحدقة وبريقها، وحيث يتوارى، خلف قوس الحاجب البارز، شبه ابتسامةٍ تزدان بالتحفظ والخفر. لا ريب في أنّ هذا التفصيل الأخير كان أشدّ ما يدفع بالرائي إلى التخيل أنّ

الأم وابنتها توأمان، أو شقيقتان لا تفصل بينهما إلا بضعة أعوام. وممّا يؤكّد هذا الظنّ سحنة البشرة الذهبية نفسها التي تلوّح الوجه والذراعين والرجلين، أشبه بالخبز الذي نضج حديثاً.

وعلى غرار عامريّة، كانت تنادي العجوز الضرير باسم جدّي أيضاً.

لكن أين تمضيان على هذا النحو يا جدّي؟ علينا تناول الطعام. ألا ترين أن ساعة الغداء قد أزفت يا عامرية؟

حتى الصوت، حتى النبرات حين تتخلّلها سخريةٌ لا إرادية هي نفسها صوت عامرية ونبراتها. صحيحٌ أنّ المقارنة لم تتمّ وفق ترتيبهما الطبيعيّ، لكن شاءت الصدف أن تظهر البنت أوّلاً، ثمّ والدتها.

فأجاب الرجل الذي بلغ من العمر أرذله:

أهذه أنت يا سعدية؟ إننا ذاهبان للتحقق من أمرٍ ما، بالقرب من هنا. لن يُقدّم طعام الغداء قبل عودتنا. إمنحينا بعض الوقت من أجل تنفيذ تلك المهمة. فالمكان يقع بجوار العين تقريباً، ولن تطول عودتنا. هلاّ أتيت يا عامرية؟

وقفت سعديّة عند عتبة البيت وتركت نظرها يسافر خلفهما، قبل أن تهزّ رأسها وتشيح بوجهها. لقد ألفت عامريّة وهي تخرّ عند قدمي جدّها، مما أثار فيها بعض الاستغراب. ترى، أيّ مؤامرةٍ يحيكها هذان الاثنان؟ لا، ما من سببٍ يدعوها إلى القلق، غير أنّ الفضول يحكم عليها الخناق. لكن، لما كان التزام

الصمت واجباً، فقد دفنت أسئلتها في جعبتها، وكتمت عليها الأنفاس. وما عليها إلا أن توطّن نفسها على قليلٍ من الصبر، بانتظار أن تتكشّف الأمور وحدها، كما هي العادة دوماً. وما لبثت أن دخلت البيت، بعد أن رمت حماها وابنتها، المتشابكي الأيدي، بنظرةٍ أخيرة.

كانت عامريّة والرجل المسن قد خلّفا وراءهما المنازل المكعّبة الصغيرة، وقد طُليت بالكلس الأبيض والأزرق بشكلٍ يثير الشفقة، كما تجاوزا عين الماء بأشواطٍ وأشواط. كان ملك غرامون يقع على مسافةٍ أبعد من تلك التي وصفها الجدّ. ومع أنّ عامرية كانت تدرك ذلك، إلا أنّها كرهت انتقاده، فلعلّ المسافات تتّخذ أبعاداً مختلفة في نظر المكفوفين.

في تلك الساعة من ساعات النهار، بلغ الوهج الذي تفيض به السماء أوّجه، فبسطت تلك الأخيرة سيطرتها على المكان برمّته: سواءً على الأراضي وحمرتها الورسيّة، أم على النباتات وخضرتها الحِنّائية. لكأنّ تموّجاً خفيفاً تملّكها، أشبه بالنور والهواء بعد أن فرغا من اغتسالهما.

وصلت عامرية وجدّها إلى الينبوع الذي يستخدم حوضه كمسقاةٍ، ويمتدّ من أوّل الضفة إلى آخرها. في غضون ذلك، كان غبار الدرب الخمريّ يبتلع آثار أقدامهما، وقد اشتدّت سماكته أكثر من أيّ وقتٍ مضى، فيما عصا العجوز تنغرز في التراب بصمتٍ لا يكتنفه صوتٌ.

في غمرة هذا كلّه، بالكاد ألقت عامرية نظرةً على الدلوين اللذين تركتهما قبل قليل، حين استبدّ بها الرعب.

وأفضى بهما الأمر أخيراً إلى تلك الطريق التي تتقاطع والدرب المرسومة. بدت من الاستقامة ما يولّد في النفس دواراً وأيّما دوار، لا تكاد تصل من طرف الأفق، حتى تنطلق إلى طرفه الآخر من جديد. فتوقّفت عامرية من غير أن تأتي حراكاً. في الواقع، لم تكن تكفّ عن التحديق في الجادة المستقيمة الخالية، والقبض على المسنّ عن كثب.

وما لبثت أن جرّته، فذرعا الدرب بخطىً واسعة، إلى أن وقعا على ما يفترض أن يكون امتداداً للدرب المرسومة، فإذا به طريقاً مرصوفةً بالإسفلت، تقود إلى ملك غرامون. فمضى الجدّ على وقع خطواتٍ تحاكي الدقّات الطنانة، القاطعة، التي تسبّبها ضربات الهراوة فوق الأرض الصلبة.

فجأةً، التصقت الفتاة به. فقد بلغاه. بلغا ملك غرامون. لمّا لاح أمامهما السياج الذي يحول دون الدخول، شعر المسنّ بالرعب الذي اجتاح عامرية مجدّداً. فما كان منه إلا أن ربّت على يدها الناعمة الرقيقة، واحتضنها في يده.

ما هي إلا خطواتٌ معدودة، حتى وصلا إلى سياج العفصية الداكن الذي يصل إلى مستوى الأعين، وقد علاه الكرم بصفوفه المستقيمة التي تمتدّ إلى ما لا نهاية، أشبه بعينٍ خضراء تتطلّع إلى أرجاء البلد، وتغرق في نورها الخاصّ.

شدّت عامريّة بدورها على يد الجدّ. فأجابها بتربيتاتٍ صغيرةٍ أخرى، كمن يقول: نعم، نعم، أعرف أنّنا وصلنا إلى ملك غرامون. ولعلّه سعى أيضاً إلى إضفاء مسحةٍ من الأمان عليها.

عند تلك اللحظة، انبعث صوت الجدّ، كما لم تسمعه عامرية قبلاً، كنسمةٍ من الهمسات الرقيقة يقترب بها المرء لمخاطبة طفلٍ، بدون إجفاله.

مسيو جاك... مسيو جاك... هل أنت هنا؟ هذا أنا وحسب، دهمان. أتذكرني؟ بالطبع تذكرني! لو أنك متوارٍ خلف هذا السياج، فاكشف عن نفسك يا بنيّ. أريد أن أسرّ لك بكلام. معي حفيدتي ليس إلا؛ واسمها عامرية. بما أنك سبق أن كشفت عن نفسك أمامها، فاظهر أمامي الآن. مسيو جاك... مسيو جاك...

تريّث المسنّ قليلاً، ثمّ كرّر المحاولة بنبرةٍ رقيقةٍ عطوفة:

مسيو جاك، هذا أنا من يكلّمك، دهمان. تعرفني جيّداً. أليس كذلك؟ ما من أحدٍ غيرنا، أنا وعامرية، الفتاة التي أصبحت كبيرة اليوم. لكن يمكن أن أصفك أنت أيضاً بأنك بنيّ.

وتريّث أكثر. مضت برهةٌ. لكنّ شيئاً لم يحدث، وناحية السياج الآخر لم تبعث بأيّ إجابة. أما عامرية، فقد انتظرت بدورها وهي تفغر فاها، تتنفس تارةً، ثمّ تكتم أنفاسها وتكفّ عن التنفس طوراً، متحيّنةً لحظة تستطيع إطلاق سراح أنفاسها، فيما عيناها تتّسعان وتجحظان، وقد اشتدّ سوادهما.

تابع الجدّ حديثه مع الغائب:

ألا تريد الظهور أمام دهمان يا مسيو جاك؟ لماذا؟ لا تخشَ شيئاً. إن كنت تخشى أن أراك، فإنني قد فقدت بصري منذ زمنٍ سحيقٍ جدّاً! لعلّك لا تعرف ذلك. لكنّ قلبي سيراك، لو أنك تسمعني صوتك. كأنه يراك حينها، بخصلاتك المجنونة ورأسك الدائري. هيّا يا بنيّ، أسمعني صوتك، تلفظ ببعض الكلمات من أجل دهمان المسنّ. فإن كنت مصرّاً على الرفض يا مسيو جاك، اقترب مني قليلاً على الأقل.

كانت النبرة هي نفسها التي يستعملها فردوس الطفولة ليذكّر العالم به. تعلّقت عامرية بذلك الصوت، وهي لا تفعل إلا انتظار مشهدٍ لا يطاق، ستواجهه مجدّداً لا محالة.

أدنُ أكثر وأصغِ إليّ. أصغِ إلى سؤالي: لمَ عدتَ؟ ما الذي يجري؟ أهلك رحلوا جميعاً، لم يبقَ واحدٌ منهم، ولا شكّ في أنك تعرف هذا. أليس كذلك؟ ما الذي دفعك إلى العودة؟ ألأنّ النسيان لم يحرّرك رغم السنين التي مضت؟ لكنّ هذا لن يفيدك يا بنيّ. عليك العودة أدراجك. فلم يعد لديك أحدٌ هنا. باستثناء خادمك، دهمان المسنّ، لكن حتى أنا لم يبق لي من العمر إلا لماماً. فمن يرعاك بعد ذلك؟ من عساه يتعرّفك، ويعتبرك ابن هذا البلد؟ فأنت ابن البلد فعلاً. حسنٌ ستجيبني أنك ما زلت تملك هنا أشجارك وكرمك وبيتك وأرضك وسماءك. لكن ليس من إنسانٍ إلى جانبك. ألم تلاحظ كيف خافت صغيرتي عامرية من مجرّد رؤيتك؟ وستخيف البقية أيضاً، لن تكون في نظرهم إلا

شبحاً! ليس الأمر سيّان بالنسبة إليّ، لكنّني سأمضي بدوري، فقد عشت من العمر ما يفترض أن أعيشه. كلّنا أرواح ولّهها الأسى يا مسيو جاك، وما من منفى أسوأ من منفى الروح. إذهب يا بنيّ، ولا تأسف على شيء. إذهب واسعد مع عشيرتك. أمّا أنا، فسأتحسّر على رحيلك، وحتى لو أنّ عينيّ المطفأتين منعتاني من رؤيتك، فستمتّعانني دوماً بمنظر الطفل الجميل الذي كنته يوماً. إمضِ يا بنيّ، إمضِ يا مسيو جاك، أتوسّل إليك.

صبر العجوز قليلاً، ثمّ... ساد الصمت في كلّ ما حجبته عيناه عنه: في حواشي العفصية، والكرم الذي يعلوها، وينتشر صفوفاً مموّجة، ضائعاً في متاهاتٍ بعيدة، حيث تسلّم أشجار الزيتون شعرها الفضيّ الكث إلى لفحات الهواء، وتمتدّ بانتظامٍ تحت أشعة الشمس المتوهجة.

كانا ما زالا واقفين هنا، هو وحفيدته، حين انبثق من خلف السياج، بغتةً، هرٌّ منتفش الوبر، بارز الأنياب، فانقضّ إلى الأمام وهو يكشف عن مخالبه كلّها، ويبصق من لعابه ما يبصق. فإذا بالرجل المسنّ يهزّ هراوته أمامه، بحركةٍ غريزية، فيما أطلقت عامرية صرخةً مدوّية. لكن، قبل أن تمرّ فكرة الاحتماء في بالهما، تلاشى الهرّ لا بل تلاشى طيفه أيضاً! اضمحلّ في العدم، بعد أن خلّف في الهواء شحنةً كهربائية استنفدته استنفاداً.

تدفق سيل الدم في وجه عامريّة حتى خيّل إليها أنّ الريف

بأكمله يخفق في عينيها. أما جدّها، فرأته ماكثاً مكانه، مسمَّراً مثلها، وقد بدا أنّ أفكاراً غريبة تنهال على ذهنه.

وضع هذا الأخير يده على كتفها. كانت مجرّد تربيتةٍ خفيفة قامت بها اليد نفسها. ففهمت. لم يعد في وسعهما أن يحدثا تغييراً مهمّاً. يجب أن يعودا على أعقابهما.

فسلكا طريق الإياب، يلفّهما ستارٌ سميك من الصمت.

قد تؤول بهما الدرب إلى البيت، لكنّها تحمل الرجل المسنّ أيضاً إلى سنين خلت. ألفى نفسه وسط ملك غرامون ثانيةً، حين كانت عجلة الحياة والعمل تدور بنشاط. رأى نفسه يسير، ويتنقّل من مهمّةٍ إلى أخرى، وقد استعاد بصره. ورأى الصبيّ بخصلاته الشقراء اللولبية يتدافع عند قدميه، لأنّ الرغبة في أن تحمله ذراعا دهمان قد ساورته مجدّداً.

إلتقطت عامرية دلويها في طريق العودة، وملأتهما من مياه العين.

وسرعان ما لحقت بالرجل المسنّ الذي كان ينتظرها، وهو مستغرقٌ في التفكير. فانطلقا، ودلوٌ يتدلّى من كلّ ذراعٍ من ذراعيها، تمشي بخطىً متوانية، وهي تحرص على عدم هدر قطرة ماءٍ واحدة، فيما هو يتلمّس طريقه بعصاه. ولفّهما نورٌ كثيف، وبالكاد وملموسٌ، ومجبولٌ بالذهب.

كانت سعدية تنتظرهما، وقد وضعت الطعام على المائدة منذ آونةٍ قصيرة.

مات طُليل

رنّ جرس الشقة. ترى، من يكون الطارق؟ فأنا لا أتوقّع أيّ زيارةٍ اليوم. أَوَ يكون ساعي البريد؟ مستحيل، فهو لا يمرّ بي إلا صباحاً، والساعة الآن قد ناهزت الثانية من بعد الظهر. ما كان منّي إلا أن تركت عملي، ومضيت أفتح الباب. من يدري؟ لعلّ الطارق مجرَّد غريب، لا سيّما أنّه أقدم على قرع الجرس بهذه الطريقة. فالمقرّبون منّي يدركون أنّني أبداً لا أقفل الباب، وأنّ حسبهم أن يديروا مقبضه ويدخلون؛ أمّا إن اختاروا قرع الجرس قبلاً، فتلك طريقتهم في الإعلان عن سلامهم سلفاً.

لمّا فتحت الباب، ألفيت نفسي إزاء امرأةٍ في ريعان الشباب. وكشف لي نور النهار المتسلّل من الشرفة عن وجهٍ أشقر الشعر، يكاد يكون دائرياً لو أنّ عناق الفكّين لم يرسم له ذقناً يماثل الخزامى شكلاً. في مطلق الأحوال، لم ترجّع لي تلك الصورة أيّ ذكرى. أمّا هي، فبدت كمن يتوقّع منّي صحوةً مفاجئة، وكلّ تعابيرها وتصرّفاتها وغيرها من الحركات التي أجهلها تناشد ذاكرتي. لكنّ تلك الصحوة لم تتملّك أيّ ذكرى من ذكرياتي قطّ،

ووجدت نفسي غير ميّالٍ إلى حلّ لعبة الأحاجي، في خضمّ العمل الذي كنت غارقاً فيه.

وما برحت هذه المرأة تمكث إزائي، رابطة الجأش، رصينة الإمارات، مدّثرةً بثوبٍ بسيطٍ يتألّف من سترةٍ، وتنّورةٍ لوّحت حزامها ظلالٌ من اللون الأزرق. هل ستعلن عن الهدف من زيارتها هذه قريباً؟

وعرّفت عن نفسها أخيراً:

- أنا آييل.

ما إن سمعت هذا الاسم حتى أخذ قلبي ينتفض في صدري. فتمتمت بصوتٍ خافت:

- آييل؟

- نعم. أيمكنني الدخول؟

- نعم، نعم، طبعاً، عذراً. تفضّلي، تفضّلي أرجوك.

أفسحت لها المجال. وبعد أن تجاوزنا الرواق، أدخلتها غرفة الجلوس حيث كانت أشعة الشمس تتدفقّ بغزارة. فتوجّهت آييل بخطىً حازمة نحو مقعدٍ، وقد اختارت أن تدير ظهرها للشبّاك. ثمّ جلست بتصميمٍ غريب، عرفتُ منذ النظرة الأولى أنّها لن تتنازل عنه بسهولةٍ، وقد خلعت على وجهها ظلاً، وقف حاجزاً بينها وبين الأشياء، بينها وبيني.

سألتها قبل أن أجلس بدوري:

ـ أتشربين شيئاً؟

فأجابتني من دون تردّد:

ـ بكلّ سرور، إن كان الشراب شاياً.

عندئذٍ، صعقتني النبرة الخفيفة التي تفضح الفتاة الغريبة. وما لبثت أن تركتها لبعض الوقت، بانتظار إعداد الشاي.

أخذت نظراتها تلاحق حركاتي، وأنا أعود لأضع أمامها الفنجان الكبير الذي كنت أحمله بين يديّ، ثمّ أجلس قبالتها على مقعدٍ منجّد.

عند تلك اللحظة، اكتفت بالقول:

ـ وأنت؟ ألن تشرب شيئاً؟

يا لهذه النبرة! لم أعد بحاجةٍ إلى من يذكّرني بما توحي لي به.

ـ لا أستطيع، فقد فرغت من ارتشاف قهوتي للتوّ.

ما إن تلفَّظت بتلك الكلمات التافهة، حتى أردفت:

ـ مات طُليل.

طليل؟ يا ربّ السموات!

وحدّدت بدقّةٍ:

ـ لقد انتحر.

عند ذاك، اجتاحني دفقٌ من الذكريات، أشبه بسيولٍ من الماء يفجّرها بحرٌ هائج؛ وأفاقت صورة طليل في ذهني من كبوتها،

وانبثقت معها من الأعماق الغامضة حكايةٌ قديمة، أبطالها عيد، ودودريك، ورروكا، وساسكور، و... آييل. آييل نفسها التي تجلس بجواري، وتتابع:

ـ لا بدّ من أنّ ذاكرتك قد انتعشت: كنت قد رويتَ أنّه حاول الانتحار، عند الفجر الذي بزغ إثر السهرة في الجزيرة، غير أنّه أخفق. لكنّ النجاح كان حليفه مؤخّراً. لقد انتحر بالفعل.

كانت تقصّ هذه المأساة بصوتٍ متجرّد، كمرسالٍ لا تعنيه الرسالة التي كُلّف بإبلاغها. تلقّيت صوتها صفعةً مكدّرة. أمّا هي، فمنذ بدأت بسرد هذه الوقائع، تحوّلت أنظارها عنّي، لتصطدم بجدارٍ غامض، لا يحدّق فيه غيرها. فسارعت إلى تأمّل تلك العينين وتحديدهما في نطاقهما المناسب: كانتا خضراوين، مرصّعتين بماساتٍ ضئيلة، تبعث فيهما بريقاً، حتى حين تخمد الشعلة في حدقتيهما. لكأنّني أتأمّل مياهاً جارية، كما كان عيد ـ أو إد ـ يتأمّلها.

وتملّكني زلزالٌ داخليّ، فما نجحت بالحفاظ على رباطة جأشي إلا بفعل الفراغ الذي افترسني، وأحالني فاتر الهمّة، خدر الحركات. لا، لم يكن ذلك بفضل قوّة إرادتي قط. وإذا بي أرى طليل من جديد منتصباً، عملاقاً، لكن من غير أن يتميّز بتلك القامة المشيقة التي يحتكرها أصحاب البنية الطويلة عادةً. رأيته لا يزال لابساً سروالاً ذا حمّالتين، وكرشه يمتدّ إلى الأمام، إنما من غير أن ينتأ بشكلٍ فاضح، بل يستدير عند اللغد، لينتهي برقّةٍ عند

الفخذين. لكن لا يكاد المرء يبصر استدارة البطن المضحكة هذه، حتى يسلوها بتأثير الابتسامة في عينيه الصغيرتين النابضتين بالحياة. كانت مثال الابتسامة الطيبة، الحافلة حناناً وتفهماً، ارتسمت فوق ثغر إنسانٍ لا يتردّد في التعبير عن تفانيه وتضحيته، مقابل إسعاد من حوله. ورغم أنّ الحيوان يتفوّق على الإنسان في هذه المسألة، لكنّه لا يرتقي إلى مستوى طليل في الإخلاص والمحبّة.

منذ لقائي الأوّل بطليل، جمعنا ودٌّ وانسجامٌ كبيران. لهذا، لا يقلّ حجم دهشتي وفزعي، نظراً إلى أنّني تنبّأت بموته. صحيحٌ أنّه يحقّ لي التأكيد على أنّني لم أفعل إلا سرد حكايةٍ، لكنّ النجاة بهذه السهولة ضربٌ من المستحيل. وكلّما سافرت أفكاري نحوه وإلى المصير القاتل الذي جرّ نفسه إليه، كلّما عجزت عن مسامحته. فسيمسي هذا الرجل دوماً الإنسان الذي دللت القدر عليه، وهو لمّا يزل في شرخ شبابه.

هنا، تدخّلت آييل كما لو أنّها قرأت أفكاري، أو قل كما لو أنّ هذه الأفكار ساورتها بنفسها:

ـ فرغتَ من تلاوة قصّةٍ، وسرد أحداثٍ، ثمّ أغلقت كتابك، وقد انتهت الحكاية بالنسبة إليك، توقّفت هنا. طويتَ الصفحة وأنت لا تبالي بمصير أولئك الذين عايشتَ معهم هذه القصّة، هم الذين ما زالوا يخوضون عباب البحر، يصارع زورقهم المدّ والرياح، بعيداً عنك، من دونك، على غرار طليل الذي ما لبث أن ألقى بنفسه بين ذراعي الموت. ستقول لي إنّك دفعته إلى هذا

المصير على غير علمٍ منك. قد يكون هذا محتملاً، لكن سواءً دفعته بقصدٍ أم بغير قصدٍ، فإنّ النتيجة واحدة.

كانت آبيل توجّه ضدّي تهمةً إجرامية، وهي تجهل أنّني أوافقها الرأي، مدركاً أنّ الاتّهام مبرّرٌ، وأن لا حول لي ولا قوّة في الدفاع عن نفسي.

التفتّ نحوها، فالتقت منّا الطوارف من جديد، غير أنّ نظراتها بدت بعيدةً، وكأنّها تجول فلا تهتدي وترمي فلا تصيب، مولّدةً فيّ ذلك الإحساس نفسه الذي لطالما زرعته آبيل في نفسي. وهنا، سألتها:

ـ هلاّ أعطيتني بعض التّفاصيل عن ظروف موته؟

لا جواب.

وبعد دقيقة تقريباً، أجابت ببرودةٍ عصيّةٍ على الانفعال:

ـ أتعتقد أنّ من يقرّر الانتحار يقوم بإرسال الدعوات؟

أصغيت إليها وأنا أكتم أنفاس الكلمات في صدري. لم أطرح عليها أيّ سؤالٍ إضافيّ. لقد صرّحت بما كان رابضاً في قلبها، كأنّه واجبٌ أرادت أن تؤدّيه كاملاً. لكن في خضمّ الصمت الذي خيّم علينا، عجّ المكان بصوت طليل، وعيد، وجلبة أصواتٍ أخرى أيضاً.

في ذلك الحين، كانت آبيل قد وقفت، وتأهبت للاستئذان بالانصراف.

بقيت وحدي، وأنا أجترُّ في ذهني أفكاراً، تآمرت كلّها على أن تعود بي، بأيّ مواربةٍ كانت، إلى مسألة اختفاء طليل. نشهد في الحياة أناساً تُزهق أرواحهم، فلا يعترينا أيّ شعورٍ بالذنب. فلمَ يلقي موت طليل بكلّ هذا الثقل على كاهلي؟ ألم أكنْ له ما يكفي من الودّ؟ أوكان ليجنّب نفسه هذا الانتحار العنيف، لو أنّني أحببته أكثر؟ في ما يتعلّق بمقدار الحبّ الذي يستطيع أن يمنحه كلٌّ منّا، فقد أحببته كثيراً. صحيحٌ أنّ الحب لا يقدّر، لكن لا شكّ في أنّه كان يطلبه بإفراطٍ يتجاوز قدرة العطاء، حتى أرداه طلب الحبّ.

لكن في ما يتعلّق بعيد، فضّلت آييل التزام الصمت. بدا صمتاً غريباً يصعب شرحه. فلم تخضّب شفتيها باسم عيد، ولو لمرّة. أيعقل أنّها لا تملك خبراً عنه تنقله إليّ؟ فمن الواضح أنّها لم تكلّف نفسها عناء الحديث عنه.

مضت على زيارة آييل أيّامٌ ثمانية أو ربّما عشرة. ومنذ ذلك الحين، لم تمرّ لحظةٌ من غير أن أفكّر في قدومها، وفي الخبر المؤسف الذي نقلته إليّ بنفسها، وقد استدعت أهميّته أن تسافر إليّ شخصياً. لم يمرّ يومٌ لم أرها فيه جالسةً، وقد أدارت ظهرها إلى النافذة كما فعلت، فبرزت تمثالاً من الظل، يؤكّد على حضورها أمامي، لا سيّما حين تبرق عيناها بوميضٍ عابر، فتنطقان بتعبيرٍ أبلغ من أيّ كلمة، ومن أيّ صمتٍ.

وها إنّني أفضّ بريد هذا الصباح، فأجد منها رسالةً. لم أكن

أتأمّل منها شيئاً كهذا، بل لم يساورني أيّ أملٍ من ناحيتها قط. وليقطع رأسي إن قلت إنّ الانفعال قد كفّ عن تملّكي حتى الساعة!

أنبأني حدسٌ أكيد أنَ آييل قد كتبت، في ما كتبت، الأسطر التالية:

«... لا شكّ في أنّك استغربتَ تكتّمي بخصوص إد. لم تفهم تصرّفي حيال ذلك بالتأكيد، وسألت نفسك: لماذا؟ يسهل عليّ أن أجيبك: لأنني لم أزرك رغبةً في الحديث عنه. ما زال في البيت، وحاله على أفضل ما يمكن أن تكون. لا يخرج كثيراً، لكنّه ينزل بنفسه إلى الحديقة، حين يسمح له الوقت بذلك. ويخطر له أحياناً أن يطيل المكوث هناك.

بطبيعة الحال، أعلمته بموت طليل. فسألني بقلقٍ:

ـ هل أعرفه؟

ماذا كنت لأجيبه؟ وفي نهاية الأمر، قلت:

ـ لا.

لا يمكنني أن أجزم أنّ إنكاري شفى غليله. فقد تطرّق إلى الموضوع، غير مرّةٍ خلال النهار، وهو يتوسّل إليّ أن أحدّثه عن طليل هذا.

لكنّه لا يمضي وقته عاطلاً، لا يقوم بعمل. بل يكتب ملاحظاتٍ بلا هوادة، فيها من الغزارة ما يغطّي صفحاتٍ وصفحاتٍ، ثمّ يجمعها، شهراً تلو شهرٍ، في ما يشبه التقرير، يدسّه في ظرفٍ، ويسلّمني إياه كي أودعه في البريد.

لا تتغيّر هويّة المرسل إليهم قط: فهم أصحاب مكاتب وزارية، في بلدةٍ بعيدة، هناك، اسمها أورسول.

ثمّ ينقضي أسبوعٌ، وربّما أكثر، فأرى الهدوء الذي يرتسم على وجهه، عادةً، يستحيل ترقّباً ممزوجاً بالاضطراب. فيفقد الاهتمام بما يفعله، وقد اجتاحه هيجانٌ محموم، ويروح يدور ويدور حول نفسه، إلى أن يقرّ بعجزه أخيراً، ويسألني ببرودةٍ متصنّعة عن موعد توزيع البريد، وعن أيّ رسالةٍ أودعها ساعي البريد في العلبة. فاضطر إلى إجابته:

ـ نعم، في العلبة رسائل، لكنّها مجرّد إعلاناتٍ تافهة.

فيسودّ وجهه لبرهةٍ، أو يحدجني بنظرةٍ متسائلةٍ تقبض صدري ألماً، قبل أن تتغيّر تقاسيمه فجأةً. فيستعيد ملامح بعيدةً، لا سبيل إلى سبر أغوارها. لكأنّه يعود إلى مكانٍ هرب منه لهنيهةٍ، إلى عالمٍ وحده يملك مفتاحه.

ولا يمضي وقتٌ طويل حتى يكبّ على ملاحظاته من جديد، من غير أن يتفوّه بكلمة، هو الذي بالكاد يتكلّم مهما يكن من أمرٍ.

أقرّ أنّ الفضول غلبني، فألقيت نظرةً على مدوّناته في نهاية الأمر. ومنذ ذلك الحين، آلت رسائله كلّها إلى درج مكتبي، حيث رقدت بعنايةٍ، وقد أضحت في نظري أغلى مما سيعتبرها يوماً. كان كنزاً قريب المتناول، لا يمكن أن أتنازل عنه مهما كان الثمن.

أرسل إليك بعضاً من هذه الأوراق لتحكم بنفسك؛ هي مجرّد نسخٍ، فلا تطلب منّي أكثر، فإنني لا أبعثها إلا من أجل إد، ومن بابِ المجاملة لك.

كلّما مرّ الزمن، كلّما زاد حبّي لإد. لا أستطيع أن أتصوّر حياتي من دونه...».

وبالفعل، أرفقت آييل برسالتها أوراقاً، أقتطع منها بعض الفقرات، وأوردها هاهنا:

أتكلّم الآن عن إحدى هذه البحيرات. فسماءٌ رحبة ترتعش فوق سطحها، وفوق ملعبها الذي يعجّ بتلالٍ تكسوها خضرةٌ غزيرة، رغم أنّ الصيف يشرف على نهايته ـ حذار، سيقبل الشتاء قريباً! ـ . تأملوها، ثمّ تأملوا هذه المياه السوية: ولن يكون ارتعاشكم أقلّ انفعالاً.

وتغرق البحيرة في هدوئها الصامت، فتتأملكم بدورها، عيناً عالمةً بكلّ شيء، تجحظ حتى تخترق كلّ ستارٍ. تمتدّ هذه النظرة، لتبسط نفوذها على أدنى خطوةٍ تتهيّأون بها للسعادة القادمة، فتؤمنون بهذه المياه التي تردّكم إلى أيام قديمةٍ خلت، بقدر ما تصحبكم إلى غدٍ سبق أن وصل. أنتم... أنتم الأمل الذي تسعى إلى القبض عليه.

إعترفوا بها فتعترف بكم.

تبدو لي حياتي فائضةً بالنور، لكأنها ضاعت واسترجعتها من جديد.

أحدهم يعدّ أيامه: لكنّ هذا لا يلحق أيّ ضررٍ بالرؤيا. أحدهم يردّد ذلك على نفسه، يغرق في حوارٍ روحيّ والماء، يغوص في عذوبتها. لقد اختار العالم الأكمد شفافيته ليكشف عن نفسه أمامنا، نحن الذين بقينا ظلاً له، نعكس صورته ونقلق سكينته. يشهد وجه البحيرة على حقيقةٍ نجهلها، فيما أنظارنا تبحث بتوقٍ إلى الماضي. لو أنّ الكون يهتمّ بكلّ ما حوله، على قدرٍ من المساواة، فلا شيء يساوي غيره في نظرنا. أين مكاننا، وإلى أيّ جانب نصطفّ؟ يجيب الماء عن هذا السؤال، ثمّ يعيد الكرّة وفي جعبته أجوبة جديدة. يخبرنا عمّا نمثّله، وعمّا يمثّله هو، في اندفاعٍ تقهقهر، ومجرى يتحوّل، رغبةً في أن يعكس هو صورتنا وأن يتجسّد فيها. أن يكون من غير أن يكوننا.

المداعبة المحبّبة لمسةٌ يصعب الإقدام عليها والتخلص منها. المداعبة المحبّبة فعل مؤالفةٍ جديدة ونهايةٍ وشيكة. فينتفض كلّ ما قبع طيّ الأعماق، ليطفو على السطح ويتوارى.

هو التساؤل: كيف آل بي الأمر إلى هنا... هي ظروف إبحارنا في ميناء البهجة... هي الصدفة التي أرادت للأشياء أن تنحو هذا المنحى... لا؛ ليست مجرّد صدفة إن كنت مدعوّاً، فخلّفني مضيفي على البرّ، عوض أن يقلّني بسفينته، وإن كان غيره قد قام بما عجز عن القيام هو به، وإن كانت مدعوّةً مجهولةً، قد تُركت عند الميناء، مثلي، وفي الوقت نفسه. لا؛ ليست مجرّد صدفةٍ إن أقلّنا، أنا وهي، ملاّحٌ أرسلته العناية السماوية، في سفينة

شراعية، لينقلنا إلى جزيرته. بل إنها يد الماء، تمسك بيدكم، وتقودكم عساكم تهتدون إلى طريقكم.

غير أنّ البقيّة يمحو النسيان صورتها. تطيب النفس عنها وهي تسير في طريقها.

في ضوء غابةٍ خافت، في متاهاتها وخفاياها المستورة؛ في غموض الجذوع، وغموض حشدها ووحشيتها الذي ينقشع بينها تدريجيًا؛ في قبّتها المدوّية، المخرّمة التي تسحر بها السماء؛ في معبدٍ مهجور لديانةٍ منسيّة، يستعدّ ليولد من جديد عند أدنى ابتهال؛ في طيّات هذا كلّه، تكمن حياةٌ ونشاطٌ لا ينضب نبعهما، ولا يتجسّد كنههما. على المرء أن يتوغل حينذاك بإرشاد دليلٍ وكفيل. أستعيد ذكرى مكانٍ مشابه، أو بالأحرى هي الذكرى فيّ التي تتذكّر. فتنسدل ستائر الأوراق، ويكشف الضوء عن أشواكه، وتحتجز ملايينُ من الأصوات، فيما يرتفع الصمت فجأةً، صادحًا بصوتٍ واحد. هذا نداؤه. أسمعه فأتذكّر. إنها لذاكرةٌ جبّارة لكن لا طابع لها ولا شخصيّة.

باكيتا أو النظرة المفتونة

ـ سنيورة أمّي، سنيورة أمّي.

ـ نعم، عزيزتي... ما الأمر؟...

ـ أتصغين إليّ سنيورة أمّي؟

ـ نعم يا باكيتا. ماذا تريدين الآن؟ لكن لِمَ لا تنادينني ماما، كما كنت تفعلين قبلاً؟

ـ قبلاً؟...

ـ قبلاً! نعم، قبلاً!

ـ لست... لست أدري.

ـ حسنٌ، تكلّمي. ماذا كنت تريدين القول؟

ـ ماذا كنت أريد القول؟ أنا...

ـ ولكن ماذا؟

ـ لم أعد أعرف.

ـ حسنٌ. هذا يعني أنّ الأمر لم يكن مهمّاً إلى هذا الحدّ.

وأطلقت الأمّ ضحكةً عريضةً، صامتةً، كضحكات أنصاف

الهنود، وقد عبر وجهها من صدغٍ إلى آخر، شقّان احتلاّ مكان العين.

وما لبثت أن عادت تصبّ اهتمامها كلّه على النار التي أخذت تحرّك جمراتها.

ومكثت باكيتا على حالها: واقفةً لا تأتي حراكاً، في زاويتها، حيث خلع المكان عليها وشاحه الأشدَّ سواداً.

بدت هذه الحجرة أشبه بقعر قبوٍ، لا يتسلّل إليه النهار إلا من خلال الباب. لكنّها تبقى في النهاية لهم بيتاً، شأنه شأن بقية البيوت.

أخذت باكيتا تنتظر أن تستعيد ذكرى ما أرادت أن تخبره لأمّها، أن يطرق الخبر باب ذاكرتها ثانيةً؛ أو لعلّها كانت تنتظر حدوث شيءٍ ما.

في نهاية المطاف، قرّرت أن تقلع عن الانتظار، ثمّ راحت تدندن بصوتٍ خافت زاده التفكير، أو ربّما الشرود، رقّةً، وقلّما همّها أن تكون غارقةً في ما يشبه الظلام الدامس أم لا:

راقبا كل شيء

وقولا لي من هناك

ماذا تريان

يا عينيّ السوداوين

راقبا كل شيء...

ـ سنيورة أمّي، سنيورة أمّي، عرفت ما أردت قوله الآن، تذكّرته!

ـ ولكن ما الذي دهاك كي تصرخي هكذا؟ ثمّ ما هذا الذي تذكّرته؟

ـ للفتيات الصغيرات الأميركيات، هناك، في الشمال، عيونٌ زرقاء. ألا يملكن كلهنّ عيوناً زرقاء؟

ـ أعتقد ذلك، وماذا لو صحّ ذلك؟

ـ وتلك التي اشترى أهلها من أجلها عينيّ، أكانت تملك عينين زرقاوين؟

واصلت الأمّ نفخها في النيران. لكنّها لم تلتفت هذه المرّة ناحية باكيتا.

ولمّا لمست الصغيرة منها تهرّباً، أصرّت على سؤالها:

ـ عيناي... ليضعاها مكان عينيها؟

لم تستطع المرأة، هذه المرّة، إلا أن ترمي الفتاة بنظرةٍ خاطفة. لم تكن متأكّدة من أنّ ابنتها لا تراقبها فعلاً، من قلب الظل الذي يواريها، وهي قابعةٌ تترصّد جواباً.

فسعلت فجأةً وكأنّها ابتلعت جرعة دخانٍ، أو ربّما أكثر، وهي تقول: «وما أدراني أنا يا باكيتا؟»، ثمّ سعلت بشدّة قبل أن تضيف: «لا أعرف شيئاً! ثمّ ماذا يفيد أن نتطرّق إلى الموضوع الآن؟!»

بعد ذلك، أخذت تعطس وتسعل في آنٍ، فيما كانت باكيتا تتابع استنتاجاتها:

- إنّني أتساءل وحسب عن حالها بعينين سوداوين، هي التي لطالما تحلّت بعينين زرقاوين. أتساءل عن شعرها الأشقر كالشمس الذي لا تنسجم خصلاته إلا مع عيونٍ زرقاء. أتدرين أنت ما حالها، سنيورة أمّي؟

- آخ، آخ، باكيتا! أشعر بالألم! أيتها العذراء الفائقة القداسة، أنجديني. أرجوك يا سيّدة الغوادلوب! آخ يا باكيتا، كم أشعر بالألم!

وقعت الأمَ على الأرض، وقد كانت متربّعةً قبلاً. ومع أنّها لم تسقط من علٍ، إلا أنّها أخذت تطلق صرخاتٍ وهي تؤرجح رأسها يمنةً ويسرة. عندئذٍ، ارتفع صوت ضفيرتيها وهما تخبطان صدرها، بعد أن كانتا ملقيتين وراء ظهرها. ثمّ تلت الصرخات نوبةٌ جديدة من السعال، وشرعت أسنسيون تحوزق، كما لو أنّ الهواء بدأ ينفد من حولها، بل كما لو أنّ النهاية باتت وشيكة، وأمسى التنفس عمليّةً عسيرة، لا جدوى منها.

- سنيورة أمّي، سنيورة أمي، ما بك؟ أتسمعينني؟ سنيورة أمي...

بعد أن فرغت باكيتا من صرختها، مكثت في زاويتها، ترهف السمع وتنتظر.

ما تناهى إلى مسامعها كان مجموعةً من اللعنات أطلقتها

والدتها، قبل أن تتبعها ببقايا أنّاتٍ ونحيب. فنسجت باكيتا في خيالها صورة امرأةٍ جالسةٍ، تتخبَّط بالأرض، وقد تركت فرجةً واسعة بين رجليها؛ وتصوّرتها تشهق بالبكاء، ملتوية الفم، جامدة العين، لا تريق مقلتاها دمعاً، لأنّ الدمع جفّ في مآقيها منذ زمنٍ بعيد؛ وتصوّرتها في النهاية تضرب رأسها بالأرض، فترجّع إليها أصواتاً مخنوقة.

فما كان من باكيتا إلا أن توسّلت إليها، من دون أن تدنو:

ـ لا، سنيورة أمّي! لا!

لكنّ أسنسيون لم تكن تصغي إليها. بعد قليل، استحالت جلبتها شكاوى رتيبة، لا سبيل إلى تهدئتها، أو إخمادها.

ترنّحت الفتاة، وهي تتنقّل من رجلٍ إلى أخرى، في حركاتٍ راقصة ولحنٍ شادٍ.

عينا الليل يا عيناي
يا من حللتما هناك
محل عينين كاللازورد
أمعنا النظر، تأمّلا
منظراً تلو الآخر
ورجّعا إليّ من البعيد
حكاية بصيرتكما،
رجّعاها إليّ من البعيد،

يا عينيّ السوداوين

عيناي الضاحكتان،

عيناي الباكيتان

بثوبكما المتفحّم هناك:

أنا هنا لأضحك

أنا هنا لأبكي

ليس لي إلا فمي

لكن اضحكا، ابكيا

هناك في سوادكما.

اضحكا وابكيا...

ـ سنيور أبي! سنيور أبي! أتسمعني أم لا؟

ـ أسمعك يا يمامتي الصغيرة. تكلّمي.

ـ كانت الفتاة الأميركية الصغيرة القابعة في بلدها، شمالاً هناك، تملك عينين زرقاوين، أليس كذلك يا سنيور أبي؟ وهي الآن تملك عينيّ وهما سوداوان، أليس كذلك؟

ـ نعم، يا يمامتي الصغيرة.

ـ هل أنت متأكّد؟

ـ نعم، يا يمامتي الصغيرة.

ـ ألم تصبحا زرقاوين؟

ـ لا، يا يمامتي الصغيرة، لا أعتقد ذلك.

كان ميغال جالساً أمام بيته، إزاء فناء القرية، وهو منهمكٌ في جدل حبلٍ.

توقّف عن عمله. لم يعد يسحق مشاقة نبات القنّب، بل كفّ عن جدلها تماماً. كان قد فتل حبلاً طويلاً، امتدّ بين أنامله وأصابع رجليه، ثمّ تجمّد مكانه، وهو يرهف السمع. فباكيتا تتكلّم من وراء ظهره، وهو لا يأتي حراكاً، بل يسكت ويرهف السمع. كان نسيم الصباح ما زال يلفحهما ببرودته العذبة، فيما الجبل يقف حاجزاً دون ظهور الشمس، حجارة لم ترفع برقعها بعد، على ما يبدو.

كرّر ميغال بصوته البطيء:

- لا، يا يمامتي الصغيرة، لا أعتقد ذلك.

- وماذا لو أنّهما استحالتا زرقاوين يوماً ما؟ يوماً ما، ربّما...

- لا تفكّري في هذا يا يمامتي الصغيرة. لا تعاودي التفكير فيه أبداً.

- لكنّني أودّ أن أعرف.

- لا تعاودي التفكير فيه أبداً يا باكيتا.

- لعلّهما تنبئاني بنفسيهما يوماً ما، من هناك، من ذلك المكان البعيد في الشمال.

- اسكتي يا يمامتي الصغيرة، اسكتي.

- لكن لماذا يا سنيور أبي؟ لا بدّ من أنك تعرف، أنت، إن كانتا ستخبرانني أم لا.

فهتف ميغال محتجّاً: «باكيتا!»

غير أنّه ما لبث أن تمتم، كأنّه يتلو دعاءً:

- إشفقي علينا أيتها العذراء، اشفقي علينا.

ثمّ التفت الرجل بوجهه الأشبه بمزهريّةٍ أثرية من بلاد الأنديز، مجبولةٍ بالآجر المشويّ، تعلو كلاًّ من وجنتيه هالةٌ صغيرة زهرية اللون. وأحاط طفلته بنظرةٍ جامدةٍ طويلةٍ، يكتنفها الصمت. ستّ سنواتٍ خلت. على الأقل، هذا ما يعتقده، لا يستطيع الجزم. ستّ سنواتٍ، وهو يفكّر فيما اقترفه بحقّها، وفي ما جنوه عليها، كلّهم، وفي الأثر الذي سينحفر في جوانب قلبها طالما هي على قيد الحياة. في جعبتها الآن من المعرفة ما يفوق سنّها، يفوقه بأشواط. نعم، هذا هو اعتقاده.

بعد أن نظر بتمعّنٍ في أعماق عينيها الجوفاء، قال لها:

- سترّدّ لك السيّدة العذراء الفائقة القداسة عينيك في الجنّة.

- أو تكونان زرقاوين هناك يا سنيور أبي؟

بدا أنّ الرجل يبحث عن كلمةٍ يردّ عليها بها، لكن عبثاً. فتردّد لبرهةٍ، ثمّ أجاب:

- بالطبع يا يمامتي الصغيرة.

كنّ جميعاً يلعبن، وسط الغبار، بلعبة رمي الكعب: خوانيتا وإينيس وبالوما وإميليا. فيقفزن في هرجٍ ومرجٍ، ضاحكاتٍ، هازجات.

ترى إحداهنّ تتّهم الأخرى بالغش، فيستشطن غيظاً ويتشاجرن. لكن سرعان ما تظهر أواصر الصداقة فجأةً، فيثرثرن من جديد. لكأنّهن زيزان تثور في قيظ الظهيرة.

كانت باكيتا تقف بجوارهنّ، على حدةٍ. وكانت هي تتعرّف إلى كل واحدة منهن من صوتها، حتى ولو خطر للفتيات أن يتحدّينها، فيصرخن معاً بنشازٍ يخلن أنهنّ يحسنّ التظاهر به. فلا تجد هي أيّ صعوبةٍ تُذْكَرُ في تحديد قائلة هذا، والمصرّحة بذاك.

عند تلك اللحظة، سألتها إينيس بنبرةٍ منتهرة، كطير العقعق الثرثار حين يقرّر مخاصمتك:

ـ ألا تريدين اللعب معنا يا باكيتا؟ تعالي، عوض أن تبقي وحدك هكذا!

ـ لا أستطيع.

ـ ولكن لماذا؟ فأنت تجيدين هذه اللعبة مثلنا.

لم تكن إينيس من تكلّم هذه المرّة، بل خوانيتا. غير أنّ باكيتا أجابت من جديد:

ـ لا أستطيع.

فتابعت خوانيتا:

ـ أغاضبةٌ أنت أم ماذا؟

ثمّ أردفت بنبرةٍ ملحّة:

ـ باكيتا، إلعبي بوكيتو واحداً، دوراً واحداً يا باكيتا.

إبان حديث الفتيات هذا، كنّ قد تركن مجموعة العظام التي لعبن بها مشتّتةً فوق الدرب المطروقة.

ولمّا لم تكن باكيتا تسمح بأيّ كلامٍ تافه، فقد صاحت:

ـ يا لها من فكرة! لست بغاضبة! كلّ ما في الأمر أنّني أحرص على عدم تلويث فستاني الجميل. فلمَ تقلنَ إنّني غاضبة؟

هنا، حلّ صمتٌ غريب؛ وبدا أنّ الفتيات يكتمن أنفاسهنّ في وضح النهار. فكتمت باكيتا أنفاسها بدورها، وهي تجهل ماذا يحدث، حتى خيّل إليها أنها تستحيل شفافةً.

ثمّ انفجر المكبوت: فصدحت أربع قهقهاتٍ ثاقبة، يحزّ وقعها في جنبات القلب ألماً، استعارت من طيور الطوقان حدّتها، فبدت كزعيق أبواقٍ أكثر منها ضحكاتٍ، لا تخفت إلا لتعلو نبرتها من جديد.

ـ أيتها العذراء! أيها الرب! أتقولين تلويث فستانك الجميل؟ ها!

خيّل لباكيتا أنهنّ مجنوناتٍ، فقدن عقولهنّ. وسرعان ما وجّهت إحدى أولئك المجنونات إليها الكلام، فلم يساور باكيتا أدنى شكّ في أنّها إميليا:

ـ أيّ فستانٍ جميل؟ أين هو هذا الفستان؟

ـ وأين تردن أن يكون أيتها الفتيات المزعجات؟! إنني أرتديه!

أرتديه! لقد اشتراه لي أبي حين ذهب إلى المدينة قبل ثلاثة أيّام. اشتراه أبي بنفسه. فبإمكانه أن يشتري أيّ شيء، لو أراد.

ـ ولكن أين هو فستان المدينة هذا كي نبدي إعجابنا به؟

وقالت خوانيتا بدورها:

ـ أتقصدين هذا الثوب البالي الرديء؟ إذاً، نحن نرتدي فساتين أجمل، مستوردةً من باريس!

حتى رافاييل المخبول لا يتسبّب بهذا القدر من الضحك، حين يصطحبونه إلى ساحة القرية، متنكّراً يوم ثلاثاء المرفع.

لم تعد باكيتا تبالي بهنّ، بل شرعت تمسّد فستانها بكلتا يديها، مع أنّها كانت تحسُّ أنّ شيئاً ما يضيّق عليها الخناق.

ـ يمكنك أن تلعبي معنا، باكيتا. لا تخشي على فستانك الجميل.

غير أنّها أولت الأخريات ظهرها، وعادت أدراجها وفكرةٌ تعتمل في قلبها: سأصدّق ما يريد أبي وأمّي أن يصدّقاه.

وفي قلبها أيضاً، صارت تغنّي:

عيناي يا عيناي

راقبا كلّ شيء

وقولا لي من هناك

ماذا تريان

من البعيد أخبراني.

إضحكي أيتها العيون السود، اضحكي،
لكن، لا تسخري من فستاني،
فلا جديد هو ولا جميل،
بالعذراء أستحلفك لا تسخري منه.

وسرعان ما استحوذ الأسى على الشدو، فأحكم الطوق عليه، منتصراً، كما يفعل دائماً. رغم ذلك، قد يعيد المرء الكرّة ويضاعف المحاولات، ليبدأ من جديد.

أخذت باكيتا تكلّم القضيبين المربوطين بشكل صليبٍ، وتغنّي لهما في آن. ثمّ ألبستهما الخرق البالية، استعداداً لتشكيل دميتها الجديدة.

عيناي، فلتضحكا هناك،
غداً تردّهما العذراء إليّ،
في رحاب الجنّة تردّهما إليّ.

وبينما كانت أناملها منهمكةً في مهمّتها، سكتت عن الغناء، ثمّ سألت بصوتٍ عاديّ:

- سنيورة أمّي، هل أنت هنا؟ سنيورة أمّي...

يخالجها منذ مدّةٍ ذلك الحدس الذي ينبئها إن كان أحدٌ متواجداً في الجوار. فباكيتا تعرف أنّ أمّها موجودةٌ، ولم تطرح سؤالها إلا رغبةً في الكلام، من دون البوح بأمرٍ محدّد.

نهضت أسنسيون، من دون أن تنبس ببنت شفة، وصعدت

درجات العتبة الثلاث، قبل أن تخرج إلى وضح النهار، حيث لفحها الهواء الجبليّ. لم تمضِ إلى أبعد من ذلك، فقد استحوذت على انتباهها الأراضي المحروقة التي لا يرعى فيها إلا بعض الصخور. وفيما هي تراقبها، لم تمرّ في بالها ولو فكرة واحدة.

باتت باكيتا وحدها في الحجرة، فاستعادت كلامها المنشَد، ووجهها مائلٌ نحو الباب:

في رحاب الجنّة تردّهما إليّ
ولونهما أزرق أزرق يستحيل.

ظلّت تجمع كتلة الأسمال بأنامل شاردةٍ، أصابتها الرعشة فجأةً. لم تعد تتكلّم وتنشد إلا في سرّها ومن أجلها. لا، هي تعرف أنّها تفعل ذلك من أجل شخصٍ آخر أيضاً، لكنّها لن تتفوّه باسمه:

راقبا كل شيء
وأخبراني من هناك
ماذا تريان
يا عينيّ السوداوين.

ـ سنيور أبي، سنيور أبي، أتعرف؟

ـ ماذا، يا يمامتي الصغيرة؟

ـ ذات يومٍ، سأذهب بنفسي إلى هناك، إلى الشمال، لأبحث

عن عينيّ. سأنتقل من مدينةٍ إلى مدينة، ومن بيتٍ إلى بيت، وأسأل عنهما. سأجدهما بمعونة السيّدة العذراء. أوتعرف ماذا أيضاً؟

ـ لا، ماذا؟

ـ حتى لو استحالتا زرقاوين، فإنّني سأعرفهما.

ـ بالطبع يا يمامتي الصغيرة، بالطبع. وسأرافقك بنفسي، ونبحث عنهما معاً.

ـ آهٍ يا بابا!

ـ كم جميلٌ أن أسمع منك هذه الكلمة: بابا.

ـ آهٍ يا بابا، لم أعد أدري ما شكلي.

إستيقظت باكيتا مذعورةً، على وقع خفقات قلبها العنيفة: لكنّه كان مجرّد حلمٍ. لقد راودها حلم، لم تخفّ وطأته عليها بعد؛ أو بالأحرى هي التي لم تخفّف من وطأتها عليه. فقد رأت نفسها تصل إلى المدرسة، ثمّ تدخل الصف، فتستدير لدى رؤيتها رؤوس الفتيات كلهنّ. في بادىء الأمر، تأمّلنها جميعاً بعيونٍ حافلةٍ بالذهول، ثمّ بالإعجاب. وسرعان ما أحطن بها، لا بل إنّ المعلّمة انضمّت إليهنّ بنفسها. ثمّ عبّرت عمّا عجز البقية عن قوله، وقد أخرستهنّ المفاجأة:

ـ يا إلّهي! يا للعينين الزرقاوين الجميلتين اللتين تملكينهما الآن، يا باكيتا! ويا لثوبك الرائع!

ـ هما عيناك اللتان تبقينا على قيد الحياة، يا باكيتا. تعرفين ذلك.

ـ نعم يا بابا.

وهن الصوت قليلاً لمّا لفظت «نعم يا بابا»، وما لبث أن استحال همساً حين سألته:

ـ وهل صرنا نعيش حياةً أفضل يا بابا؟

ـ نعم يا باكيتا، نعم.

مرّر ميغال بلسانه على تبغ الكولا من جهة إلى أخرى. لكنّه لم يبصق المضغة، بل استدرك ابتلاعها مع ابتلاعه لريقه، لا أكثر.

ـ لكنّنا نشعر بألمٍ متفاقمٍ في أعماقنا. شيءٌ ما يقرض جوفنا. شيءٌ ما التهم كلّ ما في ذهن أمّك، حتى باتت لا تشتغل إلا بذلك الرأس الفارغ، ولا تنجز الأعمال إلا كيفما كان. لكأنّ ما نأكله أمسى يأكلنا بدوره.

لم تسمع باكيتا أباها يتكلّم على هذا النحو قبلاً قط. لكنّها لم تعلّل السبب لنفسها: فهذا يبعث فيها اضطراباً ما بعده اضطراب. فسعت حائرةً إلى طرد الشياطين، في حال كان بعضها يجول في الأرجاء، إلى أن أنبأها حدسها بالحلّ، فهتفت بحيويّة:

ـ منذ انتزعت منّي عيناي، أصبح العالم أكبر.

كيف نعيش اليوم

حين تصدّق عليّ أحد العابرين بحسنةٍ، اليوم المنصرم، انعقد لساني، وبتّ لا أعرف فيمَ أفكّر. فقد كان هذا آخر ما أتوقّعه في العالم. لكن لم أفهم، في المقام الأوّل، كيف تركت الأمر يداهمني على حين غرّة، وأغلقت كفّي على القطعة النقدية الجميلة التي دُسّت فيه، من غيرْ أن أبدي أيّ اعتراض. ولم يقتصر الأمر على ذلك وحسب بل رحت أبرّر تصرّفي لنفسي: «لا بدّ من أنّ عامل المفاجأة قد خطف صوتي، لدرجة أنّ فكرة الرفض نفسها لم تخطر في بالي». غير أنّها مجرّد أفكارٍ كاذبة، لا تفيد إلا للتهرُّب من السؤال الحقيقيّ: ترى، أيوحي مظهري وهيئتي بالشفقة إلى هذا الحدّ؟ نعم، فالشفقة هي الشعور الذي يتحكّم بالناس إلى حدّ دفعهم إلى التصدُّق بالحسنات. كان يجب أن تطرق هذه الفكرة ذهني في بادىء الأمر، لكنّ شيئاً من هذا القبيل لم يساورني ساعتذاك. هو القدر، الأقوى من أيّ كان، يتصرّف بنا على هواه. هو الذي أرسلني على درب رجلٍ طيّب القلب: فماذا يبقى أمامي إلا تقبّل ما يحدث لي بكلّ بساطة؟ فكلّ ما يشهد لصالح الإنسانية خيرٌ وبركة.

تقبّلت الأمر ببساطةٍ إذاً كما سبق وأشرت، لكنّني لن أنسى أبداً لا ذلك الصباح القريب العهد، ولا عذوبته ورقّته. كان الخريف قد حلّ علينا. ورغم ذلك، ظلّت حرارة الجوّ المفترسة تعيث فساداً. ثمّ، أخذت المدينة تتنفّس فجأةً. كان كلانا، أنا وخليل، نجلس في مكانٍ مطلّ على السوق، ومعصمه الصغير في كفّي. فخروجنا على هذا النحو عادةٌ اكتسبناها منذ زمنٍ، نتسكّع على غير هدىً، اللهم إلا توجّهنا نحو مركز المدينة، وبالتحديد بمحاذاة السوق. فنجلس عند مدخل مشغلٍ، لم أره يفتح أبوابه للزبائن يوماً، ونستفيد من المناظر الأشدّ حيويّةً، لا بل الأكثر تسليةً في بعض الأحيان.

لكن يكفي أن يلفت انتباه خليل بعض المارة الغريبي الأطوار، أو أن تثير تصرّفاتهم الغريبة فضوله، أو أن يبلغ بهم الخصام حدّ القتال، لينطلق بموجةٍ من الأسئلة. فلا أملك، عند ذاك، إلا أن أتحلّى بحسّ المراقبة نفسه، فأحصي عليهم أنفاسهم، وأراقب حركاتهم وسكناتهم، عساني أجد الجواب الصحيح. لكنّني كنت أعرفه جيّداً، وأعلم أنّ ذلك لن يشفي غليله إلى المعرفة. ورغم ذلك، لم يكن حفيدي مجرّد طفلٍ، يرهق كاهلكم بأسئلةٍ تتكوّن غالباً من كيف ولماذا، يطرحها في محلّها وفي غير محلّها. بل إنّه من النوع الصامت، الرزين، فيه من التعقل ما يتجاوز أعوامه العشرة؛ ولعلّ أبرز دليلٍ على هذا تلك الطلبات، الرصينة دوماً، التي يسألني إيّاها. فيعجبني أنّه قد صار إنساناً مفعماً بالرجولة، لا مجرّد ساذجٍ بليد.

ما زلت أراه الآن، وهو يسألني في ذلك الصباح:

ـ جدّي، ماذا...

لكن ما كاد يفغر فاه، حتى اقترب منّا مجهولٌ، ومن غير أن يتوقّف، وضع شيئاً في يدي التي كنت قد تركتها مفتوحةً فوق ركبتي، على غير علمٍ منّي. لو كان بوسعها أن تتكلّم، تلك اليد!

وما لبث هذا الشخص أن انطلق على عجلةٍ من أمره، قبل أن أدرك أنّني أمسك قطعةً نقديةً. لعلّه خشي أن يتعقّبه أحد جرّاء أيّ إثم ارتكبه، وإلا ما كان قد توارى بهذه السرعة. أمّا أنا، فقبضت بأصابعي على المعدن الدائريّ، وبقيت أشخص بناظري في الناحية التي أفترض أنّه سلكها.

في غضون ذلك، أخذ خليل يكرّر ببراءةٍ على مسامعَ لم تعد تسمع شيئاً:

ـ جدّي، ماذا...

وفيما القطعة النقدية قابعةٌ في باطن راحتي، كنت مصرّاً على إعادة تشكيل مظهر صديق الإنسانية هذا، إنسان، لعمري، نديّ الكفّ، سبط الأنامل، وأنا لا أنفكّ مدهوشاً من رشاقته في الاختفاء. صحيحٌ أنّ تصرّفه أسبغ عليّ سروراً ما بعده سرور، أنا أقرّ بهذا، لكنّه كان سروراً يزرع فيّ الاضطراب: فبما أنّ الشر قد حدث وانتهى، أقصد الخير، لمَ فضّل أن يتلاشى بدون الكشف عن وجهه؟ أليراعي جانبي؟ لأنّني كنت لأصنّفه تحت اسمٍ معيّن،

بلا شكّ. ففي مدينتنا، يعرف الواحد منّا الآخر، ولو عن طريق النظر ليس إلا.

ـ جدّي، ماذا أعطاك السيّد؟

بما أنّ الشخص قد تصرّف بما يمليه عليه اعتقاده، فإنّ الأوان قد فات، ولم يعد يسعني فعل أيّ شيء.

هذه المرّة، لم يكفّ خليل عن مضايقتي:

ـ جدّي، ماذا أعطاك...

فأجبته بفتح راحة يدي، وعرض القطعة النقدية العملاقة.

هنا، أمعن الصبيّ النظر فيها، جاحظ العينين، بينما بقيت أفكاري ترتحل في أثر المحسن الغامض. ثمّ ارتأيت أن أستبق أسئلةً قد تستدعي ندمي وتذلّ ناصيتي، فسارعت أحتجّ:

ـ أقسم لك، يا صغيري، أنّني أجهل لمَ أنعم علينا بهذه الهديّة.

قد لا يكون هذا خير ما يقال، لكنّني قلته، وكأنّني أبرّىء نفسي من دناءةٍ قد تسوّل له نفسه اتّهامي بها، كرهاً. غير أنّه اكتفى برمق القطعة النقدية التي تتوهجّ في راحتي، بمزيجٍ من الاشتهاء والذهول.

كنت سعيداً بمشاركته تلك الفرحة البريئة، البكماء، التي قرأتها في مقلتيه، من غير أن أتفوّه بكلمةٍ بدوري. ولو أنّ همّاً جاش في صدره فعلاً، فقد ردّ عليه بنفسه:

ـ لأنّنا فقيران.

بدا أنّه أدلى بحقيقةٍ بديهية، إنما من دون أن تتخلّل كلامه أيّ نبرة شكوى. كانت حقيقةً جديدة بالنسبة إليه، لا بدّ من مواجهتها منذ الآن فصاعداً.

أعدت القطعة النقدية إلى جيبي، ثمّ أولينا، نحن الإثنان، اهتمامنا كلّه للناس الذين يتقاطرون أمامنا، أو أولئك الذين يلجون السوق الداخلية، أو يخرجون منها، ممثلين حشد هذا الحيّ الدائم، من دون أن ننسى تجمهر سيّاراتٍ، لم نر مثيلاً له قبلاً، يشقّ طريقه بصعوبةٍ كلّية. والجدير بالذكر أنّ أبناء مدينتنا الذين اغتنوا منذ الاستقلال ليسوا قِلّة. لكنّ هذا أفضل بالنسبة إليهم: فلم يضطر الأولاد أن يأكلوا ليسدّوا جوعاً عظيماً يلمّ بهم دائماً.

قلت لنفسي: «لكنّ الحياة تبتسم لنا بدورنا. فقد أصبحنا غنيين بفضل قطعةٍ نقدية جميلة».

ترى، أيّ أفكارٍ صارت تتوالد في رأسي؟ كنت لأعرف الجواب، لولا أنّ خليل ردّني إلى أرض الواقع، من حسن الحظ. فقد راح يتوسّل إليّ:

ـ جدّي، هل يمكنني أن أراها ثانيةً؟

فأدركت سريعاً ماذا يريد. ولمّا أريته إيّاها ثانيةً، إذا بي أبتسم لمنظره وهو يتملّى منها: من دون أن ينبس ببنت شفة، وهو يمعن النظر فيها حتى الثمالة.

بعدئذٍ، لم يعد يجذب اهتمامه إلا رقصة النحل الذي يحيط

بالقفير الهائل، التابع للسوق الداخلية. أقرّ، مع ذلك، أنّ تحفظه هذا أثار إعجابي. فذلك هو الطبع الذي فطر، صغيري خليل، عليه.

لكن لم يطل به الأمر حتى رفع وجهه، وسألني بخبثٍ:

ـ ماذا أنت فاعلٌ بهذا المال يا جدّي؟

كان سؤاله أشبه بضربةٍ نجحت، وحدها، بتشتيت أفكاري كلّها. فلتلاحظوا هذا: لقد سنح له الوقت أن يفكّر في هذه المسألة، بعكسي، أنا المسكين!...

كنت ما أزال مذهولاً بطريقة تفكير عقله الصغير. فتملّكني الحرج، ولم أستطع إلا أن أقول:

ـ لا أعرف البتة، يا ولدي.

وجّه نحوي عينيه السوداوين الكبيرتين، بنظرتها المحمومة، وقد بدا غير مصدّقٍ. لا شكّ أنّه كان يتوقّع إجابةً أخرى؛ ولم يكن تشوّشه أقل حين أردفت:

ـ لكن كيف تعتقد أننا سننفقه؟ تذكّر أنّ نصفه لك.

لمّا عرضت له المسألة من وجهة نظري، ازدادت عيناه اتّساعاً، بشكلٍ قد تعجزون عن تصوّره. بقي لبرهةٍ مكتوم الصوت، قبل أن يردّد بصعوبةٍ:

ـ نصفه لي؟

أخذ يراقبني بعينين تتألّقان لمعاناً وتشعّان سواداً، تتجاوزان

سنّه بكثير، ثمّ أشاح بوجهه. ولمّا قرّر أن يتابع بعدئذٍ، أحسست أنّ نبرة رفض ترتعش في طيات صوته.

ـ ستشتري به تبغاً، هذا التبغ الذي يماثل خصلات الشعر رقّةً، الذي تحبّ أن تلفّه في قصاصات ورق. ألن يعجبك هذا؟ إعترف. فأنت لم تدخّن منذ فترةٍ طويلة.

كان دوري في الذهول. لم أكن أدرك أنّه يعير حركاتي البسيطة كلّ هذا الانتباه. إنّ صغيري خليل يلاحظ كلّ شيء، ويحفظه فعلاً. وبطبيعة الحال، لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير: «لو أنّ قدرك حكم عليك أن تفهم كلّ شيء، فلن أفرح من أجلك يا صبيّ. فالذكاء المفرط لا يفيد في الحياة أبداً، لأنّه لا يجرّ إلا العذاب، ولا يعود عليك بشيء. لكن لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا».

وبينما هو يترصد كلامي، جعلني أرزح من جديد تحت وطأة نظرته المغلقة. فأجبته:

ـ إنتهى بي الأمر بالتعوُّد.

صحيحٌ أنّ نظرةً كهذه لم تكن ترعبني، لكنّها كانت تلسع قلبي لسعاً. فأخذت أضحك وأنا آمل أن يحذو حذوي.

غير أنّه سألني:

ـ تعوُّد ماذا؟

ـ التدخين طبعاً!

ـ كيف يعتاد المرء ما يحبّه؟

لم تلق عيناه سلاحهما، بل بقيتا تحدّقان فيّ، فاغرتان كعادتهما، من دون طرفٍ.

أجبته:

ـ هذا محتمل، ويحصل في بعض الأحيان. كما يحدث أن يفقد المرء عادةً أيضاً.

ـ لقد أُرغمت على فقدانها. اعترف أنّك أُرغمت.

ـ أرغمتُ؟ ليست تلك الكلمة المناسبة! حسنٌ، إلى حدٍّ ما.

كدت أجهش بالبكاء، لشدّة البؤس الذي كان يعتمر في صدري، ولقلّة ما كنت مستعداً للأمر.

أمّا هو، فتمتم وقد وضع يده على يدي:

ـ هذا ما اعتقدته تماماً.

إختلست إليه النظر من طرف عيني، سيّما وأنّه كان جالساً إلى جواري: فبدا شكله على أتمّ ما يمكن أن يكون. لم ألحظ فيه أيّ علةٍ: لا نزق ولا أسى ولا غيظ؛ بل لم يعتريه أيّ شعورٍ يحتمل أن يحتفظ به في سرّه، أو أن يكبته في صدره.

إبّان ذلك، لم ينقطع حبل الضجيج من حولنا، بل كانت الأصوات ترتفع، وتتصاعد كدويّ الرعد. وصدحت جلبةٌ مزعجة، أخذت تنتقل من منضدة بضائع إلى أخرى، وكأنّ أحشاء غول السوق الداخلية ترجّع صداها. وعلت غوغاء قامت، على

إثرها، الأفواه الثمانية التابعة للغول نفسه بامتصاص أمواجٍ من الرجال والنساء؛ فيما يدوّي عواءٌ حانق تصدره السيّارات الغائصة في الزحام، يخالطه شدو الباعة الصغار الذين يتنزهون في الشارع، وفي قبضتهم ثلاث حزمٍ من الفجل: فاجتمعت هذه الأصوات كلّها خليطاً متنافراً، بل هرجاً ومرجاً، أحاطتنا بلبلته كغلافٍ جويٍّ ثانٍ. في هذه الأثناء، كنت أبتسم لخليل بثقةٍ، من دون أن أتلفظ بكلمةٍ أو أن يصيبني القنوط، وكلّي شكٌّ في أنّه سيجبرني على التفوه بأيّ كلام... ذلك الكلام الذي لسنا مضطرين إلى قوله، ولا نزمع دوماً أن نفضحه.

وما لبثت أن هتفت، من غير أن أستطيع أن أكبح جماحي:

ـ لديّ فكرةٌ أفضل!

وبالفعل، كانت قد راودتني فكرةٌ، لعلّ فائدتها تكمن في قطع حوارٍ يؤول مآلاً سيئاً، مؤدّياً إلى خصامنا: وهذا ما حدث لنا مسبقاً، فوجهة نظر خليل تؤسفني أحياناً، كوجهة نظره هذا الصباح، تقريباً.

سألني:

ـ وما هي فكرتك؟

ـ ماذا لو اشترينا علبة بسكويت؟ بسكويت محشوّ بعجينة المشمش، ومغلّف بورقٍ ذهبيّ، تعلوه الصور؟

حينذاك، تمكّن بجهدٍ من التلفظ بوضوحٍ:

ـ حقّاً؟

ثمّ وجّه أنظاره إلى حشود الناس، لكن أكان يراهم فعلاً؟ ولمّا لم يضف كلمة، لم أعرف ما العمل. فإنني أجهل دوماً ما العمل معه.

أخذنا نراقب أولئك المجانين، بصمتٍ، وقد بدا أنّ كلاً منهم يهرع للإجابة عن نداءٍ خاصٍّ به. أمّا مصدر النداء، فمبنى السوق الداخلية البازار، المتربّع في الساحة، المرتفع طابقاً، وهو يبتلع الناس من الأسفل والأعلى، من دون أيّ تمييز؛ يبتلع ما يتدفق إلى جوفه، ليعيد بصق كميّةٍ مماثلة. لكنّ الطابق الذي يفضي، بواجهاته الأربع، إلى دورةٍ مزدوجةٍ، تابعةٍ لدرجٍ فخم، لا يفتح ذراعيه إلا للأغنياء. فلا يضيّق الزحام عليهم الخناق، حتى ولو رافقهم الخدم أو الحمّالون.

فجأةً، أخذ خليل يشدّ كمّي بكلّ حيويّة، ثمّ سألني:

ـ لمَ تصرخ تلك المرأة هكذا؟

كنت شارد الذهن، غائب الفكر. فرحت أبحث.

ـ أيّ امرأة؟

ـ هناك. أتراها أم لا؟

وأشار بإصبعه إلى امرأةٍ فتيّةٍ، يكاد ثوب الحيك المفتوح أن ينسدل من فوق رأسها، وقد بحّ صوتها من فرط الصراخ، وأخذت تهزّ يدها بعنفٍ إزاء الرجل النحيل، الجالس عند مدخل

السوق، خلف منضدةٍ صغيرة من الأعشاب والبقدونس وأوراق الكزبرة والنعناع.

كان الجواب بديهيّاً.

ـ تلك هي حال نسائنا؛ يحدّدن الثمن للبائع بأنفسهنّ، فإن رفض، يوبّخنه. وأشعر أنّ هذه لم تشذّ عن القاعدة.

لكنّ الرجل بدأ، على صغر قامته، يفوقها زعيقاً، لدرجة أنّنا كنّا نفهم كلّ كلمةٍ، ونحن جالسان في مكاننا.

ـ إذهبي أيتها السيّدة، وأكملي طريقك! أتظنّين أنّهم يهبونني منتجاتي؟

فتردّ هي بسخط:

ـ أتطلب ثروةً طائلة مقابل ضُمَّة بقدونس؟! إلى أين سيجرّ التجار العالم بجشعهم؟ لن تهدأ قريرتكم إلا حين تستنزفون دماءنا كلّها! أيجب أن تبني لنفسك قصراً أيضاً كالبقية؟ أهذا هو السبب؟

عند تلك اللحظة، حجبتهما عن أنظارنا سيّارةٌ ضخمة، لمّاعةٌ، مستديرةٌ، توقّفت وسط أفواج الناس، ولم تعد تتحرّك. وهذا شخصٌ إضافيّ، من أولئك الذين أصابهم الغنى الفاحش فجأةً، فاستباح لنفسه كلّ شيء: أن يمرّ في الاتّجاهات كلّها، ويكتسب الحقوق كافةً أينما كان، ويركن سيّارته في أيّ مكانٍ يحلو له. نعم، تلك هي صفاته؛ أمّا بالنسبة لركن سيّارته هنا، فذلك ما لا سبيل إليه، ولو خطر له أن يدفع مقابله.

وكما كان متوقّعاً، عندما حاول أن يعود أدراجه، طالعته سيّارةٌ أخرى تشبه الأولى في كلّ شيءٍ، ما خلا لونها الأخضر الفستقيّ، فلون الأولى يشبه لون القهوة بالحليب. وأخذت السيّارة الأخرى تتقدّم رغم الكتلة البشرية اللامبالية التي تصدّها، إلى أن صادفت أختها التي تشبهها ضخامةً ولمعاناً واستدارةً، فتوقّفت بدورها. عند ذلك، أنزل السائقان زجاج سيّارتيهما، وانجرفا في حديثٍ لم تلح نهايته في الأجواء، غير مكترثَين بالمشاة الذين أعاقوا حركتها، ولا بالسيّارات التي أطلّت في غضون ذلك، وأخذت تطلق أبواقها. أمّا شرطيّ السير، فيقوم بنوبته فعلاً في زاويةٍ من الزوايا، ويرمق المشهد كمن يفكّر في يوم الحساب أو يوم القيامة.

في تلك اللحظة، جلجلت مكبّرات الصوت بقوّةٍ تسحب من المرء أدنى شعورٍ. كانت تنادي إلى صلاة الظهر. فمنذ زمنٍ طويلٍ والتوق إلى الله لا يعبّر عنه صوت المؤذّن شخصيّاً.

فنهضت وأنا أبغي الإشارة إلى خليل، أكثر من الامتثال إلى أمر الآلة الصائحة:

ـ لقد تجاوزنا الظهر أيّها الشاب. فلنعد.

قام هو أيضاً، من دون أن تفارقني النظرات التي خبرتها، تلك التي تفيض الآن بابتسامةٍ أبلغ من أيّ خطاب.

رغم ذلك، أضاف خليل مترجماً أفكاره، خائفاً من أن أسيء فهمه:

ـ لم تنسَ ما قلته لي، أليس كذلك يا جدّي؟

ـ أنا؟ وهل قلت شيئاً؟ ماذا قلت؟

ـ البسكويت.

ـ البسكويت؟ آه، البسكويت!

ـ أتظنّها ضروريّة؟

ـ بالطبع!

ودسّ يده خفيةً في يدي، ومضينا معاً.

ما إن وصلنا، حتى غمرنا لمعان الفناء الأبيض الحادّ، بعد تنعّمٍ قصير بفيء الرواق. وقع نظري، في بادىء الأمر، على الطبقِ الذي ينتظرنا على عتبة حجرتنا، يكسوه غطاءٌ، ويعلوه رغيف خبزٍ. في ذلك اليوم، لم نكن قد وصلنا في الوقت المناسب، لنتسلّم غداءنا من كريمة، يداً بيد.

في غمرة البلادة التي دائماً ما يغرق فيها هذا المنزل، ساعة الغداء، وفي ظلّ الصمت الذي يتوحّد به، حين يسدل الستائر على نفسه، همست في أذن خليل:

ـ إذهب وحضّر المائدة.

قبِل بسرعةٍ، فترتيب المائدة مهمّةٌ ينفّذها صغيري بكلّ سرور، لا بل بكلّ حماسة، وقد تعلّم حديثاً كيف يطوي طاولتنا كلعبة الدولاب.

أمّا كريمة فمجرّد جارةٍ، لكنّنا ندين لها بقوتنا. فمنذ اليوم

أم ماذا؟ ما همّني عددها، فكلّ هذه الأيّام مضت، ونحن لا تسافر بنا أيّ ذكرى إلى المدينة التي عليها أن تستعدّ لرؤيتنا الآن.

ـ خليل يا ولدي، حان وقت الخروج. هل ستجهز قريباً؟

كلّ هذه الأيام مضت، وأنا لا أفعل شيئاً إلا ملازمة حجرتي.

ـ إنني آتٍ يا جدّي!

ماذا يحضّر هذا الولد بعد؟

تجتاحني أحياناً، على غفلةٍ منّي، موجةٌ من الحزن، تتملّكني وتجرفني حتى أعماق الكآبة، فيصيبني من الألم ما يدفعني إلى ملازمة السرير مرضاً. أمّا أسباب يأسي، فكثيرةٌ لا تنضب؛ رغم ذلك، أجهل السبب الرئيس الذي يجعلني على هذه الصورة.

ـ خليل، أخبرني، هل جهزت أم لا؟

أردّ ذلك، من دون شكّ، إلى أفكاري التي ارتحلت بي، مرّةً أخرى، نحو محسن الأسبوع الماضي، مما جعلني ألاحظ شيئاً فشيئاً: «لا مناص في أنه، هو نفسه، يتعذّب جرّاء الأذى الذي يصيب البشر. لكنّه تجنّب أن يريني صورة وجهه! ماذا كان سيصيبه لو فعل ذلك؟ فما كنت لأحقد عليه مقابل ترّهاتٍ، سيّما وأنّ هذه ليست نيّتي. كما إنّني لا أحقد عليه لأنّه حسبني متسوّلاً؛ فما عساني أفعل أنا، إن كانت نظرةٌ منه كفيلةً بأن يقرّر تشريفي بسخائه؟ فأنا أدرك أنني لا أشكّل جزءاً من أولئك التعساء المجهولين الذين يجوبون شوارع المدينة، مادّين أكفّهم، لا سيّما وأنّني أحرص على كرامتي دوماً، فألبس اللائق من الثياب صيفاً

وشتاءً. وإنّ الجميع يعرفونني، فأنا ابن عائلةٍ كريمة، لا متسوّل يحسَن إليه. لكنّه رفض حتى أن يريني وجهه».

هكذا بدأ الأمر، ولمّا فرغت منّي الاعتراضات، انتهى بي المطاف إلى التساؤل إن كان لا بدّ من الموت، فلمَ لا أنتحر الآن؟

ـ خليل يا ولدي، يبدو لي أنّنا لن نخرج اليوم.

فتوسّل إليّ:

ـ بلى يا جدّي! أرجوك!

ثمّ سأل بصوتٍ خافت مجازفاً:

ـ أيمكنني أن آخذ معي علبة البسكويت؟

هذه العلبة التي كان يدلّلها، طيلة هذه المدّة، من غير أن يفتحها...

ـ طبعاً. إفعل ما تشاء، فهذه علبتك!

وغادرنا البيت.

وظهرت أمامنا ساحة القرية، سوداء من شدّة الزحام كعادتها. وما إن وقع نظري على الشارع الذي يقودنا إلى مركز مراقبتنا، حتى تضايقت فجأةً. لا أستطيع أن أصف ما أصابني، وكأنني شعرت بالاشمئزاز لمجرّد العودة إلى المكان نفسه، برفقة الصغير. لا؛ لن أذهب للجلوس عند عتبة الدكان المحكوم عليه بالإقفال الأبديّ.

فما كان مني إلا أن سلكت الشارع الآخر الذي يتقاطع والأوّل، وأنا على يقينٍ أننا سنجد هناك مكاناً يستقبلنا بالحفاوة نفسها.

عند ذلك الحين، شدّني خليل من ذراعي، بحركةٍ فيها من القوّة ما كاد يوقعني أرضاً. فوبّخته مذهولاً، وقد فقدت التحكُّم بزمام الأمر:

- لِمَ فعلت ذلك أيها الولد الشرّير؟ ما الأمر؟

فهتف:

- ليس هذا بالاتجاه السليم! أنظر أين تذهب! ليست الطريق الصحيحة!

فنظرت إليه بازدراء، وأنا أعلن بنبرةٍ لا تحتمل أيّ ردّ:

- سنغيّر المكان هذه المرّة. لن يضرّنا هذا، بل على العكس: سنرى أماكن جديدة.

وقف على بعد خطوتين مني، وهو يأكلني بعينين لا عمق لهما، تُقرأ فيهما لغة الشكّ وعدم الفهم و... التأنيب. نعم، التأنيب. لكنّني لم أستطع الجزم، وأنا أراقبه، إن كان حقّاً لم يفهم سبب تحوّلنا عن مكاننا المفضّل. فقلت لنفسي: «هذا جيّد، ففي هذه الحالة على الأقل، لن أضطر إلى تقديم الشروحات». وكلّما ازداد تفرّساً فيّ، كلّما قويَ حدسي بإدراكه، أو ببداية إدراكه. رغم ذلك، بدا أنّه لا يوافق على تصرّفي. فقد بقي مسمّراً في مكانه، لا يأتي حركةً، ويصمّم على عدم القيام بأيّ خطوةٍ إضافية.

قلت في سبيل مصالحته:

ـ هلاّ أتيت؟

بل وصل بي الأمر حدّ مداعبته:

ـ إحترس يا خليل، ستمتدّ جذورك في الأرض حيث تقف!

كنّا نفهم بعضنا البعض دونما حاجةٍ إلى الكلام: فذلك من حسن حظّنا وسرّ سعادتنا، لكنّه حظٌّ يستحيل أحياناً نكد الطالع، وسعادةٌ تسبّب فجأةً تعاستنا. كنت أعرف ما الذي يتأمله. فهو يريد أن يرى معجزة القطعة النقدية تكرّر نفسها، لذا يرسخ مكانه، بكلّ إيمانٍ، رافضاً أن يتقدّم إلى غير ذلك المكان؛ أي غير المكان حيث حدثت المعجزة الأولى. فالأولاد، بطبعهم، يتعلّقون بالخرافات.

لمّا لم يكن لدعابتي أيّ أثرٍ عليه، أخذت ألحّ عليه، من دون نقاش، وقد عيل صبري:

ـ هلاّ أتيت فننتهي من هذه المسألة؟

لكنّه لزم مكانه، يحدجني بالنظرة نفسها، وما لبث أن مدّ يده بعلبة البسكويت التي كان يضمّها إلى صدره، والصمت يكتنفه. باستثناء ذلك، غاض الدمع في عينيه، وزمّت شفتاه، لتنعقد بعد ذلك بحركةٍ كئيبة، ألقتني في مراغة الخجل والذل.

بالإضافة إلى ذلك، تمتم وقد ناشد القوّة المتبقية في أعماقه:

ـ لم أعد أريدها.

كنت، كلّما تهيأت للجوء إلى الصلابة، أجد نفسي بشعاً غريباً. عند ذلك، أقلعت عن التردد وتوجّهت نحوه، فأمسكت بيده، قبل أن نسلك معاً درب مكاننا، مكاننا اليوميّ.

وفي النهاية، ساءلت نفسي: ولـمَ لا؟ فمدخل الدكان ذاك يعرفنا بقدر ما نعرفه، وجانب السوق الداخلية الذي يكشف لنا عنه صار أشبه بوجه صديق.

ما كاد خليل يجلس بمحاذاتي، حتى انقضّ على علبته. أمّا أنا فرحت أسلّي نفسي باختلاس النظر إليه، ورأيته يحاول فكّها بحركةٍ مضطربة، وهو يحرص على عدم إتلافها، ثمّ يقحم يده بحركةٍ عصبية، حتى يخرج قطعة بسكويت أخيراً، ويقدّمها إليّ برصانة.

ـ هذه لك يا جدّي.

ـ أتمزح يا خليل؟ هل آكل حلوى في مثل سنّي؟ لا تفكّر في هذا! إنّها كلّها لك.

ـ جدّي، أرجوك.

فقبلت البسكويتة الدائرية الصغيرة أخيراً.

رحنا نسير ونحن نقضم الحلويات، ونراقب حركة جمع من الناس لا يشبهون إلا أنفسهم، فلا يخالفون غريزتهم أو طَريقة تصرّفهم، بل يحومون كمن يدور حول الكعبة؛ يحومون حتى يسبّبون الدوار للرائي، لكنّه عبثاً يحاول أن يشيح بنظره عنهم.

فجأةً، خيّل إليّ أنّ قصراً فخماً يتمثّل أمامي في مكان السوق الداخلية. وتنبّهت إلى الدرج المزدوج الرائع الذي يفضي إلى الطابق الأعلى؛ فصَحت في قلبي أمنيةٌ غالية، وحلمت أنّني أصعد درجاته، وألقي نظرةً على الصالات وقاعات العرض والعجائب المجهولة المخفية هناك. لكن، في الوقت نفسه، كان عقلي نيّراً بما فيه الكفاية، ليدرك أنّني ما صعدت ذاك السلم، ولو لمرّةٍ واحدة إبّان حياتي الطويلة، أقصد سلّم السوق خاصّتنا. عند ذلك الحين، ثارت ثائرة مكبّرات الصوت ثانيةً، فأخذت تشخّر وتزمجر، فقطعت حبل السمع بين الناس، رافعةً الأذان للصلاة. فكان يجدر بي أن أصرخ كي أبلّغ خليل:

ـ حان وقت الذهاب! علينا العودة!

فسألني وتكشيرةٌ تغطّي وجهه، على غرار الصمّ:

ـ ماذا؟

فرحت أصرخ بأعلى صوتي:

ـ العودة! العودة!

أمّا هو، فأجابني بالصوت الحادّ نفسه:

ـ لكنّ السيّد لم يمرّ بعد!

ـ أيّ سيّد؟

فجأةً، سكتت مكبّرات الصوت. أمّا ما تبع، فكان صمتاً لم تظهر له في سماء الوهم سحابةٌ. لكنّ الضجيج أخذ يغلي في

أعماقه مجدّداً، لينبثق كينابيع ماء حارّة، بعد أن عادت الحياة إلى الأفواج الغفيرة التي تكسو ساحة السوق، وزال عنهم هول المفاجأة.

وكما لو أنّ خليل لم ينتبه لكلّ ما حدث، فقد تابع صراخه بكلّ ما أوتي من قوّة:

ـ السيّد الذي سيعطينا قطعةً نقديةً أخرى!

ـ صه، يا ولدي! لا تصرخ على هذا النحو! السيّد الذي... يا لهذه الفكرة! هل أنت مجنون؟ هيّا، علينا أن نعود!

ـ إذاً، لن تستطيع أن تشتري التبغ!

ثمّ عاد يصرخ من جديد:

ـ إذاً، لن تستطيع أن تدخّن!

حين أرسلت علينا مكبّرات الصوت صاعقتها، سبّبت كمّيةً لا بأس بها من الأضرار. فشتّتت الناس وسلّطت الضوء على صفوفٍ انقشعت عنها الفوضى، وإذا بي أجد نفسي وخليل، من بين آخر من تأخّروا في الساحة.

ـ لن أستطيع أن أدخّن؟ لكنّني لست حريصاً على ذلك يا ولدي. وهذا لا يزعجني.

ثمّ فكّرت لبرهةٍ ووعدته:

ـ سنعود في الغد.

فأجابني وقد انفرجت أساريره:

- جيّد!

التدخين...

هناك... عند الجبال... التدخين... مضى على هذا زمنٌ طويلٌ طويل، حتى إنّني أتساءل أحياناً: «متى حدث ذلك؟ أفي عالمٍ آخر أم في حياةٍ أخرى؟» كنّا ننصب كميناً للجنود الفرنسيين، لكنّنا نحن من وقع في أيدي إحدى فصائلهم في النهاية. فوقع أفراد مجموعتنا كلّهم في الأسر. في بادىء الأمر، خضع كلٌّ منّا لاستجوابٍ فرديّ، ثمّ ألقوا بنا جميعاً داخل أرضٍ مسيّجة. ومضت الساعات الواحدة تلو الأخرى. لم أعدّها، فقد كانوا قد أخذوا منّي ساعتي. بأيّ حالٍ، بدا لنا أنّ الوقت قد توقّف، وقد سحقته السيول المتوهجة التي تسكبها الشمس علينا، والنار التي بقينا نتعرّض لها، نحن الأسرى. وأمسى الوقت كثيفاً، ثقيلاً، مستمّراً في مكانه. فما كان مني إلا أن قبضت بأصابعي على حلقات الشبك المعدنية، وتفكيري كلّه منصبٌّ على فتح عينيّ، والتحديق في البعيد، إن أمكن ذلك. ومضى بي الوقت على هذه الحال، حتى إنّني نسيت أن أسأل عمّا سيحدث، عمّا ينتظرنا بعد ذلك. لكن أيّاً كان المصير الذي سنؤول إليه، فما عليه إلا أن ينتقم منّا وحده.

عندئذٍ، اقترب منّي أحد هؤلاء الجنود الفرنسيين. كان لا يزال غلاماً، وجهه قرمزيّ اللون، وشعره أشقر قصير. مدّ يده إلى السياج، ودسّ في يدي سيجارةً كان قد أشعلها سابقاً. دسّها كما

فعل المجهول الذي أعطاني قطعته النقدية، قبل أيّام. الفعل نفسه. وعلى غرار ذلك المجهول، لم ألمح من الجندي الأشبه بالتلميذ إلا الوجه. فقد انصرف فوراً. ترى، ما الذي حلّ به؟ أنا، ما زالت الحياة تنبض في عروقي. أمّا هو، فماذا؟

قال صغيري خليل:

- حسنٌ، سنعود في الغد. وتأكّد من أنّ السيّد اللطيف سيعود أيضاً.

هذا عالمٌ عاجزٌ عن إصلاح أخطائه. أمّا كيف نساعده على سلوك الصراط المستقيم من جديد، فهذا ما لا نعرف إليه سبيلاً. حتى أولئك الذين رحلوا إلى الجبال ليُخلّفوا فيها عظامهم، وحتى الذين اضطروا إلى العودة، حتى هم لا يعرفون. كيف نعيش اليوم؟ هكذا، هكذا هي حياة اليوم.

سلكنا، أنا وخليل، طريق العودة، يداً بيد. ولم يمض وقتٌ طويل، حتى شعرت أنّ أشباحاً ترافقنا. كنت قد خبرت هذا الشعور قبلاً، حين أكون على مقربةٍ من أرواحٍ، قرّرت أن تحيط بي فجأةً، وتلاصقني بلمسةٍ أين منها لمسات أجساد اللحم والدم تلك. قد تتمثّل بجنديّ صغيرٍ أقبل عليّ بسيجارته قبل ثلاثين عاماً ونيّف، سواءً كان لا يزال حيّاً، أم ينبض بحياةٍ أخرى، فلا شيء يمنعه من أن يبقى دوماً بيننا؛ وقد تتمثل أيضاً بإخوانٍ سقطوا هناك، في الأدغال، في سبيل قضيّةٍ يعرفونها، أو بآخرين يرافقونهم في وحدتهم؛ أو عدرا؛ أو يُمنى؛ أيّاً كان اسم هذه

الأرواح، فهي لا تهجرنا، حتى ولو لفحتها شمسٌ متوهجة، كشمس نهاية الخريف هذه. فإن خيّل إليّ في بعض الأحيان أنّها قد هجرتنا فعلاً، فهذا لا يعني إلا أنّ شعاب قلبي هي التي شغلت عن ذكرها، وأنّ حواسيّ هي ما أصابها الخدر، فنسيت... لأنّ تلك الأرواح لا تهجرنا أبداً. فأحياناً، يخيّل إليّ أنني أسمعها تضحك من وراء ظهري، أو تبكي في أحيانٍ أخرى.

وبالفعل، فيما نحن سائران نحو البيت، سلّمت نفسي لصمتٍ عميق، ورحت أرهف السمع: فمن يدري، قد تجتاح أحدها رغبةٌ في الضحك، أو البكاء.

ولم تصبني الدهشة حين خابت توقّعاتي: فالأرواح لا تتصرّف على هذا النحو، إلا حين تقرّر ذلك بنفسها.

ما عليّ إلا أن أنتظر نداء الساعة الأخيرة، فيتناهى إليّ وقعه في أرجاء هذه السماء الكاملة، حتى يلتئم شملنا جميعاً.

هنا، ارتفع صوت خليل قلقاً:

ـ جدّي، سيعود السيّد، أليس كذلك؟

ـ بالطبع سيعود.

الفراشات

علا صراخٌ:

ـ أقتل، أقتل!

وانفجر من جديد:

ـ أقتل، أقتل!

أهذا أحدٌ يصرخ؟ أم شيءٌ آخر؟ أمّا هو، فكان يركض. لا يفعل إلا هذا: يركض. من شارعٍ إلى آخر في حيّ دوبرينجا حيث يسكن، يركض. لكن أيّ شوارع هي هذه؟ بات لا يعرفها بهيئتها التي تزداد غرابةً يوماً بعد يومٍ؛ هو الذي لطالما حفظها كباطن كفّه، أمسى اليوم لا يعرفها، ويركض. رآها وقد اكتست وشاحاً رماديّاً داكناً، وفي رحابها الفارغة يركض. لا يمكننا أن نقول إن الليل قد حل، كما لا يمكننا القول إن الوقت نهار. في بعض الأحيان، يبصر في أعماق أحد الشوارع أطيافاً تجري في أعقاب بعضها البعض، لا غاية في ذهنها إلا الاحتماء في مداخل بعض البيوت، أو أينما كان، في أيّ ملاذٍ يفتح لها ذراعيه. أمّا هو، فلكي يمسك بأحد هذه الأطياف كان يركض، ليغير عليه

ببندقيّةٍ من نوع أ. ك. 47، نسي ثقلها بين ذراعيه النحيلتين إلى أبعد حدّ. ولم يكن يركض إلا في شوارع فارغة إلى حدّ اليأس، تكاد تضيع معالمها من فرط فراغها، فيما الصوت لا يبرح يصرخ:

ـ أقتل، أقتل!

كان الصوت يصرخ من مكانٍ ما، لعلّه يصرخ في رأسه، بينما هو يبصق. كان يبصق ملء رئتيه، ملء معدته، يبصق كلّ ما في جوفه. أخذ يبصق يمنةً ويسرةً، وهو لا ينفكّ يركض. ولم يمضِ وقتٌ حتى أحسّ بصمت المكان واكفهراره يأسرانه ويطبقان على صدره، وقد أحكمت رغبةٌ في القيء طوقها على عنقه. فما كان منه إلا أن ضغط بذراعه الطليقة على بطنه، وهو يحاول أن يتمالك نفسه. غير أنّه ما لبث أن صرخ بغتةٍ، كمن تملّك منه الغثيان فتقيّأ:

ـ أقتل، أقتل!

أرسى هذا العالم الآخر قواعده حوله. لكن ماذا عساه ينتظر، هو، كي يتفوّه بكلمةٍ، ويردّ عليه؟! فهذا ما يترقّبه هو، عزّت، لا سيّما أنّه صرخ صرخته وتوقّف. لكن ماذا لو تلقّى جواباً؟ ماذا يفعل حينذاك؟ عندئذٍ، شخص ببصره وأرهف سمعه. فتسلسلت أمامه مجموعةٌ لا متناهية من النوافذ والأبواب. إن نجا... ماذا؟ فنوافذ السوء، وأبواب النحس هذه، كلّها مغلقة. لكن ماذا لو انفتحت له الأولى؟ أو ربّما انشقّت وحسب، ثمّ ماذا؟ قد تنبثق

منها حينذاك نظرةٌ سوداء، أو ربّما رصاصةٌ سوداء، أو أيّ شيءٍ آخر يكتنفه السواد، يقفز إلى الشوارع، راكضاً، صارخاً: «أقتل، أقتل!». نعم، يصرخ، ويتعقّبك بدوره، حتى مكانٍ بعيدٍ جدّاً، هناك، في الريف. لكنّ الأبواب والنوافذ دوماً مغلقة، فيما عين المنيّة ساهرةً لا تنام.

ويتكرّر الصوت:

ـ أقتل!

ـ عزّت، عزّت، يا صغيري، استيقظ! أنا هنا، أمّك بقربك.

كان الولد يدحص برجليه خلال نومه، فيخبط بيديه ويهاجم أمّه، حتى عجزت عن التحكم به. حين ينجو المرء من القنابل والشظايا، تمسي الكوابيس الثمن الذي يدفعه، إبان الليل. أمّا نهاراً، فيسير مشوّش النظر، بعينين تحيط بهما علامات الزرقة، أين منها علامات الليل. ولا تسجّل له الحياة ساعةً إضافية من العيش، إلا ليتألّم فيه.

أخيراً، أمسكت نجلا بمعصمي ابنها، وشبكتهما فوق صدره. فإذا بعزّت يهدأ، فتسترخي رجلاه وتمتدّان، فيما تنتظم أنفاسه في سكونٍ خفيّ، إلى أن ينام، نتيجةً لذلك، بسلام.

أخذت الأمّ تراقب ذلك الجسد الذي نما، حتى بدا أنّه يعوم فوق سريرٍ من الماء، ثمّ سارعت ترفعه وتضمّه إلى صدرها، بحركةٍ لا تدري لها سبباً. وما لبثت أن ألقته فوق ركبتيها بحنانٍ، وشرعت تهدهده، قبل أن تجهش بالبكاء.

حدجها عزّت بإحدى تلك النظرات الطفولية التي تلاحظ كلّ ما يحدث حولها، فلا تستغرب أيّ موقفٍ إنسانيّ، أو حتى خرافيّ. فأخذ يتأمّل تلك العبرات الحافلة بالأمومة، من غير أن تطرف عيناه، لأنّ دموع الأمّ طبيعيّةٌ خالصة. ومرّت بضع دقائق على هذا النحو، قبل أن تلاحظ نجلا نظراته، فيجتاحها الذهول، ثمّ ترسل إليه ابتسامةً بائسةً مبلّلة.

منذ مدّةٍ، بات بمقدوره أن يرمقها بنظراتٍ، لا مبرر لها، فيحيلها ذاهلةً، مجرّدةً من أيّ حركة. فتحتَ هذا الجبين المحدّب العالي الذي تزخرفه خصلاتٌ مجنونة، تكمن عينان يضحك فيهما لازوردٌ أزرق دائم النضارة، لا تغرق فيهما نظراتها إلا لتكتشف هوّاتٍ غريبة. كان من الواضح أنّه يعرف كلّ شيء، وأنه استعلم عن كلّ ما يحدث، لا سيّما عن اللعنة التي حلّت بهما. رغم ذلك، لم تعكّر سحابةٌ صفو النقاء الكامن في هاتين العينين يوماً. أمّا بالنسبة لذقنه، فتوحي بالصلابة والعزم، وتؤكّد على أنّ ما من خوفٍ يستطيع زعزعته.

بقي هادئاً بين ذراعيها، فيه من السكون ما دفعها إلى الاعتقاد، فيما تتأمّله من بين دموعها، أنه نام أخيراً، برعاية السماء التي تنطلق من عينيه.

في الواقع، كان هو من قرّر ألا يأتي حركةً كي يتأمّل وجه أمّه، حيث يتألّق بياض الندى الفضي، ويلتفّ خمارٌ تلبسه في البيت وفي أيّام الصيف، علامة الحداد؛ كما يتأمّل طيّتين ضئيلتين

حفرهما العذاب على جانبي ثغرها؛ ويسبر أغوار الأفق الغريق في هاتين العينين اللتين تملّكهما الشحوب حتى كاد يخطف البريق منهما، منذ ثلاثة أيّامٍ، منذ ذلك اليوم الفظيع. كان يحاول أن يفهم الشعور الذي يعتمل في صدر امرأةٍ مغتصَبة.

كان عائداً إلى بيته قبل ثلاثة أيّام، وهو ينقل بمشقةٍ مؤونتهما من الماء، حين رآها جالسةً على الأرضية الخشبية. ذاك منظرٌ سيحفر في فكره إلى الأبد! فقد رآها منفرجة الرجلين، مكشوفة الصدر، ممزّقة الثياب، فيما النظرة... يا لنظرتها: كابيةً، أشبه بالأموات الراقدين على طريق النبع، وقد صرعهم التشيتنك صفوفاً ممتدّةً منذ التلال، لأنّهم تجرّأوا على التزوّد بالماء بدورهم. أمّا ما خضعت له أمّه، فلم يجد صعوبةً كبيرة في تكهنه. إنّهم الفاعلون أنفسهم: فقد اقترفوا في حقّها ما يقترفونه في حقّ النساء المسلمات. وقد وقعت أكثر من مسلمة ضحيّة فعلتهم الشنيعة، ومنهنّ اثنتان من قريباته، تيماء وزهرة، بالإضافة إلى بعض الصديقات مثل سناء وزرينا وأنيسة... وعزّت يدرك ذلك أكثر من أيّ شخصٍ آخر.

ما إن وقعت عيناه على ذلك المنظر حتى ألقى الصفيحة الممتلئة حتى العنق أرضاً، عند المدخل، وعاد على أعقابه، مسرعاً نحو سلالم البناية. تذكّر أنّه رآهم ينزلون حين وصل: كانوا أربعة. رآهم مسلّحين، ويلبسون زيّ الجندية. أربعة. وتذكّر أنّه، لحظة صادفهم، شعر بخوفٍ لا مبرّر له يضيّق على أنفاسه. الأنذال!

لم يلاحظ كيف هبط الطوابق بسرعةٍ جنونية، وانطلق في الجادة، كسهم خاطف. كان حدسه يملي عليه وجهته، فيندفع بلا تردّد، ويهرول حتى يكاد قلبه يخرج من صدره. وفجأةً، رآهم هناك، إزاءه، لا يديرون له الظهر. لمّا رأى فيهم مثال الجنديّ المرتزق الفظّ، عرف أنّه وجد ضالته؛ ولعرفهم حتى ولو كان مغلق العينين.

رغم ذلك، اضطر إلى أن يتوقّف، عسى الألم الذي ينتشر فيه كالدوامة يهدأ قليلاً. في تلك اللحظة، عرف أنّه لم يعد بحاجةٍ إلى الركض بهذا القدر. فمهما كان الثمن، أبداً لن تضيّعهم أنظاره. وما كان منه إلا أن سار بوتيرتهم العاديّة نفسها، وهو يتقدّم بخطئ جسورة، وكلّه عزمٌ على أن يلحق بهم الساعة.

بلغوا مقهى وحانةً في شارع بارتيزانسكي أوليمبيجاد. دخلوا المكان. ثمّ وصل بدوره، غير أنّه لازم المدخل، مستقراً عند إحدى النوافذ الزجاجية. كانوا جالسين إلى مائدةٍ، حيث رأى أوّلهم، وعرف فيه جارهم في البناية، زيفان الصربي. عرف مشفره الأهدل، واللون الأخضر المزرقّ في عينيه اللتين تلتقيان بجذر الأنف، لا سيّما حين يتكلّم بصوتٍ عالٍ مزعج. أمّا بقية الرؤوس، فرغم أنّها كانت مألوفةً في نظر عزّت، إلا أنّه عجز عن تعرّف أسماء أصحابها. لا بدّ من أنّهم سكّانٌ في حيّه. وبينما طبع صورتهم في خياله، وعد نفسه أن يتحقّق من ذلك.

وإلى الطاولات المجاورة جلس أشباهٌ لهم، أسند أكثر من واحدٍ فيهم سلاحه إلى ساقه. أمّا عزّت، فقد تراجع خطوةً خطوة، إلى أن اختفى عن الأنظار، وقد خشي أن يتعرّف زيفان إليه.

حين يجول المرء في المدينة، كثيراً ما يقع على أمواتٍ ممدّدين بوضعية الأحياء. ولمّا رأى عزّت أمّه، لم تكن وضعيّتها تختلف اختلافاً كبيراً. فلم يفكرّ كثيراً، بل هرع إلى خزانة الملابس النظيفة، وأخرج منشفةً إسفنجية. ثمّ بلّلها بالماء الذي أحضره، وأخذ يمسح الوجه الأموميّ، فالجيد، فالصدر، من غير أن ينبس ببنت شفة. وانتهى به المطاف حتى الساقين، فأعاد بسط التنورة فوقهما. وما لبث أن نزع عنها صدارها وحمّالتها وقد استحالا مجرّد أسمالٍ ممزّقة، ثمّ استبدلهما بملابس أجمل، وهو يحيطها برعايته. بعد ذلك، أمسك إبطها بيده، وهو يدعوها إلى الوقوف. أمّا هي، فرمقته بنظرة شكرٍ هزّت مشاعره، فانهلّت بوادر دمعه، بالرغم منه، مع أنّه حاول جاهداً أن يلجمها، معلناً عليها العصيان. وامتلكت الرجفة جوانب قلبه؛ لا، إنّ هذا لا يحدث له.

حسبه أن تستعيد أمّه حواسها، وتعود إليه على هذا النحو. وفيما هو يمدّ لها يد العون، رآها تستند إلى الأرضية، ثمّ تحاول الوقوف. فقادها إلى الأريكة، حيث أجلسها، بينما جثم عند قدميها، محيطاً ساقيها بذراعيه.

كم من الوقت ظلاً متحدين هكذا؟ لا يهمّ. فالوقت لم يعد يهمَ أحداً، بل لم يعد يلقي بثقله على أحد. الوقت. وحين يندرج في خانة الموت الذي لا يغفل عنك أبداً، تقلع عن عدّ الدقائق والساعات، فيما يستحيل فراغ الأيام أزليّاً. وسيّانٌ حينذاك، إن تكلّمت أم لم تتكلّم.

ـ أمّي، لمَ يفعلون ذلك؟ لمَ يقترفون ذلك في حقّنا نحن؟

برزت هذه الكلمات بنفسها، بعد مضيّ وقتٍ طويل، كما لو أنّه حلم بها بصوتٍ عالٍ، كما لو أنّه لا يتوقّع عنها أيّ جوابٍ.

غير أنّ الجواب ظهر، إنما بعد زمنٍ ليس بقصير:

ـ لا أعرف يا عزّت.

يا لنبرتها الغريبة الأشبه بنبرة فتاةٍ صغيرة! فبإمكان المرء أن يتبيّن فيها خوفاً لا اسم له. ولو أنّ أمّه واصلت الكلام بصوتها الرهيب هذا، فإنّه على استعدادٍ ليخبّط رأسه إزاء جدران الحجرة كلّها. غير أنّه لم يملك إلا أن يرهف السمع ويترقّب.

فتابعت بصوتٍ لا يحمل أمراً في طيّاته، بقدر ما ينضح بالتوسّل:

ـ وأنت أيضاً، لا تحاول أن تعرف.

نفس الرعب المخجِل هو.

ـ أتوسّل إليك. لم يحدث شيء قط. وأنت لا تعرف شيئاً يا عزّت.

غير أنّ الصبيّ فكّر في نفسه: «لكنّ شيئاً ما حدث، حدث فعلاً. فما مصيرنا الآن؟»

ـ لن يتوقّفوا أبداً يا أمّي! لقد اقترفوا ذلك في حقّ نساءٍ أخرياتٍ! لا بل فتياتٍ أيضاً! وسيفعلون بغيرك ما فعلوه بك!

ـ أصمت يا عزّت، أصمت.

يخيّل لسامع هذا الصوت الخافت أنّه يعبر العالم بأسره، ليهرع نحو أعماق الرعب الدفينة.

وأضافت والدته:

ـ أريد أن أموت، يا عزّت.

وكمريضٍ أنهكه العذاب حتى خارت قواه، تمثّلت أمامه.

ـ أمّي!

ـ لا تقل شيئاً يا عزّت. لا تقل شيئاً آخر، أرجوك.

حلّ الصمت من جديد، وكرمادٍ باردٍ، أخفى في أعماقه معالم الغرفة كلّها: من الأثاث المتواضع، إلى الآنية الشرقية الوافدة من سوق النحاسيات، ففنون الخطّ القرآنيّ المؤطّرة، بدون نسيان جهاز التلفزيون، وغيره من الأدوات التي بدت مقولبةً في الرماد، فحاول أن يشتّته عصف الريح الأوّل الذي يخرق حرارة هذا اليوم التمّوزيّ البيضاء، لكن بلا جدوى.

إلتصقت الأمّ وابنها ببعضهما البعض، وقد فرغت منهما لغة الحوار: هل كانا يصغيان إلى ضربات المنجنيق الثقيلة التي كان

المدفعيّون الصرب يطلقونها من البعيد؟ وتدفّقت على مسامعهما صرخاتٌ، ونداءاتٌ مبهمة، وانفجارات محرّكاتٍ حانقة، وعواء أبواقٍ، قل إنّها ضجةٌ ترجّع إليهما أنفاس المدينة الملحة، وهي تصرّ على العيش بمزيجٍ من العناد واليأس. أمّا هما، فأخذا يصغيان، وقد كاد كلٌّ منهما ينسى وجود الآخر، سيّما وأنّ الجميع قد نسي أمرهم، بمن فيهم أبٌ يقاتل في مكانٍ ما من هذا البلد.

وما لبث عزّت أن ابتعد عن أمّه، هاتفاً بصوتٍ حادّ، وكأنّ الذاكرة قد باغتته:

ـ قتلوا حتى الطفل الرضيع في عائلة سماجلوفيك. تعرفين هذا الطفل، فقد جاءت به أمّه إلينا ذات يومٍ. كان اسمها سميرة، وهو سمير. أذكر أنّك وجدته جميلاً.

ـ كفى، أصمت.

ـ والآن، إنّه ميت.

فسألته نجلا وقد أخذ منها اللهاث كلّ مأخذ:

ـ أحضر لي كوب ماء عوضاً عن ذلك.

وسرعان ما وثب الصبيّ، متّجهاً نحو صفيحة الماء مباشرةً، وعاد ينتصب أمامها وهو يمدّ لها يده بالكوب. لكنّ ذلك لم يمنع السؤال المحتدم في صدره من أن يطرح نفسه ثانيةً:

ـ أريد أن أعرف فقط يا أميّ لمَ يفعلون ذلك.

هزّت نجلا رأسها وهي تحاول أن تنتحب، فما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. وفيما هي تتجرّع الماء، أحسّت بالاختناق يتملّكها وبنوبة سعالٍ تستبدّ بها. فما كان من عزّت إلا أن انتزع الكوب منها، مربّتاً على ظهرها؛ لا بل إنّه ضمّها إليه، وأخذ يلاطفها برفقٍ. رغم ذلك، لم يجرّب أن يغيّر موضوع حديثهما، فعاد يقول:

ـ كانت كلّ الإشارات تدلّ على أنّ الطفل نائمٌ، باستثناء أنّه لم يكن في سريره، وأنّه كان قد أسلم الروح. وتوافد الناس، عن عمدٍ، ليلقوا عليه النظرة الأخيرة، لكنّ أحداً لم يجرؤ على حمله، لئلا يلوّث يديه بدمائه؛ لم يستطع أحدٌ أن يرقده بين ذراعي أمّه التي قتلت بدورها، رغم أنّ عينيها بقيتا مفتوحتين مثله. هذا غريب، فقد بدا كلاهما نائماً، حتى بعيونٍ فاغرة، غير أنّ الطفل بدا وكأنّه قد تبوّل، مع أنّه كان غارقاً بدمائه ليس إلا. كنّا قريبين منهما، نتأمّلهما، ورغم ذلك ساورنا خوفٌ من الدنوّ أكثر، خوفٌ من أذيّتهما بطريقةٍ أو بأخرى. أتساءل لماذا. ألأنّهما بديا نائمين بعيونٍ مفتوحة، على عكسنا؟ لكنّ أحداً لا يستطيع أن يلومنا، فقد رأينا الجثث تتكدّس فوق بعضها البعض، أليس كذلك يا أمّي؟

لم يكن الصبيّ، طيلة فترة سرده، يعير أمّه اهتماماً. وما إن فرغ حتى أخذ يراقبها، وقد تفاجأ أنّها تركته يتكلّم قدر ما يشتهي. فإذا بها تترنّح إلى الأمام، فإلى الخلف، من دون أن تصدر أيّ

صوتٍ. ففهم. كان مردّ ذلك كلّ تلك الأحداث الرهيبة والتافهة التي قصّها: فقد تركت فيها الأثر نفسه. كان الجنون يطبق على أمّه، فيما تشنّجاتٌ تستحكم بعنقها. لكن، لو أنّه سكت فجأةً، أفلن يولّد الصمت الذي ينقضّ عليهما شعوراً لا يمكن احتماله؟ فها هما يسمعان، في طيّات هذا الصمت الثقيل، صوت تعاستهما وكآبتهما، تتخلّله انفجارات القذائف، ووقع دابّةٍ عملاقة تسحق المدينة تحت قدميها، من دون أيّ توقّف.

وما لبث أن تكلّم كمن يصدر إعلاناً مهمّاً، إنّما بنبرة مبتهلٍ يلتمس الصفح:

ـ سيوزّعون رزماتِ اليوم يا أمّي، عليّ أن أذهب.

ـ لا، لا تذهب. أتوسّل إليك، لا تذهب. لا، إبقَ هنا يا عزّت.

واختنقت الكلمة فجأةً في حنجرتها بكاءً عن العينين: ربّما لأنّ نبع الدموع قد نضب فذرفت دموعاً أخرى، من دون أن تعثر على الكلمات الحقيقيّة، الكلمات الوحيدة، من دون أن تستطيع فعل أيّ شيءٍ آخر، ولا حتى مواساة أحدٍ، ولا حتى مواساة عزّت، بل ولا حتى تشجيع الرجل الذي يدافع عنهما ـ لكن أين هو: في أيّ مكانٍ من أعالي تلك الجبال؟ ولم يجدِ كلّ ذلك نفعاً، فوحدها تلك الدموع الجافة نطقت بالكلمات.

ـ ولكن يا أمّي لم يعد لدينا ما نأكله. نفد كلّ شيء تماماً.

وامتزج صوت الأمّ بهاجسٍ داخليّ لا يقهر، ينبىء بتعاسةٍ قريبة:

- وليكن، لا يهمّني. فليلعننا الله لأننا ننتظر غرباء عطوفين كي يؤمّنوا لنا الغذاء، ويمدّوا لنا يد العون.

- عليّ أن أذهب. فيجب ألا يفوتنا ذلك.

ورفع عزّت بكلتا يديه ضفيرتين من الذهب الخالص، تتدليان من جانبي الوجه الحنون، ثمّ ردّهما إلى مكانهما تحت الشال، قبل أن يمسّدهما ويطمئنها، كما لو كان يكلّم فتاةً صغيرة:

- لن أتأخّر، أتسمعينني؟ لن أتأخّر، سترين.

وقبل أن تتمكّن نجلا من التفوه بأيّ كلمة، كان هو قد اختفى.

دفع عزّت الباب بقوّةٍ، وقد رزحت يداه تحت ثقل علبةٍ كبيرة من الكرتون، مختومةٍ بشرائط لاصقة، ثمّ دخل الشقة باقتحام. بالفعل، لم يكن قد أطال الغياب. كان محيّاه الأبيض البشرة ينضح توهجاً، بتأثيرٍ من الحرارة المحتدمة والحماسة التي ألمّت به، فيما تقاسيمه بكماء ساطعة. لم يكد يخطو خطوةً إضافية عند المدخل، حتى اتّجه نظره إلى أمّه، وهو لمّا يلقِ حمله بعد. كانت مضّجعةً على الأريكة، لا يدري أمكبوتة الأنفاس هي، أم هامدة الصوت، أم راقدةً رقادها الأخير، أم ما حالها. فكسا الشحوب وجه الولد. «إنّها لا تتنفس». فاقترب منها والعلبة الثقيلة ما تزال في يديه، وإذا به يتنسّم ظلّ نفسٍ يحيط بأمّه، أكثر ممّا يصدر عنها. عند ذلك، تنفّس الصعداء وقد غمره الارتياح، ثمّ سلّط عليها أنظاره، على ذلك النسيان الذاتي الحنون والمخيف في آنٍ، حيث لاذت الأمّ احتماءً، متخلّيةً عن العالم بأسره. كان

على وشك أن يوقظها، رغبةً في الكشف لها عن كنزه، عساها تفخر به. هي ثانيةٌ واحدة فصلته عن إيقاظها، ثمّ ما لبث أن تراجع وقد اعتراه شعورٌ دامس بأنه يكاد يدنّس حرماً قدسياً. وانتهى به المطاف إلى أن مضى، بخطواتٍ صامتة، يفرغ محتويات الطرد الذي أخذ وزنه يتزايد على مرّ الدقائق، كما خيّل إليه. وما إن ألقاه على الطاولة، حتى أخذت أصابعه تنهش، بعصبيّةٍ، في نسيج الشرائط. نعم بعصبيّةٍ، لكن من غير أن يصدر صوتاً يفوق المعقول.

وكشفت العلبة عن كنوزها: من معلّباتٍ مبرقشة، فأوعيةٍ تكسوها ملصقاتٌ رائعة، إلى أكياسٍ من السلّوفان تحوي منتجاتٍ غريبةً من كلّ صنفٍ ولون، تحمل وعداً بما لذّ وطاب من المأكولات الساحرة. وسرعان ما اكتشف ما لا يمكن أن يكون إلا ألواح شوكولا: كانا لوحين ضخمين على الأصحّ، أو قل زوجين من ألواح التزلج على الماء، انعصر قلبه لرؤيتهما عصراً. ورغم أنه كبت في صدره صرخة فرحٍ، إلا أنّ عينيه لم تتمكّنا إلا أن تغرورقا بالدموع.

أخذت اليدان تعيثان في داخل العلبة، فتلمسان هذا، وتتحسّسان ذاك، إلى أن ارتدّتا عنها فجأةً. بعد ذلك، مكثتا عند جانبي الطرد، لا تأتيان بحركة. واستغرق عزّت في التفكير، على غفلةٍ منه، في هذا المنّ الذي أرسلته إليهما السماء. فاخترقت نظراته الثابتة جدران الغرفة، فالمبنى، إلى أن صوّبت سهامها نحو البعيد.

لكن سرعان ما تمالك نفسه، عامداً إلى لوحَي الشوكولا بحركةٍ خفيّة، كحركات السارقين، فقبض عليهما خلسةً، ودسهما في قميصه، قبل أن يحتجب، كسارقٍ أيضاً، ومن دون أن يصدر أيّ صوتٍ، حاملاً في عينيه منظر أمّه النائمة.

لم يعد هذه المرّة إلا عند انقضاء وقتٍ طويلٍ جدّاً، وقد برزت تحت قميصه، عوض ألواح الشوكولا، كراتٌ، أشبه بثلاثة نهودٍ أو أربعة نبتت في صدره. أمّا نجلا، فقد طالعته واقفةً، موليةً له ظهرها، ومنهمكةً في إفراغ محتويات العلبة الكرتونية، وقد بسطت قسماً من المأكولات على الطاولة، كمن يحضّر لعرضٍ ما. فما كان من عزّت إلا أن كتّف يديه تلقائياً، وهو يحاول أن يخفي ما في جعبته.

ـ أرأيت كلّ هذه المأكولات يا أمّي؟! لقد وصلت من أميركا، وأنت التي رفضتِ أن أذهب! لم يدلّلونا بهذا القدر قبلاً قط.

يحدث له في بعض الأحيان أن يبدي، بملء إرادته، ملاطفةً تجاه أمّه.

أمّا هي، فأجابت:

ـ وهل يجرؤون على غير ذلك؟ مقابل الثمن الذي ندفعه؟ لكن أين ذهبت هذه المرّة؟

ـ كنت أتحقّق من وجود فراشاتٍ جديدة لأكمّل مجموعتي.

ـ عزّت، عزّت، أفي خضمّ كلّ ما يجري؟ ستدفعني إلى الجنون!

رجعت صدى هذه العبارات القلقة في ذهن الصبيّ فكرةٌ مثقلةٌ بالعزاء: «بعد كلّ الألم الذي سبّبوه لها، ما زالت تشعر كأيّ امرأةٍ عاديّةٍ اليوم». ولمّا لم تلتفت إليه وهي تحدّثه، استغلّ الفرصة ليتسلّل إلى الغرفة المجاورة، حيث سريره، يعلوه رفّ كتبٍ، كتبه هو. وهناك، في ذلك الملاذ، أخفى القنابل الأربع التي تلقّاها مقابل الشوكولا.

فضلاً عن المقابر، يفرش الموتى أسرّتهم أينما كان في المدينة، مستبيحين كل الأماكن المحتملة: سواءٌ أفي الساحات أم الحدائق العامّة أم المنتزهات؛ فكلّها انتقلت إلى ملكيّتهم. لكن مراعاةً للفراشات المنتشرة، لكان عزّت آخر من يتذمر جرّاء هذا الوضع. فما وقعت عينٌ قط على هذا القدر من الفراشات، تدفقت وسط ما لا يعدّ ولا يحصى من القبور، وقد كست الزهور حتى الحقير منها. لكن في زمنٍ افتقر فيه الناس إلى كسرة خبزٍ، من أين يا ترى تينع هذه الباقات الوافرة من الأزهار؟ والمثير للعجب أنّ أحداً لم يستغرب الأمر، فذلك سؤالٌ لا يطرح، بل من غير اللائق أن يطرح، بالاحتكام إلى شعور عزّت. فالسؤال الرصين الوحيد الذي يفرض نفسه هو التساؤل إن كان شيءٌ ما يبعث السعادة في هذا الوجود. أمّا هو، فلا يثلج صدره إلا رؤية الفراشات. فهو يهيم بها إلى حد الجنون.

رغم ذلك، كان يجمعها. لكنّها مجرّد حجةٍ يتذرّع بها، ليبرّر الحبّ الذي يكنّه لها. فمجرّد تأمّلها وهي تطير، نابضةً بالحياة،

مرفرفةً على غير توقّعٍ، متقلّبة الهوى، مرحةً، راقصة، تغرقه في نشوةٍ أكبر، تخطف منه الأنفاس، في لحظات سحرٍ بسيطة. كأنّها زخرفة ألوانٍ هربت من بلاد الأساطير، حلمٌ يراود النفس اليقِظة، يحكي عن بلدٍ، عن جنّة عدنٍ منسيّة، يصوّر فكرةً تختال في الوقت عينه، وبالطريقة نفسها، على غير توقّعٍ، متقلّبة الهوى، مرحةً، راقصة، تمضي سائرةً نحو الفردوس الذي دائماً ما يتعرّفه عزّت، ولو مغمض العينين: فالفراشات ليست إلا ذاك. هي أرواح الأزهار، وتنهيدات الروح، وإلهامٌ من الملائكة.

لهذا، لم يسمح لنفسه مطلقاً أن يمسك إحداها عن طيبة خاطر، ولو كانت الفراشة الأجمل والأبهى بين رفيقاتها، بل يجب أن يركض في إثرها، بين ذهابٍ وإيابٍ لا متناهٍ، مانحاً إيّاها فرصةً تلو الأخرى. وحتى لو فعل ذلك، فقد يحدث له أحياناً أن يتّخذ المطاردة مجرّد لعبةٍ، فيعود أعقابه، واهباً الفراشة حريّتها، لترحل في تلك اللحظة سالمةً من أيّ أذى، وهي تنقل الرسالة التي حمّلها إيّاها. ويروح هو يودّعها بنظراته، قبل أن تختفي وهي ترفرف أمامه، على غير توقّعٍ، متقلّبة الهوى، مرحةً، راقصة. لكنه يبقى شاخصاً، حتى ما بعد اختفائها، وهو يرافق طيفها بنظراته. أمّا هي، فتحمل إلى العالم رسالة الوصال الثمينة التي وجّهها هو وهؤلاء الأموات الذين يقبعون في المدينة بأزهارهم، فيستنفدون من أماكنها أكثر مما يستنفده الأحياء، ويظلّون بالنتيجة بشراً. وبالتالي، وجب عليها أن تجعل الحلم يستمرّ، وتؤمّن يقظة البشرية وجوابها.

جلس عزّت على درج البناية، وذقنه بين كفّيه، وراح ينتظر بصبر.

لا بدّ من أنّ زيفان سيعود عاجلاً أم آجلاً، فالشمس تشرف على المغيب. بين الفينة والأخرى، كان يشعر ببرودة الفيء تلفحه لبرهةٍ. قبل أن يزول إحساس الغبطة هذا، وتسيطر الحرارة المحرقة من جديد.

في تلك الأيام الأخيرة، لم تمرّ ساعةٌ، أصباحاً كانت أم عصراً. لم يجلس فيها عزّت على تلك الدرجات، وهو يتربّص. بعينٍ لا تغفل، كلّ حركةٍ من حركاته. فكان يرى زيفان بصحبة شركائه الثلاثة، يقومون بزياراتٍ منتظمة إلى تلك الأماكن نفسها، حيث اقترفوا فعلتهم المشؤومة. ثمّ يراه يصطحبهم. كمن يقدّم أضحيةً في طقسٍ ما، إلى مقهى شارع بارتيزانسك أوليمبيجاد عينه، حيث يفرغون الكأس تلو الأخرى. في صمتٍ تام.

لكن، من سوء حظّ عزّت أنّه، بينما ينتظر في عتمة السلالم الدامسة، كثيراً ما يرى عدّة مستأجرين، أو مجهولين، يدخلون المبنى ساعة يدخله زيفان. فلم يحدث مرّةً أن شاهده وحيداً، بل كان هذا الشخص يصعد مثلهم، بصوته المزعج وعينيه المطفأتين، فيكاد، في كلّ مرّة، أن يصطدم بعزّت، ويروح يطلق الشتائم الثقيلة. وفي نهاية الأمر، يلج مسكنه، وينتهي كلّ شيء بسلام.

غير أنّ القنوط لم يصل إلى قلب الصبيّ. فلا بدّ من مرور مساءٍ، يجتاز فيه زيفان عتبة المبنى، وحيداً.

ولم يطل مجيء هذا المساء. عند تلك اللحظة المنتظرة، انتصب عزّت مذعوراً، وهو يترصّد فريسته بكلّ عضلةٍ من عضلات جسمه، حتى إذا ما بدأ الرجل صعوده، تأكّد من أنّ السلالم ما زالت فعلاً فارغةً من أيّ إنسان.

عند ذلك الحين، أسند الفتى صدره إلى الدرابزين، وصرخ، وهو على بعد طابقٍ من زيفان:

ـ أمسك يا زيفان، هذه لك!

فضمّ الرجل، في الأسفل، كفّيه من دون وعيٍ، قبل أن يتلقّى القنبلة التي أُرسلت إليه. أمّا عزّت، فوثب من مكانه، متسلّقاً الدرجات.

كان قد دخل شقّته حين سمع الانفجار يهزّ أرجاء المبنى.

ـ خلال النهار، يقبل وحشٌ من نارٍ إلى المدينة. وبعد أن يترك الليل يتسلّل إلى المكان، يشرع بابتلاع قسمٍ منها.

ـ يجب أن ننام الآن، يا أمّي.

ـ إننا نعيش لحظاتنا الأخيرة في كلّ وقتٍ، يا عزّت: فدعنا لا نمضيها نائمين.

تأجّج الصمت المطبق في أرجاء الليلة التي سجنهما الوحش داخل أسوارها، في ليلةٍ خيّم عليها الوحش كسائر الليالي.

سكتت نجلا عن لغة الكلام. لا شكّ في أنّها استسلمت للنوم الآن، كما تمنى لها عزّت طويلاً أن تفعل. وفجأةً:

ـ يخلع المرء ثيابه لينزل إلى الماء. فمن واجبه إذاً أن يخلع عنه الأفكار والكلمات التي يلبسها كلّ إنسانٍ، قبل أن يركن إلى النوم. لكن إن كان يستطيع خلع ملابسه، فكيف السبيل إلى خلع الأفكار؟

كانت عينا عزّت تجحظان في الظلام، فيما هو يقول لنفسه: «لا أريد النظر لا أمامي ولا ورائي، بل حيث أنا موجودٌ الآن وحسب. فأكتشف كيف أنجو. برفقة أمي، إن كان هذا ممكناً».

وأضاف: «لم تكن بقايا زيفان كافيةً لوضعها في تابوتٍ، وبالتالي، لا روح لديه لتنبعث بين رفرفة الفراشات السعيدة».

ـ أسمعتَ يا عزّت؟ هذا انفجار.

ـ لا يا أمّي.

ـ بلى، وها هو يتكرّر.

ـ لا بدّ من أنّه مبنى انهار أخيراً.

ـ فوق سكّانه؟

ـ كلا، بالتأكيد.

ـ آه يا عزّت، كيف لك أن تكون متأكّداً هكذا؟

ـ لأنّني أعرف.

ـ لكن ما لا تعرفه أنّهم سيكسّرون الأرض في نهاية الأمر، ثمّ يكسّرون السحب، وبعدها السماء.

ـ نامي يا أمّي. لا تشغلي بالك بهذا.

ـ لا أشغل بالي بهذا!

وانتشر الصمت من جديد مترصداً، إنما من غير أن يلقي عليهما بثقله. وحين امتدّ هذه المرّة، تصوّر الصبيّ أمّه تجذّف فوق الماء بسلامٍ، بعيداً عن هذه الأرض التعيسة.

رغم ذلك، اجتاحت أرجاء الليل الواسعة، وخاضت فراغات العدم، ثمّ عادت كلمةً حالمة، رقيقة، تكاد تكون طفولية، وتجسّدت مجدّداً.

ـ إنّه كأحد أفلام الحروب، باستثناء أنّنا نحن أبطاله، وأنّ الرواية حقيقيةٌ. ألا توافقني الرأي، يا عزّت؟

ـ نعم، هذا صحيح.

ـ سأعلّمك يا بنيّ وقائع هذه الحرب وشؤونها، وسرّ اختلافها عن بقيّة الحروب. السرّ أننا نعيش في عالمٍ، يريد الجميع فيه أن يحظى بالكلمة الأخيرة.

ـ ربّما يكون هذا صحيحاً يا أمّي. نامي الآن، وارتاحي قليلاً.

ـ وفيما نحن ننام، يفرغ الوحش من التهام المدينة بأسرها.

ـ لا وجود للوحوش. لا وجود إلا لرجالٍ يتقاتلون.

ـ إعلم يا بنيّ أنّنا لا نستطيع أن نستعجل لا ظلّنا ولا موتنا.

ـ باالله عليك يا أمّي، لمَ تتكلّمين هكذا؟

خلال الأيام التي تلت، لم يختفِ صوت الرشاشات ومدافع

الهاون، وبالإضافة إليها دوّت ثلاثة انفجارات زلزلت قواعد مبنى في الأرجاء، معيدةً الكرّة مرّةً أخرى: فالانفجارات تدوّي في قفص سلّم من السلالم. لكن في خضمّ كلّ ذلك الوابل الذي ينهال فوق رؤوسكم، ماذا عساكم أن تقولوا بعد؟ فلا تكادون تفغروا أفواهكم بالكلام، حتى تحوّل عنكم الأنظار مصيبةٌ جديدة. عند ذلك، تضيفون ما في جعبتكم إلى البقية، وأنتم تعلمون أنّ شيئاً لن يتغيّر، فأنتم وغيركم قد نلتم ما يكفي من الويلات والأهوال. ولا تنسوا تلك المسألة المعضلة التي تقضّ مضاجعكم كلّ يومٍ: البقاء على قيد الحياة... فتجرون وراء لقمة الخبز، والماء، والشموع، وزيت الكاز، وبيضةٍ، وحطب التدفئة. وعوض أن تقعوا على أحد هذه الأساسيات، تجازفون على الأرجح بحياتكم. لكنّكم تغامرون بها رغم ذلك، بما أنّه المفروض.

ذات يومٍ، رأى عزّت أكثر من جارٍ ينزلون السلالم، والفأس بيد كلّ واحدٍ منهم، فيقتلون الشجرة الوحيدة التي تنمو إزاء مبناهم. كان يعرف أنّها شجرة دلبٍ. رآهم يجردونها، فتتناثر الأجزاء التي تشكّل جذعها، خضراء قاتمة تارةً، فخضراء فاتحة طوراً، يتراوح لونها بين الأخضر والأسمر حيناً، وتكاد تكون بيضاء حيناً آخر. فسخوها من جذورها، ثمّ تفرّقت القطع، وقد نقلوها على عجلٍ. بعد ذلك، حدث ما حدث... غريبٌ ما حدث... إنّها العصافير، عصافيرٌ ألفت وجود شجرةٍ هنا، فصارت

تحوم حولها، لتلوذ من خطر القنابل. ولمّا أرديت الشجرة، أخذت تدور على نفسها، تقلقل سكون الهواء، ثمّ، في نهاية المطاف، طارت بعيداً بخفق الجناح، وهي لا تفقه ما يجري.

إنّه الموت. فامنحوا أنفسكم هدنةً صغيرة لتفكّروا فيه.

دوّى من الانفجارات أربعة، كلّها متشابهة. كان عزّت يعود، إثر كلّ واحدٍ منها، وعيناه تتأجّجان جنوناً، فيسند ظهره إلى باب شقّتهما المغلق، ويتسمّر مكانه. كان يشبه تمثالاً، تلتصق ذراعاه بالجسد، وترتفع الكتفان، فيما الفم، في وجهٍ بلون الطبشور، فاغرٌ، تمثالاً لا يتنفّس.

أمّا نجلا، فتصعقها هلوساته حتى لا تجرؤ حينها على الدنوّ منه. عوض ذلك، كانت تتأمّله عن بعدٍ، والخوف يعتريها، تحاول أن تقترب منه بلا جدوى، إلى أن تتملّكها الرجفة فجأةً، وتتغلّب عليها مشاعرها: فترتمي عليه، كمن يسير في نومه، ثمّ تمسكه، وتحيط رأسه بذراعيها، وهي تضمّه إلى صدرها.

عندئذٍ، تلتحم في ذلك الجسد الذي يطوّق عزّت كلماتٌ مخنوقة أبداً لا تتغيّر:

ـ لا يجوز قتل الناس، أليس كذلك يا أمّي؟

الرسالة إلى أمّي

خانه الصبر في نهاية المطاف، فلم يستطع إلا أن يسأل:

ـ كيف استطعت أن تتزوّجي ذلك الرجل، يا أمّي؟

أخرس وقع الصدمة السيّدة ويزر التي يتحدّى جمالها المتألّق تراكم اللحم في جسدها. صحيحٌ أنّه يدلّ على صحةٍ ممتازة، غير أنّه يفضح أيضاً سنيّها التي جاوزت الخمسين بأشواط. كانت ترتدي ثوباً أنيقاً من دار شانيل، يتألّف من سترةٍ وتنّورةٍ لازورديتيّ اللون، يماثلان عينيها زرقةً، ويتماشيان مع بشرتها الذهبية، حتى يخيّل للرائي أنّهما خلقتا من أجلها.

ـ أتقصد أباك يا دافيد؟

ـ نعم، أبي، أبي!

كشفت كلمة أبي التي تفوّه بها الفتى عن نبرةٍ تهكّمية، أوحت أنّ حبل سخريته لن ينقطع هنا. لكن لا، فقد توقّف هزؤه عند هذا الحدّ، وبقي هكذا، تتنازعه الشكوك المجفلة، ويتلاعب به غضبٌ مكظوم.

أمّا السيّدة ويزر، فارتسمت على وجهها أمارات الحيرة، ممّا يدلّ على أنّها لم تفهم ماذا يقصد ابنها، أو إلامَ يهدف.

- ما الأمر يا دافيد؟ ماذا يجري؟

لكنّ الشاب لم يعلن عن جوابه، لا بل إنّها شعرت أنّ جعبته قد فرغت من الكلام. فبقيا على تلك الحال، يواجه كلٌّ منهما الآخر.

لمّا رأته على هذا النحو، ابتسمت السيدة ويزر بمزيجٍ من الحنان والتسلية. كانت ابتسامةٌ لا ترى الأمّ بأساً من رسمها على وجهها في حالاتٍ مماثلة، فلا تنير محيّاها وحسب، بل جسدها كلّه. لكنّ ابنها أشاح بوجهه، وعيناه تنضحان بالصرامة والكآبة. فما كان من السيدة ويزر إلا أن أخذت حذرها في تلك اللحظة، كما تفعل دائماً عندما تتبيّن تلك الملامح في مقلتيه، فانقبض قلبها وفكّرت: «ربّاه، يا لعينيه الباهرتين!»

لكنّها لا تتعرّف إلى ابنها اليوم، لا سيّما بملامحه وتعابيره هذه التي يسيطر عليها العناد والغموض. فكلام عينيه اليوم مبهمٌ، لا بل إنّ قراءته ضربٌ من المستحيلات.

فانتابها قلقٌ متزايد، غير أنّه لم يخفّف من تألّقها الطبيعي وقد ازدان بالابتسامة نفسها وبشعلة الذكاء المتقدة عينها، وسألته:

- ماذا تملك ضدّه؟ لا تنسَ أنّه والدك وأنّه سيبقى والدك حتى النهاية ولو أنّ فيه صفاتٍ مزعجة، فتلك حالنا جميعاً.

- إنّه ليس منّا! ليس فرداً من عائلتنا.

تناهى إليها إنكاره وفي طيّاته مزيجٌ من العنف والقوّة. فتقبّضت ابتسامتها، من غير أن تتلاشى كلّياً:

ـ كيف تقول هذا يا دايف؟ إشرح لي، أرجوك.

ـ إنّه غريبٌ يا أمّي، غريب.

ـ أبداً. إنّه يهوديّ أيضاً، مثلي ومثلك.

ـ لا يا أمّي، نحن يهوديّان من مخيّمات الموت! أمّا هو، فلا!

هذه المرّة، تغيّر لون وجه السيّدة ويزر الجميل. وفجأةً، أخذت نظراتها تلمع بوميضٍ مجنونٍ، لكنّه لمعانٌ يفتقر إلى أيّ انفعال، فيما هي عاجزةٌ عن كبح جماح الحازوقة التي تملّكتها. لم يكن هناك شكّ أنّها تضحك، لكنّها لم تطلق قهقهاتٍ فاضحة، حرصاً على ألا تضبط ابنها في تفاهةٍ لا رجوع عنها.

ـ كيف تجرؤ على اتّهام أبيك بهذا؟ لم تعد تدرك ما تقول، بكلّ بساطة. فأنت لم تكن قد ولدت بعد، في تلك الحقبة. يستحيل أن تكون قد ولدت، فأنا لم أتزوّج إلا بعد ثلاث سنواتٍ من عودتي من ...هناك!

وكرّرت:

ـ بعد ثلاث سنواتٍ يا دافيد. لم تكن أنت قد أبصرت النور بعد. فكيف لك أن تتحدّث عن مخيّمات الموت؟

ـ هذا ما يخيّل إليك يا أمّي. هذا ما يخيّل إليك. هذا ما

تعتقدينه. لكنّني كنت، أنا أيضاً، هناك. أنت لا تعرفين ذلك، لكنّني كنت موجوداً. أؤكد لك، كنت موجوداً! كنت موجوداً!

وزلزل مشاعر دافيد نحيبٌ لا يقلّ عن كلماته عنفاً وقساوة. لكنه تمالك أنفاسه، وكبت شهيقه في صدره.

أمّا السيدة ويزر، فأحاطت بيديها وجه الفتى.

هنا، استعاد رباطة جأشه.

واستعادت ملامح الأمّ حالتها الطبيعية بدورها.

قرعت السيدة ويزر باب دافيد وفق الرمز الذي توافقا عليه: دقتين متسارعتين، فدقتين متباعدتين. لكنّ الجواب بقي الصمت. رغم ذلك، كانت تدرك أنّه موجودٌ. فعمدت إلى الدقّات نفسها ثانيةً، لكنّ الجواب لم يتغيّر، بل بقي هذا الباب يستقبلها بوجهه الخشبيّ عينه.

لكنّ السيّدة ويزر لم تكن امرأةً تستسلم بسهولةٍ. فمكثت مكانها في ترقّبٍ دائم، وهي توطّن نفسها على الصبر. فالصبر شعورٌ خبرته، تعلّمته منذ كانت هناك.

مضت ثلاث دقائق أو أربع على الأقل ثمّ، من دون أيّ تحذير مسبق، ارتفع صوت دافيد من خلال الباب فجأةً، رغم أنّ أيّ صوتٍ لم يدفعه إلى ذلك. بدا صوته من الدنوّ ما جعل جوارح السيدة ويزر ترتعد بغتةً، ولو أنّها لم تعتد التحكم بأعصابها، لكانت قد أقدمت على التراجع.

ـ ما الأمر يا أمّي؟

لا بدّ من أنّه كان يخاطبها وفمه يلثم الباب. مع ذلك، بدت الكلمات خافتةً، مخنوقةً، مبهمة، إلا أنّها استطاعت أن تفكَ الهمس الذي تسلّى بنطقه:

ـ ولكن ماذا تريدين يا أمّي؟

ـ من واجبي أنا أن أطرح عليك هذا السؤال. لـمَ نقلتَ هذا الأثاث كلّه إلى الخارج؟ إن كان من سببٍ لذلك، فيستحسن أن تزوّدني به. تكلّم يا ولدي.

طال الصمت، مخيّماً على الجهة الأخرى من الباب. لَكن ما لبث أن تبعته ضحكةٌ خفيضةٌ، رخيمة، قبل أن يعلو صوت دافيد القريب من جديد:

ـ أكنتم تملكون أثاثاً في مخيّمات الموت، يا أمّي؟ أتتصوّرين نفسك متهالكةً على أثاثكم هذا، هناك؟

انطفأ الصوت للحظاتٍ، ثمّ عاود:

ـ أكنتم تعيرون تفاهاتٍ كالأثاث انتباهكم؟ ألم يكن ثَمَّة احتياجاتٍ أساسيةٍ ملحّةٍ أخرى؟...

فما كان من السيدة ويزر إلا أن أجابت بنبرةٍ صافية:

ـ بلى يا دايف، كانت ثمة احتياجات ملحة أخرى.

أمالت رأسها قليلاً واستغرقت في التأمل، وقد بدا أنّها رزحت تحت ثقل الحذر. كانت ترهف سمعها وهي تخاطب هذا

الباب بآمالٍ لا يعلم بها إلا الله. فقد استحال أكثر من بابٍ، أو أقل، لا يهم، حاجزاً يفصل بينهما ويجمعهما في آنٍ، حدّاً وتابوت عهدٍ، لا يمكن لومه على وجوده وتأدية واجبه، لأنّه موجودٌ وحسب.

تريّثت السيدة ويزر قليلاً. ولـمّا خفت صوت ابنها حدّ الخمود، ذهبت من دون أن تضيف كلمةً أخرى. وفيما هي تسير، اضطرت إلى التلوّي بين أثاث دافيد المكدّس في الرواق الرحب.

كان دافيد جالساً على الأرض نفسها، محصوراً في زاويةٍ من زوايا الحجرة، مسنداً رأسه إلى الجدار، ومرجعاً ركبتيه إلى صدره. كان غافياً، أو هكذا بدا، وقد تغطّى بدثار بنّي، ولعلّه نائمٌ فعلاً، لكنّه يغمض عينيه في كلّ الأحوال. ولكن، مهما كان من أمرٍ، فقد ارتدى قناع النوم، حتى استحال وجهه أكثر وجوه العالم غرابةً، تتسلّل إليه أحياناً ابتسامةٌ وقعت في الشرك.

أجال والده بصره في أنحاء تلك الحجرة الفارغة من أثاثها، بل المعدومة من أيّ شيء. فقال في نفسه: «لقد نُظّفت من كلّ شيء. باتت مكاناً ناقصاً، غائباً، من دون ميزةٍ خاصّة به». ثمّ قرّب نظارتيه من عينيه، كما لو أنّه يريد أن يتمعّن فيها أكثر، أو أن يحدّد فراغها بشكلٍ أفضل.

أمّا السيّدة ويزر، فقد غطّت وجهها بكفّيها وهي لا تنظر إلا لدافيد الملتفّ على نفسه، في زاويته. كان الخوف يتملّكها، وهي تتساءل إن كان ينام، أو إن كان يجدر بها أن تثق بظاهر الأمور؛

لكنّ شيئاً ما صرف عنها تلك الفكرة. رغم ذلك، كانت تكتم أنفاسها من دون وعيٍ فعليٍّ منها. ترى ما سبب ذلك؟ أهو هذا المنظر، أم العفونة الغامضة التي تملأ الأجواء؟ ومن أين لعفونة الأجساد المهملة والمتلفة هذه أن تصدر؟ بدت الرائحة، على تردّدها، مدوّخةً، لكأنّها تنبعث من ركام جثثٍ ومطهراتٍ انتشرت من هناك. من هناك تنتشر، وتعلق بهذه الأيام. تتغلغل في أنفاسها، تطرق ذاكرتها رائحة كلّ ما خبرته هناك. وطالعتها أسلاك الحديد الشائكة، تطوّقهما بمستوياتٍ مختلفة، مجرّد تقليدٍ رسمته على الجدران ريشةٌ دقيقة ماهرة، أيقنت السيّدة ويزر توّاً أنّها ريشة دافيد. واستعادت ذكرى يومٍ طلب منها فيه علبة ألوانٍ، وتذكّرت كم استغربت طلبه هذا، لكنّ أحداً في البيت لم يكن يقوى على أن يرفض له طلباً. لم تكن ثمة ضرورة لأيّ تعليقٍ، فالوهم من المثالية ما يكاد يلتبس على المرء، حتى يحسبه حقيقةً. لا بل إنّ امتداد هذه الأسلاك ابتدع وهماً آخر، وهماً بفضاءٍ غير مسكونٍ ما وراءه، بأفقٍ معدومِ العصافير، معدوم الأشجار، لا سفر فيه على جناح الحلم.

عندئذٍ، تراجع السيّد ويزر وزوجته بحركةٍ واحدة لم يخطّطا لها البتّة، فغادرا الغرفة على أطراف أصابعهما، فيما السيّد ويزر ما زال يمسك بأحد فرعي نظّارتيه.

حينذاك، فتح دافيد عينين، فيهما من الشفافية ما جعل العالم يتلاشى في حدقتيهما.

ثمّ أسند صدغه إلى الجدار، وسافر: مشيت ومشيت، استهلكت من الفصول والأشهر والأيام ما لم أحسب له حساباً، في سبيل أن أصل إلى أبواب مدينة التجمّع الأخيرة، تلك التي كان يجدر بي أن أبلغ أسوارها بحلول هذا الوقت. لطالما تراءت لي أنوار مجدها من بعيد، لكنّني ما زلت لا أبلغها بعد. هل أنجح في مسعاي في نهاية المطاف؟ وإذا بصوتٍ يهمس في أذني: «لست وحدك من شدّ الرحال للقيام بتلك الرحلة، لكنّك لن تكون آخر من يدخلها. قريباً، تذهب لتلقي رأسك وترتاح. فقد عبرت الصحراء كلّها تقريباً».

كان دافيد قد اكتسب سحنةً لا تقاس بالعمر، ومظهر من يصبّ اهتمامه على داخله، فلا يعود يعير انتباهاً إلا... لماذا؟ لأيّ حقيقة؟ أهي حقيقة ظلٍّ ضيّع الإنسان الذي كان يعكس خياله؟

لم يعد يقفل بابه. أمّا أن يكون الباب قد أقفل نفسه، بحركةٍ طوعية، فذلك ما لا يعنيه؛ وقلّما يهمّه أيضاً أن ينفرج في بعض أوقات النهار، ليفسح المجال للخادمة وهي تحمل إليه صينيّة الطعام. لا بل إنّه كان مستعدّاً للتخلي عن هذا الطعام نفسه، رغم أنّه يتكوّن من عصيدةٍ خفيفة لا تشبه إلا الماء العكر. ولكن في مطلق الأحوال، كان هذا كلّ ما يقبل به منذ بعض الوقت.

حين دخلت السيدة ويزر غرفة ابنها، وجدته واقفاً، عاري القدمين، وهو يواجه الحائط. لكن بالنظر إلى الحدّ الذي وصل إليه الوضع في ذلك الوقت، لم يكن يجدر بموقفه هذا أن

يصعقها. في المقابل، زرعت بيجامته المخطَّطة من الأعلى إلى الأسفل البلبلة في أفكارها. فلا بدّ من أنّ هذه التخطيطات السوداء من صنع يديه لا محالة، سيّما وأنّ بيجامته هذه هي ثوب المنامة الذي لا يخلعه قط.

فصرفت بأسنانها جرّاء هذا المنظر، من غير أن تنجح في الارتخاء، ممّا اضطرها إلى سؤاله وهي على هذه الحالة:

ـ ما الذي فعلته يا ولدي؟

وجاء الجواب سؤالاً طرحه على الجدار:

ـ فعلت ماذا؟

ـ بيجامتك يا دافيد.

ـ لقد بلغت مقصدي. وإنني أنتظر النهاية الآن.

ثمّ التفت فجأةً، وأخذ يتأمّلها. بل إنّ ما يتأمّلها ويتأمّل ثناياها في الثوب اللازورديّ الأزرق كان نظرةٌ تفيض بغسقٍ متخثر. فعبرت خواطره فكرةٌ وحيدة: بأيّ معجزةٍ نجت ثنايا هذا الجسد من محرقة الجثث؟ وتعثّرت روحه بدياجير لا سبيل إلى سبر أغوارها، لن يغتصبها ولو وميض ألف شمسٍ؛ هي الغياهب التي لا يتصوّرها عقلٌ، التي نجت أمّه من براثنها. ترى، بموجبِ أيّ سرٍّ غامضٍ صانت السماء ذلك الكائن، أمّه، وما تزال تصونه حتى اليوم؟ وبموجب أيّ سرٍّ غامضٍ آخر تصونه هو، دافيد، فيما هو يدرك أنّ محرقة جثثٍ ما تزال تكمن في مكانٍ ما، جاهزةً للاشتعال من جديد.

ـ أنتظر أن يسمّموني بالغاز الحربيّ يا أمّي. يسمّمونني ثمّ يحرقونني. هذا الجسد المحترق الذي سأكونه لن يكون أنا. لكن يجب أن أحترق لأصير غير هذا الجسد التعيس.

إخترقت نظرات دافيد أمّه كما تخترق باباً مفتوحاً، فرأى ما رآه: أخيراً، سأتمكّن من إلقاء رأسي مرتاحاً، سألقيه عند إحدى عتبات مدينة التجمع، وأرتاح. لطالما تقدّمت بخطىً مكروبة، لكنّ ذلك انتهى الآن، أو شارف على الانتهاء. سأمضي نحوها، لكن من المحتمل أنها تمضي نحوي بدورها. يا لتلك الفكرة التي تثلج الصدر، تماماً كما يرقص الفرح في عينيّ حين تتراءى أمامي تلك الجدران، هناك. سأدخلها عمّا قريب، وحينذاك أرتاح. تقدّم. هيّا، خطوةً بعد. وخطوة أخرى. أنجداني يا ركبتيّ، أغيثاني. وأنت يا قواي، لا تخونيني. مزيداً من الجهد للمرّة الأخيرة. لقد إبتسم لي الحظ، ولن يطول الأمر حتى يكشف لي عن ابتسامةٍ عريضة.

ـ دافيد، لا شكّ في أنّك لا تعرف ذلك، لكنّني أذكّرك أنّ استئناف دروسك الجامعية وشيك. ألا تعتقد أنّه يجدر بك الاستعداد؟

إشرأبّ الصبيّ من حيث جلس القرفصاء، وهو يرمق أمّه بنظراته من بعيدٍ، من بعيدٍ جدّاً.

ولمّا انقضى عمر الهنات المتتالية، تكلّم بصوتٍ عاديّ:

ـ أمّي، كيف يعقل أنّك تكلّمينني عن الجامعة وعن الدروس،

بينما أرقد أنا في مخيّم الموت، على عتبة محرقة الجثث؟ كيف تقوين على ذلك؟

ـ وأنت يا دافيد، بأيّ داعٍ تسبّب التعاسة لنفسك من غير داعٍ، وتسبّب لنا التعاسة بدورنا؟

ـ عفواً يا أمّي؟

إثر هذا السؤال الذي صاغه الفتى بصوتٍ خافت، ترك الصمت يلفّه بجناحه.

بدا أنّه قال كلّ ما يرغب في قوله. وبإمكان المرء أن يجزم، حين يراه على وضعيته هذه، كدر النظرات، يجلس القرفصاء ويستمرّ في جلوسها على ما يبدو، أنّه لن يفغر فاه ثانيةً.

غير أنّه كرّر كلاماً بصوتٍ يكاد لا يسمع هذه المرّة:

ـ لقد نجوت أنت يا أمّي. أما أنا، فلن أنجو.

رامت السيدة ويزر أن تناشد عبراتها طلباً للمساعدة، لكن منذ عودتها من المخيّمات وهذه العبرات تمتنع عليها، وتلك العينان تبقيان جافّتين.

وتابع دافيد بالصوت العاري البعيد نفسه، ربّما لأنّه رأى كيف تسمّرت في مكانها:

ـ أنا حزينٌ... حزينٌ من أجل البشر... من أجل من يتعذب، ويقع ضحية غيره من الناس، حتى من غير أن يدرك ذلك، وحزينٌ من أجل من يدركه أيضاً. ويغلبني الحزن من أجل

جلاديهم أيضاً. نعم، حزينٌ أنا من أجل الإنسان الذي أمسوه. حزينٌ من أجل الإنسان.

لكن السيّدة ويزر كانت قد اختفت.

... الاسم الذي يطلقه عليك الآخرون، هذا الاسم الذي يعرفه الجميع، لست مضطراً إلى الدفاع عنه ضدّ المزعجين وتطفلهم، بل تعلنه جهارةً وتتباهى به... اسمٌ هو، لا يميّز بينك وبين أيّ شيء، مهما كان، سواءٌ مكنسة أو حذاء أو قفص، ما أدراني!

لا، ليس هذا الاسم ما أعنيه. ليس هذا، فلا أنت مضطرٌ إلى إسكاته، ولا إلى تبرير شرعيّته. إنّني أعني الاسم الآخر، ذاك الذي تنادي به نفسك حين يحدث لك هذا، ذاك الاسم الذي يجهله أبواك نفسيهما، ويقبع في نفسك مختوماً كما كان، من قبل ولادتك... ذاك الاسم الذي ولد ليحرّرك من الآخر، ليحرّرك من كلّ شيء... ذاك الاسم الذي يصهر فيك الحقيقة، فتفضّل أن تقصّ لسانك على أن تتفوّه به وتفشيه. فبواسطة ذاك الاسم، سيناديك الملاك إلى... حين يضرم الهواء حولك بشعلة يومٍ صباحيّ مشرق....

كانت السيّدة ويزر قد أمسكت بمقبض الباب، لكي تدخل غرفة ابنها، حين وقع نظرها على مغلّفٍ أبيض كبير عند قدميها. فما كان منها إلا أن انحنت لتلتقطه وقد ساورها بعض القلق. كانت رسالةً، وقد دُسّت من تحت الباب. قرأت السيّدة ويزر على

غلافها: إلى السيّدة ميريام ويزر، والدة دافيد، فلم تجد صعوبةً في التعرف إلى خطّ ابنها. فأخذت ترجح الرسالة في يدها، وقد أخذ منه التفكير كلّ مأخذ.

في نهاية الأمر، عدلت عن الدخول، عائدةً على أعقابها.

دخلت قاعة الاستقبال، والرسالة في يدها، ثمّ ترامت في مقعدها المفضّل. ولمّا لم تكن الرسالة مغلقة، لم تضطر إلا إلى إخراج الإحاشة المدرجة في الداخل. في تلك اللحظة، باتت الرجفة تتملّك أناملها، وما كان منها إلا أن أمسكت نظارتيها، بحركةٍ آلية، من فوق منضدةٍ قريبة، وأخذت تقرأ. لم تكن قد تخطّت الأسطر الأولى، حتى خيّل إليها أنّ الهواء ينقص تدريجيّاً. فسارعت ترفع يدها الطليقة إلى عنقها، كأنّما تحاول أن تتنفّس؛ غير أنّ تلك اليد وصلت إلى منتصف طريقها، وما لبثت أن سقطت فجأةً.

الرحيل الكبير

ـ إذن، هل وصلك خبر ما فعلوه، أنت أيضاً؟ ألا تعتقد أنهم وقحين؟ ما رأيك يا جيلبير؟

ـ عمّا تتكلّم؟ أهذا خبرٌ آخر لا يعلم به إلا أنت؟ مارسيل أيها اللعين! كم أنت ماهرٌ في تنشُم الأخبار! هيّا، أفرغ جعبتك. ما قصّتك هذا اليوم؟ يا إلَهي، أجهل من أين تتصيّد أخبارك، لكنّ مصدرك لا ينضب أبداً.

ـ «ما قصّتي هذا اليوم»؟ أرى يا صاح أنك لم تعلم بالخبر بعد، وهذا غير معقول! لقد ولّوا. أدبروا. كلّهم! غادروا المكان وهربوا. لم يبقَ منهم شخصٌ واحد.

ـ من تعني بكلّهم؟

ـ لقد أصبت هدف مسامعك، أليس كذلك؟

ـ هيّا، تكلّم، ودعني أحكم بنفسي.

كنت جالساً بالقرب من المشرب حيث مكث مواطنان، يسند أحدهما، أيّ المدعوّ مارسيل، مرفقه إلى الطاولة، متفرّساً في

الآخر الذي اكتفى بالنظر إلى قدحه. ولمّا كان هذا الأخير يقف إلى جانبي، من غير تفكيرٍ في الجلوس، فلم أستطع تبيّن ملامح وجهه: لكن قلّما همّني ذلك، فما وفدت إلى هذا المكان لأعكف على علم الفراسة، ولا لأصغي إلى حكاياتهما، على وجه الخصوص.

لكنّ مارسيل هذا راح يقصّ أخباره بأسلوبٍ استثنائيّ يسحق العقل سحقاً، على عكس شريكه، بسبب الجلبة الاعتيادية التي تسود في المقهى من دون شكّ، ممّا يضطر المرء إلى سدّ أذنيه كي لا تصل حكايته إلى مسامعه. وبالنظر إلى الهيجان الذي استحكم بحواسّه، يبدو أنّها حكايةٌ مثيرةٌ للغاية.

كانت حكايةً مثيرةً بالفعل. فأنا أعرف ذلك الآن وقد عدت إلى منزلي، وها إنني أفكّر فيها ثانيةً، فأتمنّى لو كنت قابعاً في أيّ مكانٍ، ما خلا ذلك المقهى، لحظة سمعتها. كنت قد تركت طاولةً، طاولة مكتبي، لأجلس إلى طاولةٍ أخرى، في حانةٍ صغيرة، وأنا أنوي أن أخفّف عن نفسي قليلاً، فإذا بي أقع على شخصين، لا يتمتّعان بأيّ حسٍّ بالخصوصية، يتشاركان في حوارٍ كما لو أنّهما بطلا مسرحيةٍ ما؛ فما قولكم أنّني عرفت حينذاك؟

ـ أجل يا صديقي، صدّق أو لا تصدّق، فهذا سيّان بالنسبة لي. (هذا المدعوّ مارسيل يواصل كلامه على ذلك النحو). لقد أدبروا! كلّهم! كما لو أنّهم شخصٌ واحدٌ! تواروا ليلاً بينما كنّا

نياماً، كي لا نلمحهم. رحلوا برفقة نسائهم وصبيتهم، كما لو أنّهم شخصٌ واحد.

هذه المرّة، التفت نحوه الرجل الآخر، ذاك الذي يدعى جيلبير.

ـ يا عزيزي، لعلّي أفهم ما تحاول قوله حين تفرغ من التحدث بلغة الألغاز.

ـ ولكن ما الذي دفعهم إلى ذلك فجأةً؟

ـ فلتشرح لي كلامك يا مارسيل. فأنت لا تكفّ عن الصراخ، ورغم ذلك ما زلت عاجزاً عن الشرح. عمّن تتكلّم؟

ـ لا، لا، غير معقول، لقد جنّوا بالتأكيد.

كنت أتابع هذا الحديث على الرغم مني. فمنذ الصباح وأنا أنهك نفسي في كتابة أسطرٍ خمسة، منقّحاً نسخةً تلو الأخرى، لأرى نفسي أخيراً متّجهاً رويداً رويداً نحو مستنقعٍ موحل من الشطب والتكرار والإضافات. فمن الأيام ما يعرض عنك ابتسامته المشرقة، حتى يمسي كلّ ما تنجزه فشلاً يتكدّس فوق فشلٍ: ومع أنّك تعرف ذلك، إلا أنّك تصرّ على المتابعة، ويصرّ الفشل على مصاحبتك. لكنّك تحاول قصارى جهدك، وتصرّ أكثر فأكثر، كأنّ سعادتك الأبدية رهن تلك اللحظة؛ أمّا النتيجة فعبث: إذ يؤول بي الحال إلى ما كان يجب أن يلمّ بي منذ وقتٍ طويل، وأراني مستقراً، مشلولاً، عند تلك السطور اللعينة، وقد أرعبتني فظاعة عملي وقسوته عليّ. أمّا الهواء من حولي فمعدومٌ معدوم.

فقرّرت أن أزور مقهى الزاوية، معتبراً أنّ رؤية الناس وتأمّل حيويّتهم هي الدواء الناجع لإعادة التوازن إلى أفكاري. فإذا بي أقع على صاحبيّ هذين.

- السُمر.

- السمر؟

- أقلام البيك هؤلاء، العرب، المغاربة الفاحشون بحقّ الله!

منذ ذلك الحين، أرهفت سمعي وأنا لا أدع كلمةً واحدة تفوتني.

- هل أنت متأكّد؟

- طبعاً، كلّ التأكيد!

- أقلت كلّهم؟ ألم تجنّ قليلاً بالصدفة؟

- لقد لزمك بعض الوقت، لكنّك فهمت أخيراً. أقول لك إنّ هؤلاء المغفّلين رحلوا حتى آخر نفرٍ فيهم، بمختلف أصنافهم!

- لا بدّ من أنّ بعضهم بقي...

كان جيلبير قد تقدّم بهذه الفرضية، من غير أن يحرّك عضلةً واحدة من عضلات جانبيَّة وجهه الأشبه بمرتزقٍ قاسٍ. وبالسماع إلى نبرته، كنت لأراهن أنّها تحمل في طيّاتها قهقهاتٍ هازلة.

- هؤلاء العرب الحقيرون! لم يبقَ واحدٌ منهم في وكر الجرذان هذا حيث يعشّشون. ما قولك في هذا؟

لطالما كنت واحداً من أولئك المغاربة، وسأبقى دوماً فرداً

من الذين يتحامق هذا المهرّج بشأنهم، فيدّعي أنّهم غادروا البلاد، وحزموا أمتعتهم جميعاً. لكن لم يبدُ أنّه يمزح، بل على العكس، خيّل إليّ أنّه في أقصى لحظات الجدّ. لا بل بدا إنّ معلوماته موثوقٌ بها. لكن لا، كيف يعقل أن يحدث أمرٌ مماثل يا إلّهي؟ رحلوا حتى آخر نفرٍ فيهم؟ وأنا الذي أقعد بكلّ هدوءٍ في حانةٍ صغيرة من الحيّ الذي أقطن فيه!

لم أكن أنوي أن أفوقهما كتماناً، فرحت أصغي إلى التتمة، وأنا أعير اهتمامي لصور الشخص البلاغية التي تحمل طابع الفلكلور الشعبي.

عندئذٍ، تناهى إليّ صوت الآخر، ذلك الذي لا رأى إلا جانبية وجهه، المدعوّ جيلبير، وقد تفوّه بتلك الأفكار العميقة:

ـ ما الذي سنفعله الآن؟

فهتف مارسيل وهو يكرّر عبارة محادثه، في عادةٍ اكتسبها على ما يبدو، لكنّه عمد إلى تشويه النبرة المستخدمة هذه المرّة:

ـ ما الذي سنفعله الآن؟ بماذا؟

ـ سيترك رحيلهم فراغاً. فلعلّهم لم يكونوا جميعاً بهذا السوء.

ـ فراغاً؟ قل إننا سنتنفس قليلاً أخيراً!

وحدجه مارسيل بنظرةٍ من عينيه الناتئتين، فيما رقصت على شفتيه ابتسامةٌ عريضة زادت من سماكة سحنته.

ـ سوف نتنفّس أخيراً، نتنفس الصعداء!

فكرّر جيلبير بصوتٍ بهيمٍ يناسبه جيّداً:

ـ أمّا أنا، فأظنّ أنّ ذلك سيخلّف فراغاً.

ـ ما الأمر أيها الصديق؟ أتشغل بالك من أجل حثالةٍ من الأفارقة؟

ـ لم أقل إلا إنّ ذلك سيخلّف فراغاً.

ـ وإن يكن! فقد تخلّصنا منهم دونما حاجةٍ إلى تلويث أيدينا بهم. صدّقني إن شئت: فمن يقف إزاءك سبق أن جهّز مخزوناً من الذخائر. ترى، ألم يكن يجدر بي استخدامه حين دعت الحاجة إلى ذلك؟ لكن انتبه، فمخزوني لم يضع هباءً. ما زلت أستطيع الإفادة منه. لكن بالرغم من ذلك، لا أستطيع إلا أن أشعر ببعض الأسف!

فضحك جيلبير خفيةً:

ـ بعض الأسف؟ لو أنّ الأمر لا يتعدّى الأكاذيب في بعض الأحيان.

ـ أوَ أتفوّه أنا بالأكاذيب؟ لقد سمعت الخبر من الراديو مباشرةً!

ـ وأنا أؤكّد لك على أنّ الراديو والتلفاز لا يجديان إلا في نقل الأكاذيب.

ـ بانتظار كشف الحقيقة، فإنني أملك مخزوناً من الذخائر وسأحتفظ به. هل شدّ العرب رحالهم فعلاً؟ فليذهبوا إلى

الجحيم! فما زالت بقيةٌ موجودة، بقيةٌ مكدّسة غيرهم. لا تحسب أنّهم الوحيدون، وأنّ العالم بأجمعه طيّبٌ ولطيف، كما يردّد فلانٌ لا أدري من هو.

- ألا تعتقد أنّك تبالغ قليلاً يا مارسيل؟ أنت تزيد من حجم أوهامك قليلاً. إصرف النظر عن الموضوع، وإلا انتهى بك الأمر مضرَّجاً بدمائك أنت.

- إسمع نصيحتي يا صديقي، فأنت واقعٌ في المأزق نفسه: لا يجب أن تدع الناس يستغلّونك. بالنسبة إليّ، إن أخبروني غداً أنّ رحى الحرب تدور خارجاً، في ذلك الشارع، فسأجيب: أنا مستعدّ. لن أكتفي بوايت أند سي، فأنتظر وأتفرّج كما الإنكليز قبل أن أتصرّف.

- لم أسمع بهذا التعبير من قبل.

- هذا ما يقولونه من الجهة الأخرى للمانش.

- بانش؟ أيّ بانش تعني؟

- ذلك البحر في الشمال الذي يبدو ككوب بانش طويل.

لكنّ المثير للغرابة أنّ مارسيل، ما إن فرغ من هذه التوضيحات، حتى استغرق في التفكير، لدرجة أن كلّ عضلةٍ من عضلات وجهه السميك بدت تشتغل. فلزم الصمت لبرهةٍ، هو الذي من الواضح أنّه لم يعتد ذلك قط. وما لبث أن قلب شفته ونطق بالتالي:

- نعم، هذا يدعو إلى بعض الأسف. أما كان بإمكانهم أن يتركوا لنا بعضهم؟

عندما سمع جيلبير هذه العبارات، بدت الحيرة عليه حتى لم يعد يعرف كيف يفهمها. بدا جانب وجهه كبيراً، قوياً، تتقوّس فيه العظام، كأنّه منحوتٌ في الحجارة، يعلوه جبينٌ تتعثّر في داخله تلك الكلمات بعضها ببعض.

أمّا أنا، فكنت قد فهمت.

فهمت كلماته لأنني أحد أولئك المهاجرين الذين يفترض أنّ كلّهم قد هاجر ثانيةً في الاتجاه المعاكس. كلّهم، باستثنائي، لأنّ إشارة الانطلاق لم تصلني، فأمسيت على الأرجح أمثّل كلّ من تبقى. لكن لا عجب في أنّ الخبر لم يبلغ مسامعي قط. فالسبب بسيطٌ، سيّما وأنّني أقطن في حيّ لا سبيل إلى أن ألتقي فيه بطيف أحد مواطنيّ. لذا، إن كان خبر الرحيل قد شاع فعلاً، فإنّني لم أعلم به مطلقاً.

ولا أنسى السبب الآخر: فلو افترضنا أنّ هذين المضحكين لاحظا وجودي، ما كانا ليتصوّران البتة أنّني أحد هؤلاء المغاربة الذين يسبّبون لهما كلّ هذه الهموم، ولا كانا ليكتشفان، في حال تبقّى مغربيّ واحدٌ فقط فعلاً، أنّني أنا ذاك المغربيّ. فقد حبتني الطبيعة بشكلٍ يمكّنني من الانصهار في خليط البشر. وأذكر أيضاً في هذه اللحظة أنني كنت مواطناً في هذا البلد، قبل أن أصبح غريباً فيه.

وصاح جيلبير:

ـ بما أنّ الباقين قد أخلوا لنا الساحة الآن، لن يبقى عندنا إلا هؤلاء الشباب، المراهقون، حليقو الرأس. أليس كلامي صحيحاً يا مارسيل؟

ـ تباً! لمَ ذهبوا؟ ماذا فعلنا لهم؟ لا أفهم. ألم يكونوا مرتاحين عندنا؟ لن يجدوا ما يلتهمونه في بلادهم إلا التراب، أؤكّد لك ذلك بنفسي. القذرون! كان جيراني منهم، وكنت أنسجم معهم. أتعتقد أنّه كان يجب أن نطلب منهم البقاء؟

فما كان من جيلبير إلا أن كرّر لازمته نفسها:

ـ سيتركون فراغاً، هذا مؤكّد.

بالنظر إلى جانب وجهه المعقّد، يمكن للمرء أن يتبيّن أنّه ليس بمحدّث حيويّ، لا سيّما أنّه كان يطرف بعينيه، ولا يرغم نفسه على المشاركة في الحديث إلا ليرضي الآخر.

وضرب مارسيل بقبضته على المشرب ساخطاً:

ـ فعلاً! ما الذي دفعهم إلى هذا التصرّف الفجائيّ؟ بما أنّهم استقرّوا، فلمَ لا يواصلون العيش هنا؟ ولكن من يحسبون أنفسهم؟ أيجب أن نركع ونتوسّل إليهم لكي يبقوا؟

ظهر النادل على امتداد صوتهما، والصينية في يده، فأشرت بالاقتراب.

ـ أيمكنك أن تخبرني في أيّ يوم نحن؟

بدا أنّ سؤالي قد أذهله، غير أنّني لاحظت أنّه فكّر بدوره قبل أن يجيبني، كمن يجيب مسكيناً طبعاً:

ـ لكنّنا في يوم الجمعة أيها السيّد. الجمعة 29 نيسان. أتريد معرفة السنة أيضاً؟

كنت منهمكاً في حفر هذا التاريخ في عقلي، فقلت له بشرودٍ:

ـ آه، نعم... هل أنت متأكّد؟

أوحى تعبيره أنّه شعر بالإهانة، لكنّه سرعان ما عدل عن رأيه وانصرف، وهو يهزّ رأسه.

وطرح سؤالٌ نفسه عليّ: ما عساي أفعل الآن؟ لقد فوتّ مركبة السفر من جديد، لأنني لا أرى أبعد من رأس قلمي. اعتدت أن أثق بريشتي كما لو أنّها الناطقة بلسان المصير. فضرب الرمل الذي تُشبه الكتابة به أحياناً يروق لي. فالكتابة تطالعني كشفاً للغيب، أقرأ في تعرّجاتها مسالك حياتي، بل حياة العالم بأسرها. لكنّ الوحي لا ينطق دائماً، وقد فضّل هذه المرّة أن يلزم الصمت. صحيحٌ أنّ مواطنيّ بعيدون عنّي في هذا البلد، لكنّهم يلازمونني بصحبتهم، وأستطيع بدوري أن أنضمّ إليهم، في أيّ وقتٍ، لو ساورتني أيّ رغبةٍ في ذلك. أمّا الآن، فقد رحلوا، فيما بقيت أنا وحدي، مع لوحٍ من الرمل، أسجّل فوقه الإشارة تلو الأخرى، إلى ما لا نهايةٍ، من دون أن أنجح في التخلص من وحدتي. وأروح أتخيّل الحفاوة التي سيستقبلونهم بها،

والتحضيرات التي يجهزونها من أجلهم، هناك، حيث ستقام الحفلات على شرفهم. يا لهذا الحماس. وأتلبّس بمشاعر من ينتظرهم هناك، متكتّلين حول مدارج الطائرات، وفي موانىء السفن، وعند المحطّات. وتتناهى إليّ في مكاني هذا صيحات الفرح التي تطلقها حناجرهم كلّهم، بدفعةٍ واحدة. وتهدر في أذني تهليلات الابتهاج التي تزلزل الأرض والسماء، فتصدح احتراماً لإخوةٍ وأخواتٍ عادوا إليهم من أرض المنفى، عادوا إلى أرضهم.

وأرى الانفعال قد استدرّ من أعينهم لآلئها.

لعبة زهر

أشير لهما إلى الباب. كانا فتيان، أحدهما في الثامنة عشرة من عمره، والآخر في العشرين ربّما. السنوات لا تتجاوز الثماني عشرة والعشرين، لا أكثر. قيل لهما: «هذا هو المكان». وقيل لهما: «إنّ الباب لا يُقفل أبداً». لمّا رأياه مغلقاً، دفعاه. فاستسلم لهما. ودخلا. بالأحرى، انقضّا على الساحة انقضاضاً، فإذا بهما في صحن دارٍ كبير. سوف يبقى نور النهار سائداً حتى مدّةٍ غير قصيرة بعد، فيبدأ حظر التجول ونور النهار ما زال سائداً. لا أحد يعلم لمَ يسطع النور في هذا المكان سطوعاً يفوق العادة، ويفوق قلب المدينة خارجاً. أما هذا الصمت، فحدّث عنه ولا حرج! صمتٌ لا سبيل إلى وصفه هو، لا سيّما أنّ صحن الدار كان يتألّق سكوتاً ووحدةً. فقد قيل لهما: «إنّه يعيش وحيداً».

قيل لهما: «في ما يخصّ هذا الرجل، لن تواجها أيّ مشكلة. ستتوجّهان إلى ذلك المكان. إنّه يعيش وحيداً. مسنٌّ هو. ستجري العملية بدون مشاكل».

قيل لهما: «سيكون الأمر في غاية السهولة».

لكن في غمرة هذا الصمت بالذات، وكفواقٍ غريبٍ، مبالغٍ فيه، فرقعت رصاصةٌ. كفواقٍ فرقعت، ثمّ استقرّت في جسد أحد الصبيّين الذي ترنّح كمن أصابه الغثيان، وسقط. حسبه رصاصةٌ يتيمةٌ، وسقط، من غير أن يتحرّك ثانيةً. عندئذٍ، ارتدّ الآخر فجأةً، وهرع نحو بابٍ لم يعرف أنّه، لو دخله، فسيطلق سراح زنابير قاتلة. بابٌ واحدٌ كان، ذلك الباب الذي قيل لهما عنه: «لا، إنّه لا يقفل أبداً». كان يعرف الحقيقة الآن، فها هو يدفعه، ثمّ يدفعه، وسط وابلٍ من الزنابير والرصّاص، لكن من دون جدوى. أخذ يدفع بكلّ ما أوتي من قوّة، لكن عبثاً حاول، فهو أبداً لا يفتح. وقد قيل لهما: «إنّه لا يقفل أبداً».

ـ لا تتعب نفسك يا بنيّ. فهي تخضع لتحكّم نظامٍ كهربائيّ. إقترب.

تناهى إليه الصوت ناضجاً، رصيناً، أبويّاً، بدا صوتاً لم يخاطبه به أحدٌ في حياته قط، صوتاً لا يأمره بالاقتراب بقدر ما يدعوه إليه.

فالتفت إلى الوراء.

ـ ولكن اقترب يا ولدي.

ظلّ ظهره ملتصقاً بالباب الذي فهم للتوّ كيف يعمل. أمّا الصوت، فظلّ ودوداً، مغرياً، يفيض بنبرةٍ لشدّ ما تبعث الثقة في نفس مخاطبها.

أكان الرجل مسنّاً فعلاً؟ لا يظهر أنّ السنين أكلت من عمره

إلى هذا الحدّ. كان يتكلّم من غرفةٍ، الغرفة المقابلة على ما يبدو. عند ذلك الوقت، لم يكن الفتى قد رأى رأسه، في حال كان يملك رأساً، أو في حال لم يكن يملك إلا صوته هذا. لا، لا يبدو أنّه مسنّ إلى هذا الحدّ. أمّا الآخر، ذاك الذي انهار أرضاً، فلم يكن يتحرّك. فالرصاصة كانت قد استقرّت فيه منذ الطلقة الأولى. استقرّت في الصميم. لذا بالنسبة إلى من بلغ من العمر أرذله، لم يكن ذلك بسيّءٍ أبداً. لا، من غير المحتمل أن يكون مسنّاً إلى هذا الحدّ.

- قلت لك أن تقترب.

فأقدم الصبيّ على ثلاث خطواتٍ، ثمّ على خطوةٍ إضافية.

هنا، أطلق الرجل الرصاص.

فإذا بالصبيّ ينعب كديكٍ أبحّ:

- حبّاً بالله!

كان قد جاء ليَقتل، لا ليُقتل. أمّا هذا، فلا يريده قط. لذا، خرّ على قدميه مستسلماً.

لكنّ الرجل تابع إطلاق الرصاص، فيما الصبيّ يتوسّل راكعاً.

- يا إلَهي... يا إلَهي...

بعد ذلك، لم تعد تتكلّم إلا قطرات العرق وهي تنضح على جبينه خوفاً، وعبراتٌ غمرت وجهه بأكمله، فضحت تضرعاً خرج من أحشائه إلى عينيه. فالموت في سنّ مبكرة لا يجوز.

رصاصة. فزمنٌ ينقضي. فرصاصةٌ. فزمنٌ ينقضي.

لكنَ أيّاً منها لم تخدشه، أيّاً منها لم تخترقه هنا أو هناك، أيّاً منها لم تبله بالعمى. وفكّر: «كنت لأشعر لو أصبت».

لكن كيف السبيل إلى التأكد؟ ربّاه، كيف؟ أيشعر المرء إن فجّرت إحدى الرصاصات رأسه؟ مرّت أخرى بمحاذاته. لكنّ الرامي لم يكن بشخصٍ قد يخطىء مرماه. ومرّت رصاصةٌ أخرى. كانت تحتكّ به، فتصوّت في أذنه أثناء مرورها، فيما هو يترقّب تلك التي ستكتب نقطة الختام، وتطفىء نور النهار. وقد كانت ساعة حظر التجوّل ستدقّ.

وتوقّف سيل الرصاصات فجأةً. وإذا بالرجل يخاطبه:

- **كيف حالك؟**

- **كيف يجيب المرء على سؤالٍ كهذا؟**

- **كيف حالك يا ولدي؟**

وسرعان ما فهم المستَجوَب اللعبة: إنّ الرجل يريد أن يعذّبه أوّلاً؛ ثمّ يرديه ثانيةً. فلو شاء فعلاً، لرماه بأوّل رصاصةٍ أطلقها. ولانهار هو، كزميله على بعد خطواتٍ منه. لو شاء، لأرداه من الرصاصة الأولى فعلاً.

سيطر على صحن الدار صمتٌ عظيم، لا شكّ في أنّ الرجل كان يحشو، إبّانه، السلاح ثانيةً. واختتمت العمليّة بصوت فصّال المسدّس، قبل أن ينتهي كلّ شيء: فأسدل ستار الصمت على صحن الدار من جديد، وكان قد رفع لبرهةٍ.

لكنّ الرجل لم يطلق الرصاص.

كان الصبيّ يرخي رأسه خضوعاً، وهو يتأمّل البلاط الأحمر، على نمطٍ واحد، المائل إلى البنّي الفاتح عند أقصى الساحة. ومردّ ذلك، بلا شكّ، مغيب الشمس الوشيك، بالإضافة إلى رغبةٍ في محاكاة دماء الآخر، ذلك الرفيق الممدّد هناك، المضرج بدمه الأحمر القاني، وقد بدأ يستحيل بنّياً مع جفافه.

أخذ يعدّ البلاطات. في الواقع، كان يعدّ خطوط الهرب. تساءل إن كان قد عدّ في حياته أشياء بهذا القرب وهذا البعد معاً. ستكون هذه البلاطات آخر ما تقع أنظاره عليه، لكن أوّل ما يراه حقيقةً، كما لم يرَ شيئاً في حياته قط. واللافت أنّها كانت مجرّد بلاطاتٍ تافهة؛ لكنّه راح يراقبها: قريباً، ينتهي كلّ شيءٍ هنا، ويكون قد عاش حياته.

نعم، فلتذكروا هذا الصبيّ. إنّه يعيش، وقد عاش، من دون أن يفعل أيّ شيءٍ آخر. لم يفعل إلا دخول اللعبة والعيش. دخل اللعبة، مشاركاً في العملية الإرهابية، ثمّ انطفأ. أفل نجمه في ريعان الشباب. لعلّه لم يدرك ذلك، بل ولم ينتبه إلى لحظة حدوثه.

إنتظر. عرف أنّه سيغادر الدنيا، وعرف البرهة التي ستنعي إليه الخبر، تلك البرهة التي تغني الإنسان بمعرفةٍ لا مثيل لها، مقابل لا شيء. يجب ألا يتحرّك، بينما تعتمل في رأسه فكرةٌ واحدة، فكرة عرفها ولن تفيده كثيراً.

ـ أسبق أن قتلت أحداً يا بنيّ؟

ـ لا يا سيّدي.

ـ مع ذلك، جئت ورفيقك لتقتلاني؟

ـ نعم يا سيّدي.

ـ وأيّ ذنبٍ اقترفت؟

ـ لم تقترف أيّ ذنبٍ في حقّ البشر.

ـ إذن لماذا؟

ـ لأنّك اقترفت ذنباً في حقّ الله.

ـ وهل أخبرك الله بذلك؟

ـ ليس لي، يا سيّدي.

ـ لمن إذاً؟!

ـ للزعيم.

ـ إنّه المؤتمن على أسرار الله إذاً.

ـ لست أدري يا سيّدي.

ـ أتكلّمه أنت؟

ـ أتقصد الله؟

ـ بل الزعيم.

ـ لا يا سيّدي.

ـ والله؟

كان جبين الصبيّ ما زال معفّراً بين يدي الرجل، فانكمش على نفسه، وسكت عن الجواب.

غريبٌ هو الصمت الذي وقع عليهما، فلاذا به: في الواقع، لم يكن يفصل بينهما بقدر ما يشرّع نفسه إزاء كلامٍ آخر، موجّهاً نداءً عنيفاً إلى دماءٍ لا تجد كلماتها، أو إنّها لم تجدها بعد.

ثمّ قال الرجل:

ـ وهو الله الذي أخبره أنّ قتلي واجبٌ.

ـ نعم يا سيّدي.

جاء الجواب بمثابة قرقرةٍ لم تصدر عن حنجرة الصبيّ، بقدر ما خرجت من مكانٍ أبعد، من بعدٍ سحيق يعجّ بالشكوك والخوف وأسئلةٍ من غير حلول.

وكرّر الرجل:

ـ وهل أخبره الله أنّك ستموت أيضاً؟

ـ لا، لا أظنّ أنّه أخبره شيئاً من هذا القبيل.

ـ يا لك من ولدٍ! لكنّ ذلك لا يمنع أنّك ستموت. أنظر إلى صديقك، وإلى الجثة التي أمساها، تلك التي ستمسيها أنت بدورك. قلت لك أنظر إليه.

فلفت الصبيّ رأسه بانزعاجٍ نحو الولد الآخر الذي بات مجرّد جثةٍ.

ـ أتظنّ أنّ هذا عدلٌ، أم ماذا؟

ـ ماذا تقصد بهذا يا سيّدي؟

ـ أن تُقتل أنت أيضاً.

ـ لا أدري كيف أجيب يا سيّدي.

ـ لكنّ من أرسلك سبق أن أجاب: فبالنسبة إليهم، قلّما يهمّهم أن تموت أم لا. كنت تعرف هذا قبل أن تأتي.

ـ نعم يا سيّدي.

ـ لا، لم تكن تعرفه! أنتْ تكذب! على غرار كلّ أصدقائك، حسبت أنّك ستواجه غبيّاً مسكيناً، لا يعرف كيف يدافع عن نفسه، شخصاً تغتاله بدون أيّ مجازفة. أيّ مجازفةٍ بتاتاً. أليس ذلك صحيحاً؟ تكلّم.

ـ نعم، صحيحٌ يا سيّدي.

وتابع الصوت الحافل محبّةً يحفر طريقه تحت الكلمات. راح يحفر وينزف.

ـ أهذه هي المرّة الأولى يا بنيّ؟

ـ نعم يا سيّدي.

ـ أكنت تعرف هويّة من جئت تقتله؟

ـ لا يا سيّدي.

ـ لكنّ من أوكلك هذه المهمّة لا يجهل ذلك. فقد سبق أن حاولوا قتلي جاهدين وعرفوا مصير القاتلين. وها أنت الآن لا تجهل أنهم أرسلوك إلى حتفك.

فبدأ الصبيّ بالتكلم:

ـ ليس...

لكنّ اللهاث استبدّ به كطفل قبل أن تغرورق عيناه بالدموع.

فما كان من الرجل إلا أن ألّح عليه:

ـ ليس ماذا...؟

ـ ليس أمامي إلا الموت. فأنا لا أنتظر من هذه الحياة ولا من أحدٍ إلا...

وسكت الصبيّ هنا. عند ذلك، تكلّم الرجل بنبرةٍ فريدة:

ـ أتظنّ أنّ رفيقك الميت أسعد منك إذاً؟

لكنّ الآخر بقي صامتاً.

ـ إنني أسألك: أتظنّ أنّ رفيقك أسعد حالاً في الموت منه في الحياة؟

فهتف الصبيّ بصوتٍ قويّ يكاد يكسر زجاج النوافذ، لو أنّ لنوافذ ذلك البيت زجاجاً فعلاً، لكنّ صوته هزّ أرجاء الهدوء فقط، ذلك الفراغ المنير الذي يحيط بصحن الدار:

ـ نعم يا سيّدي!

فردّ عليه الرجل بصوتٍ لا يقلّ عنه ارتفاعاً:

ـ أتعي الآن الشعور الذي يسيطر على المرء لحظة تقترب منه المنيّة؟

فأقرّ الصبيّ بالصوت نفسه:

ـ نعم يا سيّدي!

ـ تعرف إذن شعور ضحيّتك حين تراك تحزّ عنقها بسكّينك.

ـ نعم يا سيّدي.

ـ وإذا فاجأتك روحك، خلال نومك، تطالبك بالحساب، ما عساك تجيبها؟

لم يكن الصبيّ بحاجةٍ إلى التفكير، بل أجابه توّاً:

ـ أجيبها أنّ من يفقد الحياة في بلدٍ حقير لا يفقد شيئاً مهمّاً.

ـ حافظ على أدبك يا بنيّ. والآن، ألق سلاحك من يدك.

فعمد المسكين إلى جيبه الداخليّ بحركةٍ تلقائية، وأخرج منها خنجراً مدّ يده به.

هنا، أمره الرجل من مكانه في إحدى الغرف، من غير أن يظهر:

ـ ضعه أرضاً. أهذا كلّ شيء؟

ـ أقسم لك بذلك.

عند تلك اللحظة فقط، ظهر أمامه الرجل، فاتّجه نحوه، وقذف الخنجر إلى مكانٍ بعيدٍ في الساحة، بضربةٍ من قدمه. وما لبث أن ألصق فوهة مسدّسه بقمّة جمجمته، وهو يكاد يبتلعه بقامته العريضة.

فأصدر بطلنا الساجد صيحةً جديدةً كديكٍ أبحّ:

ـ لا تفعل هذا، حبّاً بالله يا سيّدي. لا تقتلني. كن لي أباً.

وأسفر رجاؤه عن تشنجاتٍ باكية.

ـ كن لي أباً.

كان ينتحب وينخر، بينما يفتّشه الرجل بحركةٍ خبيرةٍ تفتقر إلى المراعاة، من غير أن يجد معه أيّ سلاحٍ آخر.

ـ قف.

إلا أنّ الصبيّ لم يستطع الوقوف على قدميه إلا بمشقّة. فسأله الرجل بالصوت الآمر نفسه:

ـ ما اسمك؟

ـ عزّ الدين يا سيّدي.

ـ وأنت يا عزّ الدين، أكنت لتعفو عنّي لو كنت مكاني؟

شدّ الصبيّ على شفتيه. رغم ذلك، انفغرت عيناه على مصراعيهما. كان لونهما من الصفاء ما يجعل المرء يبحث فيهما عبثاً عن نظرةٍ ما.

لم يكن، حتى تلك اللحظة، قد رأى الرجل بعينيه هاتين، بل سمع صوته وحسب وهو يصدر من غرفةٍ ما. أمّا الآن، فها هو يراه، ويلاحظ كم يفوقه طولاً.

ـ من سوء حظّك أنّك لم تنجح بالمهمّة التي أوكلت إليك بشأني، وأنت الآن تحت رحمتي، أتفهم هذا؟

وفيما الرجل يتكلّم، أخذ يضرب مسدّسه بصدر الصبيّ.

ـ لم تكن تعتقد أنّك، حين تكسر بابي، ستجازف بحياتك...

وتفقدها. أنت وأمثالك، لا يرضيكم أن تمتحنوا الشيطان، أو ربّما، أقداركم. فلا تقتلون إلا إن أمّنتم أنفسكم ضدّ جميع الأخطار.

لم يردّ الصبيّ بالنفي أو بالإيجاب، وقد بقيت النظرة معدومة في عينيه، بل لم تبدر عنه أيّ إشارة.

ـ هل اتّفقنا الآن وقد أصبحت حياتك ملكي؟

نقّل الصبيّ نظراته التي تلتهمها أنوارٌ مجنونة على الشخص المنتصب أمامه بقامته الفارعة. كان جسده ضامراً في لباسٍ رماديٍّ عاديّ جدّاً، خشبيّ البنية، لا تختلف سحنته عنه اختلافاً كبيراً: فقد كان أسمر البشرة، قاسي الملامح، ذا هيئةٍ فظة لا تفتقر إلى الرقة تحت اللباس الجلديّ، رغم أنفٍ منحوتٍ بلا عناية، وفمٍ متورّمٍ من فيض الدماء، وعينين، عينيه خاصّةً، تطالعك كثقبين متّحدين مع بقية ملامحه، على ما يبدو.

فقال الصبيّ:

ـ نحن متّفقان، فماذا تنتظر؟

ـ أنتظر أن تنتهي من النظر بهذه الطريقة، قبل موتك.

لم يبد أنّ المراهق سمع كلماته، تماماً كما أنّه لم يميّز أمامه وجود الرجل. غير أنّه لم يستطع أن يكبت رجفة شفتيه، وقد بدا أنّ قوّةً أخرى تتحكّم به.

ـ لا تتعجل يا بنيّ. فالوقت لا يضيع سدىً عند الموت، بل

يكتسب دوماً. وقد قرّرت أن أمنحك فرصةً ثانيةً. سنلعب على حياتك اللعينة بزهر النرد ـ تلك التي أمتلكها الآن، أليس كذلك؟

ـ إجلس.

تردّد الصبيّ في إطاعته، والامتثال للمزيد من نزواته الغريبة، وقد بدا أنّه لم يفهم ما قيل له. ترى، ما العمل؟

إلا أنّ الرجل ردّد على مسامعه:

ـ قلت لك إجلس. هذه المرّة، ستراهن على حياتك، وأنت عالمٌ بالسبب: فإمّا تربح وتغادر حيّاً كما دخلت، وإمّا تخسر... تخسر... فأجرؤ على التوقع أنّك ستبدي الشجاعة نفسها التي جئت تغتال بها شخصاً، يفترض أن لا حول له ولا قوّة.

فجأةً، كشف الصبيّ عن صورة من أفاق للتوّ من سباتٍ عميق. فاكتفى بالتكرار بنبرةٍ مقتضبةٍ كئيبة، كما قرّر أن يفعل منذ لمس فشله:

ـ نعم يا سيّدي.

وسقط من جديد. كانت حركته وجيزةً، تلقائيةً، حطّ فيها على ركبتيه، ولاذ بالصبر. أمّا الرجل، فلم يجد أيّ صعوبة في مواجهة الفتى، أو في شبك ساقيه كناسكٍ هنديّ. وكان قد دسّ يداً في جيبه، بينما بقي يسدّد بالأخرى مسدّسه نحو الصبيّ. ولم يطل الأمر حتى أخرج زهرَي نردٍ، ووضعهما على البلاط، جنباً إلى جنب.

فسأله الصبيّ بالتحفظ المتشكّك نفسه:

- كيف نلعب هذه اللعبة؟

- الأمر بسيطٌ جدّاً.

ثمّ قلب الزهر على كلّ وجوهه، وهو يعلن عن قواعد اللعبة باختصار.

رمى الرجل الزهر من يده، فتدحرج وحام مصدراً صوتاً صاخباً يصدع الرأس صدعاً. ولمّا نسج الصبيّ على منواله، تدحرج الزهر وحام مرّةً أخرى كمفرقعاتٍ شيطانية، أخذت عيناه تتابعان وثباته بذهول. قذف الصبيّ بالزهر، وقد صار عرضةً للانبهار، وفريسةً للنسيان، فنسي أين يتواجد، وماذا جاء يفعل، كما نسي الظروف التي قادته إلى هذا المكان. وما لبث الرجل أن رمى بالزهر، قبل أن يعود كلٌّ منهما إلى وضعيته، وكأنّ حركاتهما خاضعةٌ لسلطة بندول إيقاعٍ تافهٍ كلّ التفاهة. في بادىء الأمر، لم يتبادلا أيّ كلمة، لكن لمّا لاحظ الرجل تأثير شرحه الطفيف على الصبيّ، أخذ على عاتقه مهمّة إبلاغه بالنتائج، نتائج الصبيّ والرجل على حدٍّ سواء. فبدا أشبه بآلةٍ ناطقة، تتكلّم وتجيب نفسها في آن.

لم تكن الصدفة تميل لكفة أيٍّ منهما، فإن سجّل أحدهما نقطةً، ألغاها الخصم بنقطةٍ أخرى. وَأخذ الصبيّ يستمع إلى عدد النقاط التي سجّلها، من غير أن يفهم شيئاً، أو أن يبالي حتى على ما يبدو. فقد أعرض قلبه عن قانون اللعبة، وبات نزوعه إلى حياته نفسها نزوعاً عنها، ولم يبقَ إلا... وتابع رمي زهر النرد. أمّا

الصوت الذي لم يستطع أن يسمعه، لكن لم يستطع كذلك ألا يسمعه، فتتابع بدوره حافلاً بالثقة والوضوح والسأم، وظلّ يقرع أذنيه قرعاً.

وواصل الرجل كأنّه يرغب في لعبةٍ عادلةٍ، أو ربّما في إعطاء بعض الدروس:

- تربح نقطتين بفضل رقم اثنين، وثلاث نقاط بفضل رقم ثلاثة، ورقم أربعة يكسبك أربع نقاط، وخمسة خمس. أمّا إن طالعك رقم ستة مزدوج، كما حدث لك الآن مثلي، فتكسب اثنين ضرب ستين نقطة! أترى؟ ها قد عدنا إلى مرحلة صفر - صفر من جديد. في الواقع، ما أعجز عن فهمه هو ادّعاء القاتلين، لا بل السفاحين، أنّهم يسعون إلى خير أمثالهم، وإلى إرضاء الله فضلاً عن ذلك، بينما ضحاياهم لا تشوبهم شائبة، ولا يعتبرون حتى من الزنادقة. فلتخبرني عن هذا قليلاً.

لكنّ الصبيّ بقي يتأمّل رقصة الزهر مذهولاً، من دون أن يجيب، أو ربّما حسب أنّه غير مضطر إلى الإجابة.

فتابع الرجل:

- حسنٌ، حسنٌ. ولِمَ عساك تشرح هذه الأشياء؟ فأنت تنفّذ الأوامر، وعلى الزعماء أن يعطوا الأسباب. لكنّك لن تبقى من دون أن تسمع ما الذي سبّبتموه لربّة عائلةٍ شابّةٍ، ليلة الأربعاء - الخميس. لقد قطعتم عنقها أمام بناتها، رغم أنّها راحت تتضرّع لكم كي تقتلوها بأيّ طريقةٍ أخرى. ثمّ فصلتم رأسها عن

جسدها، ورميتموها في الشارع. وبعد هذا العمل الباهر الذي أنجزته أسلحتكم، ولّيتم مدبرين. ووقع على عاتق كبرى البنات أن تذهب لتحضر رأس أمّها، كي تضمّه إلى الجسد.

توقّف الرجل عن اللعب، ريثما يطرح السؤال:

ـ فما رأيك؟

وتدافعت الكلمات بين أسنان الصبيّ، فردّ بوتيرةٍ عاصفة:

ـ على الحياة، لا غيرها، أن تطلب الصفح جرّاء كل ذلك! فبالنظر إلى كلّ الأفعال التي تفرضها علينا، عليها أن تعترف هي بذنوبها، لا نحن! هي الحياة التي تدفعنا إلى ارتكاب الذنوب، وتسمح لنفسها أن تزدري العالم! أمّا العفو، فلا يمكن أن ينتج إلا عن الموت. العفو والرحمة...

لم يكن الصوت يتوجّه إلى الرجل، بل لم يكن يخاطب أيّاً كان. وما لبث أن اختنق في براءةٍ يائسةٍ.

ـ الحياة هي التي تزرع الرعب والأهوال. فتلك هي طريقتها في العناية بنا. أمّا الموت، فلا يفعل إلا العبور وراءها ليلملم البقايا.

تركه الرجل يتكلّم.

ثمّ جاهد الصبيّ كي يتلفّظ بمقتطفات عباراتٍ وقعت في شرك حنجرته، حتى بات لا يصدر إلا حشرجاتٍ متلعثِمة.

ـ الحياة خانتنا... وأنتم... أنتم... أنتم الراشدون... أنتم

الرجال الذين... الذين سبقتمونا: أنتم أيضاً... خنتم الثقة التي... التي وضعناها فيكم!

فردّ الرجل:

ـ ولهذا ها نحن نلعب لعبة الحقيقة. لقد فطنتَ إلى الأمر أخيراً يا بنيّ.

ولم يضف كلمةً واحدة بعد ذلك، رغم أنّ جعبته لم تكن قد فرغت من الحجج بعد، على ما يبدو. كان بوسعه أن يضيف الكثير الكثير، لكن من الواضح أنّ أسلوبه في الحياة ينصّ على عدم الكشف عن أعماق أفكاره لأيٍّ كان.

فأيّ خطوةٍ غامضة دفعته إلى متابعة الكلام بعد مضيّ برهةٍ من الوقت؟ لا يعقل أنّه عزم على ذلك من دون أن يكون قد رسم هدفاً معيّناً.

ـ بدأت لعبتنا هذه منذ زمنٍ طويلٍ جدّاً، يا بنيّ. بدأت قبل أن تطأ قدماك هذا البيت، وقبل أن تلوّح بسكّينك ضدّ عشيرتك، بل وقبل ولادتك. بدأت قبل كلّ شيء. إنّه دورك في اللعب، فماذا تنتظر؟ يحسب المرء أنّه يستطيع أن يحدّد سير الأحداث بنفسه، وبالتالي يحدّد سير مصيره. لكن أبداً. محال. فهو لا يفعل إلا تأخير موعد استحقاقاته التي لا تكاد تتأجّل، حتى تعود من جديد بكلّ ما أوتيت من قدرةٍ ساحقةٍ، شاملةٍ، عنيفةٍ على التدمير. أمّا بالنسبة إلى مصيرك، فيكتفي بمراقبة إيماءاتك وهو يضحك خفيةً.

وأفلتت من الرجل ضحكةٌ لا تشبه الضحك، فرقعت كعود ثقابٍ انطفأ وهو لم يكد يُقدح. ثمّ أردف:

ـ لكنّنا لا نملك أن نمنع أنفسنا من اللعب مع المصير، من منطلق القوّة. نلعب معه كما تتلاعب أنت بحياتك، وتجازف بها، في تلك اللحظة. هكذا تسير الأمور.

فضلاً عن ذلك، خطرت له تلك الفكرة الغريبة:

ـ بالنظر إلى ذلك، يتعلّم المرء من يكون. وأنت الآن تعرف من تكون.

ـ لا، ليس بعد.

ـ أنت قاتل.

ـ لا، ليس بعد.

ـ بلى.

ـ لا، ما أنا بقاتلٍ، ما أنا بأحدٍ، ولا أنت، ولا معلّمي، تعلّمانني من أكون. فمن سوء حظّكما أنّ أوان تلقيني أيّ أمثولةٍ قد فات منذ زمنٍ طويل. كان يجب أن تنهضا في وقتٍ أبكر.

ـ بلى، علّمتك وما زلت أعلّمك. فصرت تعرف كيف تميّز بين الأشياء، وكيف تفتح عينيك لتتعرّف إلى نفسك، وكيف تدفع مقابل ذلك.

ـ لم تعلّمني حتّى كيف أسمّي نفسي، كما أنّك لم تتفضّل باستخدام اسمي، عزّ الدين، منذ أعلمتك به. وأفترض أنّ السبب يعود إلى جهلك اسمك الخاصّ، وإلى أنّك، مثلي، لا أحد!

ـ وماذا عن المخدّرات؟

ـ إنّها تقرّبني من الله، ومن نفسي، ومن وطني، ومن كلّ ما أضعناه، ومن كلّ ما أضعته أنا.

ـ وماذا عن القتل؟ أيقرّبك هو من كلّ ذلك أيضاً؟

ـ والقتل أيضاً.

ـ كيف يمكنك أن تؤكّد على كلامٍ كهذا؟ إن كان ينبغي أن أصدّقك، فأنت لم ترتكب جريمةً واحدةً حتى الآن. إنّها تجربةٌ ناقصة. وهل تدرك أنّ جريمة القتل التي بتّ غير جديرٍ بارتكابها ستقتلك بدورها؟ ألن يؤثر فيك هذا؟

هذه المرّة، كان الإرهابيّ الصغير من أطلق ضحكةً هازئة مريرة:

ـ إن كانت جريمتي ستقتلني؟ لكن لم يبق فيّ ما يُقتل! لست إلا جرحاً فيه من العمق ما يتسبّب بالموت. لست إلا جرحاً يأكل نفسه. لست إلا ميتاً ما زال يتعذّب لأنّه لم يمت تماماً. أتفهم هذا؟

هنا، أعلن الرجل:

ـ لقد لعبت لتوّك، أليس كذلك؟ فهلا مرّرت لي الزهر؟

ولم يعد يتنقّل بينهما إلا صوت زهري النرد، وهو ينتفض جارياً فوق البلاط العاري، قبل أن ينحسر إزاء صمتٍ. ستارٌ من الصمت لفّهما فجأةً، ملقياً بثقله على الجدران، حتى يكاد يدفعها صراحةً نحو أفقٍ من الغسق والأشباح. لكنّ الليل كان بالكاد قد كشف عن طيفه في تلك الساعة، فتركه يتغلغل بين اللاعبين،

ويندسّ بألقه حريصاً على ألا يغيّر شيئاً من حولهما. رجلاً وصبيّاً كانا، لا يعيران أيّ اهتمامٍ للفح النور هذا، ولا للأجواء التي لم تتبدّل من حولهما قط.

استأنف الرجل الكلام وأنظاره لا تفارق النرد في جريانه:

ـ أتعرف الآية الكريمة: ﴿لئن بسطتَ إليّ يدكَ لتقتلني ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلك﴾ السورة الخامسة، الآية الثامنة والعشرين، فما رأيك؟

هزّ الصبيّ رأسه غير مرّةٍ علامة النفي، قبل أن يجيب:

ـ لا تتعب نفسك، فلا أعرفها. لو كان باستطاعتي قتلك، لفعلت.

ـ ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار﴾

لم يتفوّه بهذه الكلمات بقدر ما تلاها تلاوةً، وما لبث أن أعلن بصوتٍ عاديّ:

ـ السورة نفسها، الآية التاسعة والعشرون.

ـ ثمّ ماذا! أيمكنك أن تخبرني، أنت، ما مكانة حياةٍ إنسانية في نظر الله؟

فقال الرجل مازحاً:

ـ هباء، بخلاف حياتك طبعاً.

ـ بخلاف حياتي؟ أبداً.

ـ بخلاف حياة زعيمك إذاً؟

ـ لا أملك أدنى فكرة.

ـ أنت تكذب مجدّداً، أَوَ تتكلّم عن الأفكار؟ إنّ رأسك يعجّ بها، وأنت تبصر المصير الذي تجرّك إليه. أليس كذلك؟

ـ لا أبصر شيئاً.

ـ ومن يبصر إذاً؟ لا أحد؟ الله؟

ـ الله هو البصير.

ـ ومن أيضاً؟ زعيمك؟

ـ لست أدري.

ـ سيخبره الله بالجواب.

ـ ربّما.

ـ وبعد ذلك، تتابع كما بدأت.

ـ لا، أنا لن أفعل، لكنّ الآخرين قد يتابعون إكراماً لله. أمّا أنا، فحين أنظر إليك، لا أرى إلا وجه حتفي. الموت وحده أمامي.

ـ يا ولد! أتعرف لِمَ نحتفل بالعيد الكبير عبر قتل الخروف؟

ـ لا يا سيّدي.

ـ أراد إبراهيم أن يضحّي بابنه إكراماً لله، لكنّ الله رفض هذه الأضحية. وعِوَضَ الصغير، وضع تحت السكّين خروفاً. هذا هو السبب، لئلا يَقتل كائنٌ، يزعم أنّه الإنسان، غيره من البشر. أتعرف من كان إبراهيم؟

ـ لا يا سيّدي.

ـ ماذا عن زعيمك، أيعرفه هو؟

ـ هو... لا أعرف يا سيّدي.

وأقبل الغسق، لا ترسله السماء موجاتٍ متتابعةٍ متدفقةٍ، بل تنضح قطراته رويداً رويداً من الجدران، ومن حول صحن الدار، وقد ذاب أكثر من نصفه في ضبابةٍ غائمة، ثمّ وقف دون اللاعبين، عند حدود دائرة النور الحصين التي يتمركزان في وسطها.

أخذ الرجل يتأمّل الإرهابيّ الصغير، كما لم يفكّر في تأمّله قبلاً، وربّما كما لم يرغب في تأمّله قط. لم يعرف أيّ مشاعر توحي له بها براءة هذا المحيّا الذي تحيط به لحيةٌ نابتة، ولا أيّ كلمات تجدي في تعريف الوجه الجامد، اللبنيّ، الذي يتّسع في جبينٍ رحب، ثمّ يرقّ في نقرة ذقنٍ بارزة، وشفتين ممتدتين كجناحي طير، يعلوهما أنفٌ قصير يتقعّر حدّه في ثلمٍ دقيق، وجبينٍ ينسدل فوق العينين، تلك العينين اللتين تزرعان الرعب من فرط شفافيتهما. إزاء هذا المنظر، شدَّ الرجل فكّيه فقد أبصر لتوّه الموت خلف قناع مراهقٍ. كان يملك عينين كبيرتين فاغرتين ترمق مكاناً آخر، لا سبيل إلى تحديده؛ مجرّد وهمٍ متربّصٍ متجدّدٍ هو الموت.

ـ لقد ربحتَ يا بنيّ. إرحل الآن. إذهب حالاً. أتسمعني يا عزّ الدين؟ قلت لك إنك تستطيع الرحيل. إرحل حيّاً، سليماً، كما جئت.

يا لهاتين العينين! لم يكن يستطيع أن يحوّل عنها أنظاره.

ـ في الواقع، أنت وأمثالك لستم إلا شياطيننا. لم نكفّ مرّةً

عن حمل صورتكم في خيالنا. ونظراً لأنّنا لم نستطع، أو قل لم نعرف، أن نبقيكم مكبّلين في مكانٍ لم يكن يجدر بكم أن تخرجوا منه قطّ، ها أنتم أحرار في الذهاب، وأحرار في غزو الأرض، وأحرار في إعادة إرساء الأزمنة السحيقة، على غرار ذئابٍ تعوي.

ما إن سمع الصبيّ هذه الكلمات، حتى انتصب على قدميه، وأولاه ظهره من دون أيّ تعليق.

كان قد بلغ الباب حين شلّه في مكانه أمرٌ إضافيّ.

ـ قف مكانك! انتظر ريثما أفتح لك الباب! ولا تنسَ أن تصحب معك رفيقك المزعج.

تريّث الصبيّ، وهو لا يتساءل أيّ خطوةٍ هي الأمثل، سيّما وأنّه لا يملك أيّ خيار.

أمّا الرجل، فاستغرق مضيّه إلى إحدى الغرف بضع ثوانٍ، ما لبث أن انضمّ إليه بعدها. فأمسك الصبيّ من ذراعه شخصيّاً، وقاده إلى حيث يرقد الميت معترضاً الباب. لا بل إنّه مدّ له يد المساعدة ليرفع الجثة على كتفه. وما إن حملها الصبيّ حتى أقبل يفتح الباب، فإذا به ينشقّ وحده، وهو يصدر قعقعةً صغيرة.

وذهب. شعر بثقل الظلام على المدينة عميقاً. ولمّا اختفى، تمتم الرجل الذي كان يرافقه بنظراته، داعياً:

ـ مع السلامة يا بنيّ.

كان حظر التجوُّل قد أفرغ الشوارع من أناسها. فأخذ الصبيّ يسرع، وهو يترنّح في مشيته، وقد انحنى من ثقل الجسد الميت على كاهله. شعر بأنفاسه عنيفةً حاذّةً، بينما اعتمل في معدته نزوعٌ فجائيّ إلى القيء. غير أنّه لن يستسلم، بل سيواظب على التقدم. لكنّه لم يصمد طويلاً، بل أعلن الاستسلام. لم يحدث شيءٌ في البدء. ثمّ حدث ما حدث. لكنّ الأمر لم يجر وفق توقّعاته، فهو لم يتقيّأ إلا نحيباً.

نحيباً؟ لماذا؟ أتراه يتأسّف لأنه لم يُقتل بدوره؟ لكنّه لن يقتل أحداً مجدّداً، سوف...

وبدأ الأمر، من بعيدٍ، من خلفه. تناهت إليه ضرباتٌ مخنوقة، سمعها في بادىء الأمر، من غير أن يسمعها فعلاً. وما لبث الصوت أن اقترب من مسامعه، فاستحال صوتاً أسود كذلك الذي يصدر عن آلافٍ من مصّاصي الدماء. عند ذلك، أزّت رصاصاتٌ. «أهي رصاصات المسنّ؟ أقد تصيبني؟» أراد أن يركض، لكنّه تمالك نفسه، وعمد إلى إسراع الخطى وحسب. «سينتهي بها المطاف بأن...». ثمّ تعثّر وقد تغلّب عليه حمل الموت فوق كتفيه. فقال في نفسه: «سينتهي بها المطاف...».

ملحق

لو اعتبر المرء أنّ روايات مؤلّفٍ تشكّل، مجتمعةً، روايةً أخرى تحتضنها كلّها، بسبب أواصر القرابة الخفيّة بينها، أفلا يجدر به أيضاً أن يعتبر مجموع أقصوصاته روايةً، من شأنها أن تضخّم منتوج روايته العظمى، وذلك بسبب الإحالات الصادرة عن الجذع المشترك، والمرتبطة بعضها ببعض بأواصر القرابة نفسها؟ أقدّم إليكم رأيي هذا كي تقرأوا، على ضوئه، أقصوصات هذا المصنَّف، مع العلم أنّ كلاً منها تكتفي بذاتها، وتسوّغ قراءةً مستقلة.

لمّا كانت القرابة تؤمّن الرابط، فإليكم أحد الأسئلة التي تراودني: كيف وسعنا، نحن الناس بين الناس، أن نشارك في جرائم عصرنا كلّها لننتج عصراً يكتظّ بالجرائم اكتظاظاً؟ سيكون طلبي عسيراً لو سألت عن السبب؛ لذا دعونا نسأل في المقام الأوّل كيف حدث ذلك، فنلقي الضوء على أولئك المهرّجين الكئيبين الذين نلبس أقنعتهم، ضمن إطار مقالب كئيبةٍ في قرنٍ كئيب. أفيعذر الإنسان أنّه حطّ على سطح القمر؛ أفيغفر له ذنوبه

مثل هذا الحدث العظيم؟ لا شيء أكيد. وماذا لو أنّ هذا مجرّد حجةٍ، ينسج عبرها حبائل جرائم أخرى؟

ويبقى الشهود على فعلتنا: الأطفال، أطفالنا. إنّهم أبطال عَدَدٍ من هذه الأقصوصات. فماذا عسانا نتأمّل منهم إن كنّا قد نحتناهم على صورتنا؟

لكنّ الكاتب لا يحمل المعرفة، بل الجهل. فهو لا يقدّم إلينا الأجوبة، بل يقدّم الأسئلة.

الصيّاد بطلٌ آخر من أبطال هذه الأقصوصات. صحيحٌ أنّه غير مرئيّ، لكن ذلك لا يمنع أنّه متواجدٌ في كلّ مكانٍ، أشبه بصورةٍ عن العنف، بلا مبالاةٍ، بلا حدودٍ، مجرّدةٍ من أيّ شعورٍ. لو أنّه محتالٌ وحقيرٌ وراشٍ، لجسّد الشيطان بعينه. لكنّه لا يتّصف بأيّ من هذه الصفات.

وتراودني فكرةٌ، لم تطرق ذهني يوماً من غير أن أتصبّب عرقاً، من شدّة الجزع: تلك التي تتعلّق باستمرارية قصّةٍ نحو الخرافة أو السحر الذي يؤلّفها، فتُعلم بما لم يكن يمثّل، في الأصل، إلا تكتّلاً، كوكبةً من القصص الصغيرة جدّاً. فأين يكمن سرّ هذه الخيمياء، وما السبيل إلى الكشف عنه والقبض عليه؟ ما هو هذا السرّ الذي يجري على ممرّ السرد، فيحدّد شعوراً بامتدادٍ لامتناهٍ للزمن والحياة، ويولّد إحساساً برضىً عميق؟ أيكمن في القصّة، أم فينا، حين نستحيل قرّاءً، فنركّب، بفضل قراءتنا، توليفاً بين عناصر كانت مجزّأةً في الأساس؟ أم أنّه يقبع في قدرتنا

على تقمّص كلّ شخصية؟ لعلّ هذه الاستمرارية لا تنبجس إلا عن ديناميكيّة الكتابة... باستثناء إن كانت تنبثق عن قدرٍ، قد نميل إلى وصفه بأنّه يجرّ الجنس الروائيّ بالوتيرة نفسها التي يجرّ بها إنسانيتنا، ويذهب به الأمر حدّ فرض سير الرواية - وهي روايةٌ وهمية مثل رواية وجودنا الفعليّ الذي يقصّه أبو هولٍ مغمغم.

لا نبصر كيف تتحرّك هذه الاستمرارية، لأننا، بكلّ بساطة، لسنا سجناءها؛ هذا هو اعتقادي. فالحالم الخاضع لنفوذ حلمه لا تدهشه الانقطاعات والنقائص وحلول الاستمرارية التي توجّه مغامرة الحلم؛ إنه لا يتأثر إلا بتماسك الانقلابات الغامض، أي الحدث المنطقيّ الوحيد في نظره. ونحن بدورنا، عندما نكتب أو نقرأ، نعيش حلماً، ونفيق من روايةٍ نكتبها أو نقرأها، كما نفيق من حلمٍ: ورأسنا يصرخ بسؤالٍ واحد، أين هو المنطق؟ في الواقع، لا يمكن للمنطق، في نظري، إلا أن يكون ذلك الغموض الذي لا تكفّ الاستمرارية عن إحاطة نفسها به، ذاك الذي أفاجىء نفسي دوماً بلعنه.

وماذا لو كان نزلاً يقدّم إليكم ندلاؤه ما أحضرتموه وحسب؟ ولكن دعونا نغيّر الموضوع.

أيّ سؤالٍ أشدّ خطورةً من مسؤولية الكاتب قد يواجهه هذا الأخير؟ لقد أسأت طرح السؤال، وعليّ أن أعيد صياغته: أمن المنطق أن نفيض في الكتابة، ونحن لا نملك الأجوبة؟ لمجرّد أننا كتبنا الأسئلة، أو ببساطةٍ لمجرّد أننا كتبنا... يبدو أنّ الغرب

قد تحرّر من هذا الهمّ اليوم، بعد أن فصل بين الأمرين: الكتابة (الروائية) والمسؤولية (الأخلاقية). لكن أيجب أن نفصل هذا الوضع دائماً، بل أيمكننا ذلك؟ برأيي، لا يمكننا ولا يجدر بنا ذلك، بل ولست بحاجةٍ إلى إبداء رأيي: فهذا يثبت كلّ يومٍ، لكن في كلّ مكانٍ غير الغرب.

أن نتمنّى تحوّل الكاتب إلى ملقّن دروسٍ ومراقبٍ، فهذا ما لن يحدث أبداً. لكن، في المقابل، لا نستغرب أن يُعاقَب حين يقول (يكتب) ما يفكّر فيه، «بروحه وعقله». وهل من أسلوبٍ أفضل نتعلّم عبره ثمن الكلمة، ونعرف أيضاً أنّ كلمتنا مسموعة، وأنّها تلقى تقديراً واسعاً بمقدار اللوم والشجب اللذين تتعرّض لهما؟ من هذا المنطلق، إنّ الخطر الذي يحدق بالكتابة ينقل حروفها النبيلة إلى مصاف الأدب. لكنّ الأمر لا يتعلّق بالنبالة وحدها، بقدر ما يتعلّق بالنجاة في صحراء واسعة من الثرثرة التي اجتاحت قسماً من كوكبنا.

وفي خضمّ خليط الأصوات المتنافرة تلك، لا يبقى للكاتب بالتأكيد إلا الأمل، والرضى النابع عن هذا الأمل، في أن يبلغ صوته مسامع قارىءٍ غامض.

لكنّ الحال لن تصل بي طبعاً حدّ الدعاء بالتعاسة على مجتمعٍ، في سبيل إرساء مجد الأدب (أو دناءته).

الفهرس

سلسلة التراث

الليلة المتوحشة

مع أنّ أقصوصات الليلة المتوحشة مأساوية غالباً، إلا أنّها تفيض نوراً، مسجّلةً عودة محمّد ديب إلى بلده الأصليّ. يتّخذ بعضها حرب الاستقلال خلفيةً، بينما يندرج بعضها الآخر ضمن الواقع المعاش اليوم

في أقصوصات الليلة المتوحشة، يعيد محمّد ديب، الحائز جائزة الفرانكوفونية الكبرى من الأكاديمية الفرنسية، أواصر العلاقة مع جزائر من لحمٍ ودم، فيشهد على مآسيها ونزاعاتها، وفكرةٌ ثابتة تختلج في صدره: عدم الفصل بين «الكتابة (الروائية) والمسؤولية (الأخلاقية)»، كما كتب في ملحق الكتاب.



N° ISBN:9947-21-140-1